الحياة التي يمكنك إنقاذُها

كيف تقوم بدورك في القضاء على الفقر العالمي

16.1.2022



بيتر سينجر

ترجمة: سعيد توفيق



الحياة التي يمكنك إنقاذُها

كيف تقوم بدورك

في القضاء على الفقر العالمي


تمت ترجمة هذا الكتاب بدعم
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative

الحياة التي يمكنك إنقاذُها
كيف تقوم بدورك في القضاء على الفقر العالمي

تأليف: بيتر سينجر

ترجمة وتعليق: سعيد توفيق

الطبعة الأولى: 2021

ISBN: 978-603-91637-0-1

رقم الإيداع: 1442/10121

هذا الكتاب ترجمة لـ:

Peter Singer,

The Life You Can Save

Cover Painting by: Kazimierz Malewicz

الآراء والأفكار الواردة في الكتاب تمثل وجهة نظر المؤلف



الناشر:

دار معنى للنشر و التوزيع

 www.mana.net | info@manaa.net | @ManaPlatform

المحتويات



إلى ريناتا، التي لولاها...

تصدير

عندما رأى ويسلي أوتري Wesley Autry رجلًا يسقط على قضبان قطار الأنفاق، لم يتردد. ومع ظهور أضواء القطار القادم، قفز أوتري -وهو عامل إنشاءات- فوق القضبان ودفع الرجل إلى الأسفل داخل مَصرَف لمياه الأمطار يقع فيما بين القضبان، مغطيًا له بجسده. عبَر القطار فوقهما، تاركًا أثرًا من الشحم على قبعة أوتري. والواقع أن أوتري -الذي دُعي فيما بعد إلى حضور **الخطاب السنوي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية**، حيث امتدحه الرئيس لشجاعته- قد قلل من أهمية أفعاله التي قام بها، قائلًا: «لا أشعر بأنني فعلت شيئًا ما رائعًا. فأنا فقط رأيت شخصًا ما كان محتاجًا إلى المساعدة. وأنا فعلت ما شعرت بأنه فعل صائب»[1].

ماذا لو أخبرتك بأنك أيضًا يمكن أن تنقذ حياة شخص ما، بل حياة أشخاص عديدين؟ هل لديك قنينة ماء أو عبوة صودا على المنضدة بجانبك بينما تقرأ هذا الكتاب؟ فإذا كنتَ تدفع نقودًا من أجل شيء ما تشربه في الوقت الذي تأتيك مياه الشُرب الآمنة من الصنبور، فأنت إذًا لديك مالٌ تنفقه في أشياء لا تحتاج إليها حقًّا. وهناك في كل أنحاء العالم بليون من الناس يكافحون من أجل العيش كل يوم على مبلغ من المال أقلّ مما تدفعه لأجل ذلك الشراب. ولأنهم لا يمكنهم حتى أن يكفلوا لأسرهم الرعاية الصحية الأكثر أساسية؛ فأطفالهم قد يموتون بسبب أمراض بسيطة قابلة للعلاج بسهولة مثل الإسهال. يمكنك مساعدتهم، من دون أن يكون عليك لكي تقدم هذه المساعدة أن تجازف بأن يصدمك قطار قادم.

لقد كنتُ أفكّر وأكتب عبر أكثر من ثلاثين سنة في الكيفية التي ينبغي بها أن نواجه الجوع والفقر. وقد عرضت برهان هذا الكتاب على آلاف من الطلبة في مقرراتي الدراسية الجامعية وفي محاضرات حول العالم، وعلى من لا يُحصى عددُهم من خلال الصحف والمجلّات والبرامج التليفزيونية. ونتيجة لذلك؛ فقد اضطُرِرتُ إلى أن أواجه نطاقًا واسعًا من الاعتراضات عميقة النظر. وهذا الكتاب يقدم جهدي من أجل تقطير ما قد تعلّمتُه عن السبب الذي من أجله نتبرّع أو لا نتبرّع، وعمّا ينبغي أن نفعله في هذا الشأن.

(1) Cara Buckley, «Man Is Rescued by Stranger on Subway Tracks,» *The New York Times*, January 3, 2007.

إننا نعيش في لحظة فريدة. فنسبة الناس غير القادرين على الوفاء بحاجاتهم البدنية الأساسية تُعدُّ اليوم أقلّ مما كانت عليه في أي وقت من التاريخ حديث العهد. وفي الوقت ذاته، فإننا عندما نتخذ منظورًا على المدى البعيد يتجاوز في رؤيته تقلبات المرحلة الاقتصادية؛ فإن نسبة الناس الذين يكونون في وضع يزيد كثيرًا عما يحتاجون إليه تُعدُّ أيضًا نسبة غير مسبوقة. والأكثر أهمية هو أن الأغنياء والفقراء متصلان الآن بأساليب لم يكونا عليها أبدًا من قبل. إن صور الشريط السينمائي -في الزمان الواقعي- عن الناس الذين يكونون على حافة البقاء على قيد الحياة، يتخلل شعاعها غرف حياة معيشتنا. فنحن لا نعرف فقط الكثير بالفعل عن الفقراء بشكل بائس، وإنما لدينا أيضًا الكثير جدًّا مما يمكن أن نقدّمه لهم من حيث العناية الصحية الأفضل، والبذور المُحسَّنة والأساليب الفنية الزراعية، والتقنيات الجديدة في توليد الكهرباء. وما له تأثير أكثر إدهاشًا من ذلك هو أنه من خلال الاتصالات السريعة وإتاحة الوصول بلا قيد إلى ثروة من المعلومات تتجاوز أكبر المكتبات في عصر ما قبل الإنترنت، يمكننا بذلك أن نمكّنَهم من الارتباط بالجماعة المشتركة عبر كل أنحاء العالم، إن كنا فقط نستطيع أن نساعدهم على أن يتخلصوا من الفقر بقدر كافٍ لكي يغتنموا الفرصة المتاحة.

لقد برهن عالم الاقتصاد جيفري زاكس Jeffrey Sachs بشكل مقنع على أن الفقر المُدقِع يمكن من الناحية الافتراضية التخلص منه عند منتصف هذا القرن الحادي والعشرين. إننا من قبل ذلك نمضي قُدمًا. ففي سنة 1960 -وفقًا لـ**«صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة»** UNICEF- مات عشرون مليونَ طفلٍ قبل أن يبلغوا الخامسة من عمرهم بسبب الفقر. وفي سنة 2007 أعلنت هذه المنظَّمة أنّه لأول مرة منذ أن بدأت الرعاية الموثَّقة، انخفض عدد وفيات الأطفال الصغار إلى ما دون عشرة ملايين في السنة[1]. إن الصحة العامة التي تدير حملة ضد أمراض الجُدَري والحَصبة والملاريا، قد ساهمت في تخفيض وفيات الأطفال، مثلما ساهم في ذلك التقدم الاقتصادي في بلدان عديدة. بل إنَّ هذا الانخفاض مثيرٌ للإعجاب لأن عدد سكان العالم قد أصبح أكثر من ضعف ما كان عليه منذ سنة 1960. ومع ذلك فإننا لا يمكن أن نصبح قانعين بذلك: فما زال 9.7 مليون طفل دون سِن الخامسة يموتون سنويًّا، وتلك مأساة جسيمة، إن

(1) Donald McNeil, «Child Morality at Record Low: Further Drop Seen,» *The New York Times*, September 13, 2007.

لم نقل إنّها وصمة أخلاقية على جبين عالَم ثري كهذا العالم الراهن. كما أن ارتباط حالة عدم الأمان الاقتصادي بالتقلب السريع للأسعار الذي وسم سنة 2008 قد لا يزال له تأثيره في اتخاذ المسار العكسي للمنحى الهابط في عدد الوفيّات المرتبطة بالفقر.[1]

يمكننا أن نشبّه موقفنا بمحاولة بلوغ قمة جبل هائل. لأننا في كل حُقَب الوجود الإنساني، كنّا نتسلّق من خلال سحابة كثيفة. فنحن لم نكن نعرف إلى أي مدى ينبغي لنا أن نذهب، ولا نعرف حتى إذا كان من الممكن أن نبلغ القمة. والآن أمكننا أخيرًا أن نبزغ من بين الضباب وأن نرى مسارًا من فوق المنحدرات الحادّة ويؤدي إلى أعلى حافة القمة. إن الذروة لا تزال تقع على مسافة ما من أمامنا. وهناك مقاطع من المسار سوف تتحدى قدراتنا إلى أقصى حد، ولكننا يمكن أن نرى أن الصعود قابل للتنفيذ. يُمكن، لكل مِنّا، أن يؤدّي دوره في هذا التسلّق المعبّر عن مرحلة تاريخية حاسمة من حياته. وفي السنوات حديثة العهد كان هناك قدرٌ كبيرٌ من التغطية الإعلامية لبعض من بين الأثرياء جدًّا الذين تكفّلوا بهذا التحدي على نحو شجاع وعام. لقد تعهد وارين بافيت Warren Buffett بالتبرُّع بمبلغ 31 بليون دولار، كما تعهد بيل وميليندا جيتس Bill and Melinda Gates بالتبرُّع بمبلغ 29 بليون دولار، وهما يخططان لتقديم المزيد[2]. وإن تكن هذه المبالغ هائلة، فإننا سنرى عند نهاية هذا الكتاب أنّها مجرد كسر عددي ضئيل لما يمكن أن يقدمه الناس بسهولة في الأمم الثرية، من دون اختزال في مستوى معيشتهم. ونحن لن نبلغ هدفنا، ما لم يساهم الكثيرون جدًّا في هذا المسعى.

ذلك هو السبب في أن هذا هو الوقت الصحيح لكي تسأل نفسك: ما الذي ينبغي أن أفعله لكي أقدم المساعدة؟

إنني أكتب هذا الكتاب بهدفين مرتبطين وإن كانا مختلفين بشكل له دلالته. الهدف الأول هو أن أحفّزك على التفكير في التزاماتنا إزاء أولئك الواقعين في شرك الفقر المُدقِع. الجزء من الكتاب الذي يطرح بشكل قصدي هذا التحدّي يقدم لنا مطلبًا -قد يراه البعض مستحيلًا- بتحديد معيار للسلوك الأخلاقيّ. وسوف أقترح أنّه قد لا يكون من الممكن أن نعتبر

(1) بطبيعة الحال لم يكن يدور بخلد بيتر سينجر -حينما نشر هذا الكتاب سنة 2009- الأزمة الاقتصادية لجائحة كورونا سنة 2020، وما ترتب عليها من أزمات أخرى على سائر الأصعدة. [المترجم]

(2) Kristi Heim, «Bulk of Buffett's Fortune Goes to Gates Foundation,» *The Seatle Times*, June 26, 2006.

أنفسنا نعيش حياة جيّدة من الناحية الأخلاقية، ما لم نتبرّع بقدرٍ أكبرَ بكثيرٍ مِمّا يظنّه معظمُنا أمرًا واقعيًا فيما هو منتظر من عطاء الموجودات البشرية. قد يبدو هذا أمرًا لا مَعقولًا، ومع ذلك فإنّ البرهان عليه بسيط بشكل ملحوظ. إنه يرجع إلى تلك الحالة الخاصة بقنينة الماء، أي إلى المال الذي ننفقه على أشياء لا تكون حقًّا ضرورية. فإذا كان من السهل جدًا أن نساعد الناس المحتاجين حقًّا من دون أن يكون لهم ذنب في ذلك، ومع ذلك فإننا نتخلف عن القيام بتلك المساعدة؛ أفلا نرتكب بذلك شيئًا ما خاطئًا؟ وعلى الأقل، فإني آمل أن يقنعك هذا الكتاب بأن هناك شيئًا ما مُعوَجًا إلى حد بعيد في رؤانا المقبولة على نطاق واسع فيما يتعلق بمعنى أن نعيش حياة جيّدة.

الهدف الثاني لهذا الكتاب هو إقناعك بأن تختار أن تتبرّع بالمزيد من دخلك لكي تساعد الفقير. وسوف يسعدك أن تعرف أنني أُدرِك تمامًا الحاجة إلى أن أجتنب المعايير المطلوبة لبرهان فلسفي، لكي أسأل عما يُحدِث حقًّا اختلافًا في الطريقة التي نتصرف بها. فأنا سوف أناقش الأسباب -المقنعة نسبيًا في بعض منها، بينما يكون بعضُها أقلّ إقناعًا- التي نقدمها لتبرير عدم التبرع، كما سأناقش العوامل السيكولوجية التي تعترض طريقنا. وسوف أقرّ بحدود الطبيعة البشرية ومع ذلك سوف أقدّم أمثلة على الناس الذين يبدو أنهم وجدوا طريقًا لإزاحة هذه الحدود إلى مسافة أبعد مما يفعله معظم الناس. وسوف أختم هذا الجزء من الكتاب بمعيار معقول وهو أن 95% من الأمريكيين يمكن أن يلتزموا بالتبرُّع بما لا يزيد على 5% من دخلهم.

وينبغي أن أقول صراحةً إني أؤمن بأنّك ينبغي أن تتبرّع بأكثر من 5%، وأنني آمل أنّك في النهاية سوف تسلك هذا الاتجاه. ولكن هذا ليس من السهل أن تسمعه وليس من السهل أن تفعله. إنني أعترف بأن معظم الناس على الأرجح لا يسلكون سبيلهم من خلال مجرّد برهان فلسفي كي يُحدِثوا تغييرات عنيفة في أسلوب معيشتهم، فضلًا عن أنّ المرء لا يمكن أن يُحدِث مثل هذه التغييرات العنيفة بين ليلة وضحاها. إن الغرض النهائي من هذا الكتاب هو تقليل الفقر المُدقِع، وليس أن يجعلك تشعر بالذنب. وبذلك فإنني سأسعى إلى تأييد معيار أثق في أنه سوف يفعل خيرًا كثيرًا. وذلك يعني اقتراح مستوى سوف يجعلك تبدأ، ويضعك على مسار تتحدّى فيه نفسك وتعمل من أجل فعل المزيد.

ولأسباب سوف أستكشفها في هذا الكتاب، يجد كثير مِنّا أنه من الصعب أن نراعي التبرُّع بالمال إلى أناس لم نلتق بهم مطلقًا، ويعيشون في بلدان بعيدة لم نزرها أبدًا. ومن الواضح أن هذا لا يصبح بأية حال أسهل علينا خلال فترة التقلبات الاقتصادية، حينما يكون لدى كثير من الناس قلق مبرر بشأن احتمالات ربحهم الاقتصادي. وفي حين أنني لا أسعى إلى أن أستبعد بأي حال التحديات التي تلازم الأوقات القاسية، فإننا ينبغي أن نتذكّر أنه حتى في أسوأ الأوقات تظلّ حياتنا أفضل بشكل لا حدود له من حياة أولئك الناس الذين يعيشون في فقرٍ مدقع. وأنا آمل أنك سوف تنظر إلى الصورة الأكثر اتساعًا وتفكر في ما يقتضيه العيش بطريقة أخلاقية في عالم يموت فيه سنويًا من غير داعٍ 18 مليون من الناس. ذلك معدّل موت سنوي أعلى من معدل الموت في الحرب العالمية الثانية. وفي السنوات العشرين المنصرمة وحدها، أضاف الفقر مزيدًا من الوفيات يفوق عدد الموتى من جراء كل الحروب الأهلية والدولية وقمع نظم الحكم في مجمل القرن العشرين، قرن هتلر وستالين. فما القدر الذي نودّ أن نقدمه لكي نمنع هذه الأحوال المفزعة؟ ومع ذلك، فكم هو ضئيل قدر ما نفعله لكي نمنع حتى حدوث خسائر بشرية أكبر في يومنا هذا، ونمنع كل البؤس الذي ينطوي ذلك عليه. إنني أُومِن بأنك إذا قرأت هذا الكتاب حتى نهايته، ونظرت بأمانة وعناية إلى موقفنا، مُقدِّرًا كل الحقائق والبراهين الأخلاقية؛ فإنك سوف توافق على أننا يجب أن نفعل شيئًا ما حيال ذلك.

بيتر سينجر

البرهان

1 - إنقاذ طفل

ها أنت تمرّ في طريقك إلى العمل ببركة صغيرة. وفي الأيام الحارة يلعب أحيانًا الأطفال في البركة التي يبلغ عمقها إلى حد الركبة فحسب. أما اليوم فالطقس باردٌ، ولو كان الوقتُ مبكرًا، فإنك بذلك تكون مندهشًا من رؤية طفل يبطبط في البركة. وعندما تقترب أكثر، فإنك ترى أن هذا الطفل صغير السن للغاية، فهو مجرد طفل قد بدأ في تعلُّم المشي، فهو طفل يترنح في أثناء مشيه، غير قادر على أن يبقى مُنتصِبَ القامة أو على أن يمشي ليخرج من البركة. وأنت تتلفّت باحثًا عن أبويه أو جليسته، ولكنك لا تجد أي شخص آخر من حولك. الطفل غير قادر على أن يُبقي رأسه مرفوعًا فوق المياه لأكثر من ثوانٍ قليلة في كل مرة. فإن لم تخض في مياه البركة وتنتشله منها؛ فمن الأرجح أن يغرق. والخوض في هذه المياه الضحلة هو مهمة سهلة وآمنة، ولكنك بذلك سوف تُتلف حذاءك الجديد الذي اشتريْتَه منذ أيام قليلة، وسوف تجعل حُلَّتك مبتلّة وموحلةً. وعندما يحين الوقت الذي تُسلِّم فيه الطفل إلى شخص ما مسؤول عنه، وتغيّر ملابسك، ستكون متأخرًا عن عملك. فما الذي ينبغي أن تفعله؟

إنني أقوم بتدريس مقرر دراسيّ بعنوان «فلسفة الأخلاق العملية». وعندما نبدأ في الكلام عن الفقر العالمي، فإنني أسأل طلبتي عمّا يعتقدون بخصوص ما ينبغي أن يفعلوا في هذا الموقف. وكما هو متوقع، فإنهم يجيبون بالقول بأنه ينبغي إنقاذ الطفل. «فماذا عن الحذاء؟ وعن التأخر عن العمل؟» هكذا أسألهم. إنهم لا يبالون بذلك. إذ كيف يمكن لأي شخص أن يهتم بزوج من الأحذية، أو بالتأخر ساعة أو ساعتين عن العمل، باعتبار ذلك مبررًا وجيهًا لعدم إنقاذ طفل؟

في سنة 2007 حدث بالفعل شيء ما يشبه هذا الموقف الافتراضي في إنجلترا بالقرب من مانشيستر. فقد قفز الطفل جوردن ليون Jordan Lyon -الذي يبلغ من العمر عشر سنوات- داخل بركة مياه بعد أن انزلقت داخلها أختُه غير الشقيقة التي تدعى بيثاني Bethany. لقد كافح لكي يساعدها، ولكنّه فقد وعيه. دبّر الصيادون الذين كانوا يصطادون بالصنار حيلةً لانتشال بيثاني، ولكن في غضون ذلك اختفى جوردن عن الأنظار. أرسل الصيادون نداء استغاثة عبر الجهاز اللاسلكي، وسرعان ما وصل اثنان من ضباط الشرطة الخاصة بخدمة المجتمع؛ ولكنهما رفضا النزول

إلى مياه البركة من أجل العثور على جوردن. وقد تم انتشاله بعد ذلك، ولكن محاولات إنعاشه قد أخفقت. وعند التحقيق القضائي في واقعة موت جوردن، دافع الضابطان عن إحجامهما عن التصرف على أساس أنهما لم يتلقيا تدريبًا على التعامل مع مثل هذه المواقف. وقد ردّت الأم بقولها: «إذا كنتما تتجوّلان عبر الشارع وتريان طفلًا يغرق؛ فينبغي أن تخوضا بطريقة تلقائية في المياه... فلا ينبغي أن تكونا قد تلقيتما تدريبًا لكي تقفزا في المياه لإنقاذ طفل يغرق»[1].

أعتقد أنه يمكن القول بأن معظم الناس سيوافقون على قول الأم. ولكن ضع في اعتبارك أن هناك -وفقًا لـ«صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة» UNICEF- قرابة عشرة ملايين طفل دون سن الخامسة يموتون كل سنة لأسباب مرتبطة بالفقر. وفيما يلي مجرد حالة واحدة، وصفها رجل من غانا لأحد الباحثين من البنك الدولي:

> خذ، على سبيل المثال، موت الطفل الصغير هذا الصباح. لقد مات الطفل بسبب مرض الحَصْبة، وكلنا نعلم أنه كان من الممكن علاجه بالمستشفى. ولكنّ الوالدين لم يكن لديهما أي مال، وبذلك فإنه مات موتًا بطيئًا وأليمًا؛ لا بسبب الحصبة وإنما من جرَّاء الفقر[2].

لتفكر في أن شيئًا شبيهًا بهذا يحدث 27.000 مرة كل يوم. بعض الأطفال يموتون لأنهم ليس لديهم ما يكفي ليأكلوا. وأكثر من ذلك العدد يموتون مثل ذلك الطفل في غانا، من جرَّاء الحصبة، والملاريا والإسهال، وهي أحوال لا وجود لها في الأمم المتقدمة، وإن وُجِدَت فإنها غالبًا لا تكون مميتة. إن الأطفال يكونون عُرضة لهذه الأمراض لأنهم ليس لديهم مياه شرب آمنة أو مرافق صحية؛ ولأنهم عندما يمرضون لا يستطيع آباؤهم أن يكفلوا لهم أي علاج طبي. إن «صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة» UNICEF ومنظمة «أوكسفورد للتخفيف من وطأة المجاعة» OXFAM وكثيرًا من المنظمات الأخرى تعمل على تقليل الفقر، وعلى إمداد الناس بمياه نظيفة وبالرعاية الصحية الأساسية، وهذه الجهود تقلل من الخسائر

(1) BBC News, September 21, 2007, http://news.bbc.Co.uk/2/hi/uk._news/England/Manchester/7006412stm.

(2) Deepa Narayan with Raji Patel, Kai Schafft, Anne Rademacher, and Sarah Koch-Schulte. *Voices of the Poor: Can anyone Hear Us?* Published for the World Bank by Oxford University Press (New York, 20000, p.36.

البشرية. ولو كانت منظمات الإغاثة لديها المزيد من المال، لأمكنها أن تفعل المزيد، وبذلك يتم إنقاذ حياة المزيد من البشر.

ولتفكّر الآن في وضعك الخاص. إنك من خلال التبرُّع بقدر ضئيل نسبيًّا من المال، يمكنك إنقاذ حياة طفل ما. وقد يبلغ هذا التبرُّع قدرًا أكبر من المبلغ المطلوب لشراء زوج من الأحذية، ولكننا جميعًا ننفق مالًا على أشياء لا نحتاج إليها حقًّا، سواء على الشراب أو الوجبات في المطاعم أو شراء الثياب أو ارتياد دور السينما والحفلات الموسيقية أو قضاء العطلات، أو شراء السيّارات الجديدة أو تجديد المنزل. أوليس من المحتمل أنك باختيارك لإنفاق مالك في مثل هذه الأشياء بدلًا من أن تساهم في الإغاثة الطارئة، فإنك بذلك قد تترك طفلًا ليموت، طفلًا كان يمكنك أن تنقذه؟

الفقر اليوم

منذ سنوات قليلة، طلب البنك الدولي من الباحثين أن يستمعوا إلى ما يقوله الفقراء. ولقد استطاعوا توثيق خبرات 60.000 امرأة ورجل في ثلاثة وسبعين بلدًا. وقد قال الناس مرارًا وتكرارًا -بلغات مختلفة وفي بلدان مختلفة- إن الفقر يعني بالنسبة إليهم هذه الأمور:

- أن الطعام يتعذر عليك طيلة السنة أو بعضها، فأنت غالبًا ما تأكل وجبة واحدة فقط في اليوم، ويكون عليك أحيانًا الاختيار بين أن تسد رمق جوع طفلك أو جوعك، وأحيانًا لا تكون قادرًا على أي من الاختيارين.
- لا يمكنك أن تدّخر مالًا. وإذا مرض أحد أفراد العائلة وكنت محتاجًا إلى مال من أجل زيارة الطبيب، أو إذا فسد المحصول من الزراعة ولم يكن لديك شيء لتأكله؛ فإنه يكون عليك أن تقترض من أحد المُرابين في المنطقة التي تسكنها، وسوف يفرض عليك فوائد كثيرة كلما استمرّت نفقات الدَين في الازدياد، وقد لا تستطيع أبدًا التحرر منه.
- لا يمكنك أن تتكفل بإرسال أطفالك للمدرسة، وإذا ما التحقوا بالمدرسة بالفعل، فإنك تضطر إلى إخراجهم منها مجددًا إذا ما كان حصاد الموسم ضعيفًا.
- إنك تعيش في بيت واهِن، مُشيَّد من الطين أو سعف النخيل بحيث

إنك تحتاج إلى إعادة بنائه كل سنتين أو ثلاث، أو بعد جوٍّ عاصف.

- ليس هناك بقربك مصدر لمياه شرب آمنة. وعليك أن تحمل المياه اللازمة لك عبر طريق طويل، وحتى بعد قيامك بذلك يمكن لهذه المياه أن تُمرِضك ما لم تقم بغليها.

لكن الفقر المُدقِع ليس مجرد حالة من الاحتياجات المادية التي لا يتم إشباعها. فهو غالبًا ما يكون مصحوبًا بحالة من العجز المُذِلّ. وحتى في البلدان التي تُعدُّ ديموقراطية ومحكومة بنظام جيد نسبيًّا، نجد أنّ الذين أجابوا عن الاستبيان الذي قام به البنك الدولي قد وصفوا أصنافًا من الأوضاع التي كان عليهم فيها قبول الإذلال من دون تظاهر. فإذا استولى شخصٌ ما على القليل مما لديك، واشتكيت إلى الشرطة؛ فربما لا ينصتون إليك. ولا حتى القانون سيحميك من الاغتصاب أو التحرّش الجنسيّ. يستولي عليك شعور بالخزي والعجز لأنك لا تستطيع أن توفّر الطعامَ لأطفالك. إن فقرَك يُكبّلك، وتفقد الأمل في الخلاص من حياة من العمل الشاق، لا تستطيع في النهاية أن تفعل شيئًا حيالها أكثر من مجرّد البقاء على قيد الحياة[1].

يُعرّف البنك الدولي الفقر المُدقِع بأنه عدم وجود دخل كافٍ للوفاء بالاحتياجات الإنسانية الأكثر أساسية من أجل ما يكفي من الغذاء، والمياه، والمأوى، والملبس، والمرافق، والعناية الصحية، والتعليم. كثير من الناس على أُلفة بالإحصائيات التي تفيد بأن مليونًا من الناس يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم. وذلك كان هو حد الفقر الذي قرره البنك الدولي حتى سنة 2008، حينما توافرت معطيات أفضل عن مقارنات الأسعار العالمية مكّنت البنك من إحصاء أكثر دقة للمبلغ الذي يحتاج إليه الناس لأجل الوفاء باحتياجاتهم الأساسية. وعلى أساس هذا الإحصاء، وضع البنك الدولي حدًّا أدنى لهذا المبلغ بقيمة 1.25 دولار في اليوم الواحد. مجموع عدد الناس الذين يضعهم دخلهم تحت هذا الحد ليس بليونًا وإنما 1.4 بليون شخص. وكون أن هناك مزيدًا من الناس يعيشون في فقرٍ مُدقِع أكثر مما نظن، إنما هو -بطبيعة الحال- أخبار سيئة، ولكن الأخبار ليست كلها سيئة. فبناءً على هذا الأساس نفسه، كان هناك -في سنة 1981- 1.9 بليون من البشر يعيشون في فقرٍ مُدقِع. وهذا الرقم يعني حوالي أربعة من كل عشرة من البشر على كوكب الأرض، بينما الرقم الآن هو أنّ من يعيش في فقرٍ مُدقِع أقل من واحد من بين كل أربعة.

(1) هذه مقتطفات من الأمور التي ذكرها الفقراء، والمذكورة في المرجع السابق، ص. 28.

جنوب آسيا ما زال إقليمًا يحوي أكبر عدد من البشر الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع، بإجمالي 600 مليون شخص، من بينهم 455 مليونًا في الهند. ومع ذلك، فإنَّ النموّ الاقتصادي قلّل من نسبة سكان جنوب آسيا الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع من نسبة 60% إلى 42% في سنة 2005. وهناك 380 مليونًا آخرون من البشر الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع في إقليم جنوب الصحراء الإفريقية، حيث يكون نصف السكان في فقرٍ مُدقِع. وتلك هي الآن النسبة ذاتها التي كانت في سنة 1981. إنَّ تقلّص الفقر بالغ التأثير قد حدث في إقليم شرق آسيا، برغم أنّه لا يزال هناك أكثر من 200 مليون من الصينيين الفقراء فقرًا مُدقِعًا، وهناك عددٌ أقلّ من ذلك في مناطق أخرى من الإقليم. وبقية الفقراء فقرًا مُدقِعًا موزعون حول العالم في أمريكا اللاتينية، وشاطئ البحر الكاريبي، والشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، وشرق أوروبا، وآسيا الوسطى[1].

وربما يكون ردُّ فعلك على رقم «1.25 دولار في اليوم الواحد» هو أن يَرِد على خاطرك أنه من الممكن في كثير من البلدان النامية أن تعيش بنفقات أقلّ كثيرًا من البلدان المتقدمة صناعيًا. وربما تكون أنت نفسك قد استطعت ذلك بالفعل، حاملًا حقيبة الظهر في تجوالك حول العالم، بأن تعيش على أقل ما كنت تعتقد أنه ممكنٌ. وهكذا فإنّك قد تتصوّر أنّ هذا المستوى من الفقر أقلُّ حدة مما يُمكن أن يكون عليه إذا كان عليك أن تعيش على ذلك المبلغ من المال في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في أي بلد متقدّم صناعيًا. لو طرأت على ذهنك مثل هذه الأفكار، فينبغي أن تطردها الآن؛ لأنّ البنك الدولي قد قدّم من قبل ضبطًا للقوة الشرائية.

(1) ذكر تقرير البنك الدولي أن للمعلومات الإحصائية الجديدة تبين أن 1.4 بليون من البشر يعيشون على أقل من 1.25 دولار أمريكي في اليوم الواحد. ولكن النمو الاقتصادي في مواجهة الفقر يظل قويًا،
August 26, 2008, http://go.worldbank.org/T0TEVOV4E0.
وهذا التقييم مبني على أساس معطيات الأسعار منذ سنة 2005، ولا تعكس الزيادة في أسعار الأغذية في سنة 2008، التي من المحتمل أنها قد أدت الى زيادة عدد من يعيشون تحت خط الفقر. لأن البحث الذي قام على أساسه هذا البيان الصحفي (انظر في ذلك: Shaohua Chen and Martin Ravallion) هو أن «العالم النامي أكثر فقرًا مما نظن، ولكنه ليس أقل نجاحًا في مكافحة الفقر»،
Policy Research Working Paper 4073, World Bank.
Development Research Group, August 2008, www-wds. Worldbank.org/ external/ default/ WDSContentserver/IW3P/IB/2008/08/26/000158349 _ 20080826113239/Rendered/ PDF/WPS4703.pdf
ولأجل مزيد من النقاش حول إحصاءات البنك الدولي، انظر:
Sanjay Reddy and Thomas Pogge, «How *Not* to Count the Poor,» www.columbia.edu/-sr793/count.pdf, and Martin Ravallion, «How *Not* to Count the Poor: A Reply to Reddy and Pogge,» www.columbia.edu/-sr793/wbreply.pdf.

والشكل الإحصائي في هذا الصدد يُشير إلى عدد الناس الذين يعيشون على مجمل استهلاك يومي للبضائع والخدمات -سواء كانت مستجلبة أو مُنتجة محليًا- بالقياس إلى مقدار البضائع والخدمات التي يُمكن شراؤها في الولايات المتحدة الأمريكية نظير 1.25 دولار.

في المجتمعات الثرية، يكون الفقر غالبًا أمرًا نسبيًّا. فالناس يشعرون بالفقر لأنّ العديد من الأشياء الجيدة التي يرون الإعلان عنها في التليفزيون تكون فوق قدرة ميزانياتهم، ولكنهم لديهم بالفعل تليفزيون. وفي الولايات المتحدة، نجد أن 97% من هؤلاء الذين صنفهم **ديوان الإحصاء السكاني** Census Bureau باعتبارهم فقراءَ، يملكون تليفزيونات ملوّنة. وثلاثة أرباعهم يملكون سيارات. وثلاثة أرباعهم لديهم أجهزة تكييف. كما أنَّ ثلاثة أرباعهم يملكون أجهزة عرض شرائط فيديو VCR وأجهزة عرض أقراص فيديو مُدمَجة DVD. وكلهم لديهم وسيلة للرعاية الطبية[1]. وأنا لا أقتبس هذه الأرقام الإحصائية لكي أُنكِر أن الفقراء في الولايات المتحدة يواجهون صعوبات حقيقية. ومع ذلك، فبالنسبة إلى معظمهم تكون هذه الصعوبات من رتبة مختلفة عن تلك الصعوبات التي يواجهها الناس الأكثر فقرًا في العالم. إن البليون وربع البليون من الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع يُعَدّون فقراء وفقًا لمعيار مطلق مرتبط بالاحتياجات الإنسانية الأكثر أساسية. فهم من المحتمل أن يكونوا جوعى في جزء على الأقل من كل سنة. وحتى إذا كان لديهم ما يكفي من الطعام ليملؤوا بطونهم، فمن المحتمل أن يعانوا من سوء التغذية لأنّ وجباتهم تفتقر إلى المواد الغذائية. وفي حالة الأطفال يعوق سوء التغذية النمو، ويمكن أن يسبب تلفًا دائمًا في المخ. وقد لا يكون الفقراء قادرين على أن يكفُلوا لأطفالهم الالتحاق بالمدرسة. وحتى الحد الأدنى من خدمات الرعاية الصحية لا تكون عادةً في متناولهم.

هذا النوع من الفقر قاتل. والعمر المتوقع للحياة في الأمم الغنية يبلغ حوالي ثماني وسبعين سنة، بينما هو أقل من الخمسين في الأمم الأكثر فقرًا، وهي تلك الأمم التي يتم تصنيفها رسميًّا باعتبارها «الأقل نموًّا»[2].

(1) Robert Rector and Kirk Anderson, «Understanding Poverty in America,» Heritage Foundation Backgrounder #1713 (2004), www.heritage.org/Research/Welfare/bg1713.cfm. Rector and Anderson draw on data available from the 2003 U.S. Census Bureau report on poverty and on various other government reports.

(2) مكتب الممثل السامي للأمم المتحدة في البلدان الأقل تطورًا، والبلدان المحصورة داخل جزر منعزلة، والدول المتطورة الواقعة في جزر صغيرة، والمجموعة الخاصة بالبيانات المتطورة للبنك الدولي «قياس التطور في البلدان الأقل تطورًا: ملف إحصائي»، (2006)، جدول رقم 2 وجدول رقم 3، صفحات 15-14.

Available at www.un.org/ohrlls/.

ففي البلدان الغنية، يموت أقل من فرد واحد من بين مائة طفل قبل سن الخامسة؛ وفي البلدان الأكثر فقرًا يموت طفل واحد من بين كل خمسة. ووفقًا لـ«صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة» يُوجَد إحصاء عددي يقارب 10 ملايين من الأطفال الصغار يموتون من الحرمان والفقر وأسباب مرتبطة بذلك، ويجب أن نضيف على الأقل ثمانية ملايين آخرين من الأطفال الأكبر سنًا والبالغين[1].

الثراء اليوم

بالمقارنة التقريبيّة للبليون وربع البليون من الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع، هناك حوالي بليون يعيشون في مستوى من الثراء لم يُعرَف أبدًا من قبل إلا في بلاط الملوك والنبلاء. إذ إنّ ملك فرنسا الرابع عشر لويس «ملك الشمس» استطاع أن يتكفل ببناء أروع قصر لم تشهد مثله أوروبا من قبل، ولكنه لم يمكنه أن يجعله باردًا في الصيف بشكل فعّال مثلما يُمكن الآن لمعظم الناس من الطبقة الوسطى في الأمم المتطورة صناعيًا أن تُبقي منازلها باردة. إن البُستانيين العاملين لديه -بكل ما لهم من مهارة- كانوا غير قادرين على إنتاج تنوعٍ من الفواكه والخضراوات الطازجة التي يمكننا أن نشتريها طيلة العام كله. وإذا انتابه ألم في الأسنان أو انتابه مرض، فإن أفضل ما يمكن أن يفعل أطباء أسنانه والأطباء المعالجون له سوف يجعلنا نرتجف منه.

ولكننا لسنا في حالة أفضل فحسب من حال الملك الفرنسي الذي عاش منذ خمسة قرون. فنحن أيضًا في حال أفضل من حال آباء أجدادنا. وابتداءً يمكن القول إننا نتوقع أن نعيش أطول منهم بحوالي ثلاثين سنة. ومنذ قرن مضى، مات طفلٌ من بين كل عشرة في مرحلة الرضاعة. الآن -في معظم الأمم الغنية- هذا الرقم الإحصائي يعدّ أقلّ من واحد من بين كل مائتين[2]. وهناك مؤشر آخر دال على كوننا أغنياء اليوم، وهو الرقم

(1) United Nations Development Program, *Human Development Report 2000* (Oxford University Press, New York, 2000) p. 30; *Human Development Report 2001*(Oxford University Press, ,New York, 2001)pp. 9-12; and World Bank, *Word Development Report 2000/2001*, overview, p. 3, www.worldbank.org/poverty/wdrpoverty/report/overview.pdf, for the other figures. The *Human Development Report* are available at http;//hdr.undp.org.

(2) James Riley, *Rising Life Expectancy: A Global History* (New York: Cambridge University Press,2001); Jeremy Laurence, «Thirty Years: Difference in Life Expectancy Between the World's Rich and Poor Peoples,' *The Independent (UK)*, September 7, 2007.

المتواضع للساعات التي يجب أن نمضيها في العمل كي تَفي باحتياجاتنا الغذائية الأساسية. فالأمريكيون ينفقون اليوم ما يعادل 6% فقط من دخلهم في شراء الطعام. إذا عملوا لمدة أربعين ساعة في الأسبوع، ذلك أن هذا لا يتطلب منهم سوى ساعتين فحسب من العمل، لكي يكفلوا لأنفسهم طعامهم طيلة الأسبوع. وهذا يؤدي إلى توفير الكثير جدًّا لأجل إنفاقه على البضائع الاستهلاكية، والتسلية، وقضاء العطلات.

لدينا بعد ذلك الناس بالغو الثراء الذين ينفقون أموالهم في شراء المنازل الفخمة، والقوارب الضخمة والمترفة على نحوٍ مثيرٍ للسخرية، والطائرات الخاصة. وقبل أن يؤدي انهيار السوق سنة 2008 إلى تقليص عدد هؤلاء، كان هناك أكثر من ألف ومائة بليونير في العالم بصافي أرباح يبلغ مجموعها 4.4 تريليون دولار[1]. من أجل إرضاء مثل هؤلاء الناس، فإن المكتب الفني لشركة لوفتهانزا كشف عن خطط لتهيئة خاصة لطائرة الأحلام الضخمة من طراز البوينج الجديدة 787. فعلى مستوى درجة الخدمة الاقتصادية، فإن هذه الطائرة تَسع 330 مسافرًا. أمّا النسخة الخاصة المعدَّلة من هذه الطائرة فتحمل على متنها 35 مسافرًا، بتكلفة 150 مليون دولار. وبصرف النظر عن التكلفة، فليس من المتاح لك امتلاك طائرة ضخمة حقًّا تحمل عددًا صغيرًا من الناس لكي تزيد إلى أقصى حد من إسهامك الشخصي في تلوث الأرض. ومن الواضح أنّ هناك من قبل العديد من أصحاب البلايين الذين يسافرون حول العالم على متن طائرات ركاب خاصة ذات حجم اقتصادي التكلفة، بدءًا من طراز البوينج 747 نزولًا إلى ما هو أصغر. لقد صرح لاري بادج Larry Padge وسيرجي برين Sergey Brin -المشاركان في تأسيس «**جوجل**»- بأنهما قد اشتريا طائرة بوينج 767 وأنفقا الملايين في تهيئتها للاستخدام الخاص[2]. ولكن فيما يتعلق بتبديد المال والثروات، فمن الصعب منافسة آنوشه أنصاري Anousheh Ansari، وهي مقاولة إيرانية-أمريكية في هندسة الاتصالات، قيل إنها أنفقت 20 مليون دولار نظير قضاء أحد عشر يومًا في الفضاء. وقد ذكر الممثل الكوميدي لويس بلاك Lewis Black في برنامج جون ستيوارت John Stewart «**العرض اليومي**» *The Daily Show* أن آنوشه أنصاري فعلت ذلك لأن هذا كان هو «الطريقة الوحيدة التي حققت بها هدف حياتها في التحليق فوق كل شخص يتضور جوعًا على ظهر

(1) «Billionaires 2008,» *Forbes*, March 24, 2008, www.forbes.com/forbes/2008/0324/080.html.

(2) Joe Sharkey, «For the Super-Rich, It's Time to Upgrade the Old Jumbo,» *The New York Times*, October 14, 2007, the passage quoted is on p. 40.

الأرض، وتصيح قائلة: انتبهوا إليّ، انظروا فيم أنفق أموالي».

بينما كنت أشتغل على هذا الكتاب، كان هناك ملحق إعلاني خاص يملأ الطبعة الخاصة من صحيفة *The New York Times*: وهي صحيفة من ثماني وستين صفحة من الورق المصقول المليء بالإعلان عن ساعات رولكس، وباتريك فيليب، وبرايتلنج، وكثير من العلامات التجارية الأخرى الفاخرة. لم تحمل الإعلانات بيانات بالأسعار، ولكنّ هناك مقالًا إعلانيًا ترويجيًا عن إحياء الساعة التي تعمل بطريقة آلية، يعطي مؤشرًا عن الحد الأدنى في المجموعة المُعلَن عنها. فبعد الاعتراف بأن الساعات رخيصة الثمن التي تعمل بحجر الكوارتز تكون دقيقة وعمليّة إلى أبعد حدّ، أفصحَ المقالُ عن القول بأنّه في الساعات الآلية «يُوجَد هناك شيء ما تتكفل به حركة ميكانيكية». حسنًا، ولكن كم سيكلف ارتداء هذا الشيء الذي تتكفل به الحركة الميكانيكية حول معصمك؟ ربما تظن أن ارتداء الساعات الآلية هو أمر مُكلّف، ولكن هناك العديد من الاختيارات بين صنوف هذه الساعات التي تتراوح أسعارها بين 500 و 5000 دولار. ومن المسلّم به أن «هذا المؤشر للسعر الابتدائي للطرازات المعروضة يعد بسيطًا إلى حد ما: فهناك عرض للحركة الأساسية وللزمن الأساسي، وتزيين بسيط، وهكذا». وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن معظم الساعات المُعلَن عنها يبدأ سعرها من 5000 دولار فصاعدًا، أو يزيد سعرها مائة ضعف على المبلغ الذي يحتاج إليه أي شخص لكي يشتري ساعة موثوقًا بها ودقيقة تعمل بحجر الكوارتز. وكون أنّ هناك سوقًا لمثل هذه المنتجات -التي تستحق الإعلان عنها بمثل هذه الكُلفَة لجمهور صحيفة *The New York Times*- فهذا أمرٌ آخر دال على الثراء في مجتمعنا[1].

إذا كنتَ الآن تهزّ رأسك بسبب إسراف الناس بالغي الثراء، فلا تهزّها بشدة بالغة. فكر مجددًا في الأساليب التي بها ينفق الأمريكيون متوسطو الدخل أموالَهم. ففي معظم الأماكن في الولايات المتحدة يمكنك الحصول من مياه الصنبور يوميًا على أكواب المياه الثمانية الموصى صحيًا بتناولها بتكلفة أقل من بنس واحد، في حين أن زجاجة ماء واحدة ستكلفك 1.50 دولار أو أكثر[2]. وعلى الرغم من الاهتمامات البيئية التي يثيرها إهدار الطاقة التي تذهب إلى إنتاجها ونقلها، فإن الأمريكيين لا يزالون يشترون المياة المعبأة في زجاجات يصل مقدارها إلى ما يزيد على 31 بليون لتر في

(1) «راقب وقتك»، ملحق إعلاني خاص لصحيفة *The New York Times*، عدد 14 أكتوبر من سنة 2007. والفقرة مقتبسة في صفحة 40.

(2) Bill Marsh, «A Battle Between the Bottle and the Faucet,» *The New York Times*, July 15, 2007.

سنة 2006 [1]. وفكر أيضًا في الطريقة التي يكفُل بها الكثير منا حصوله على الكافيين: فيمكنك أن تُعِدّ القهوة بالمنزل نظير بنسات قليلة بدلًا من أن تدفع ثلاثة دولارات أو أكثر نظير تناول قهوة اللاتيه خارج منزلك. أو اسأل نفسك: هل استجبت يومًا من دون قصد لحث النادل لك على طلب شراب ثان من الصودا أو كأس ثان من النبيذ بينما لم تنته بعد من الكأس الذي تشربه؟ لقد اكتشف الدكتور تيموثي جونز Timothy Jones -وهو عالم آثار أشرَفَ على دراسة ممولة من حكومة الولايات المتحدة عن إهدار الطعام- أن 14% من القمامة المنزلية هي طعام صالح تمامًا كان لا يزال في عَبوتِه الأصلية وليس منتهي الصلاحية. وأكثر من نصف هذا الطعام كان جافًّا مُعلّبًا أو سِلعًا غذائية معلّبة تبقى صالحة لفترة طويلة. ووفقًا لجونز، فإن 100 بليون دولار من الطعام يتم تبديدها في الولايات المتحدة كل سنة[2]. كما أنّ مُصمِّمة الأزياء ديبورا لينكويست Deborah Lindquist تزعم أنّ المرأة العادية تمتلك ما تزيد قيمته على 600 دولار من الملابس التي لم ترتديها في السنة الأخيرة[3]. وأيًّا كان الرقم الفعلي، فمن الإنصاف القول بأن جميعنا تقريبًا -رجالًا ونساءً على حد سواء- نشترى أشياءً لسنا في حاجة إليها، بعضها لن نستخدمها أبدًا.

معظمنا على يقين مطلق بأننا لن نتردد في إنقاذ طفل يغرق، وبأننا سنفعل ذلك بتكلفة كبيرة نتحمّلها. ولكن رغم أن آلافًا من الأطفال يموتون كل يوم، فإننا ننفق المال على أشياء نفترض وجودها في حياتنا، وإن لم تكن موجودة فإننا بالكاد نلاحظ ذلك. فهل هذا خطأ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإلى أي حد يمتد التزامنا الأخلاقي تجاه الفقراء؟

(1) Pacific Institute, «Bottled Water and Energy: A fact Sheet,» _www.pacinst.org/topics/water_and_sustainability/bottled_water/bottled_water_and_energy.html.

(2) Lance Gay, «Food Waste Costing Economy $ 100 Billion, Study Finds, «Scripps Howard News Service, August 10, 2005, www.knoxstudio.com/shns/story.cfm/pk=GARBAGE-08-10-05.

(3) Deborah Lindquist, «How to Look Good Naked,» Lifetime Network, Season 2, Episode 2, July 29, 2009. As related by Courtney Moran.

2 - هل من الخطأ ألّا نقدّم المساعدة؟

بوب يقترب من الإحالة إلى سن التقاعد عن العمل. وهو قد استثمر معظم مدّخراته في سيارة قديمة نادرة وقيّمة للغاية -من طراز بوجاتي Bugatti- لم يتمكن من التأمين عليها. السيارة البوجاتي محل افتخاره وبهجته. لم يكن بوب يستمتع ويعتني بسيارته فحسب، بل إنّه أيضًا يعرف أن قيمتها السوقية المتزايدة تعني أنه سيكون قادرًا على بيعها والعيش بشكل مريح بعد التقاعد. وفي أحد الأيّام عندما كان في جولة بسيارته، أوقف سيارته البوجاتي بالقرب من نهاية التحويلة الفرعية للسكة الحديدية، لكي يتجوّل مشيًا على مسار القضبان. وإذ يفعل ذلك، فإنّه يرى قطارًا منفلت الزمام، بلا ركّاب، وقد انزلق مندفعًا فوق مسار القضبان. وعندما يرنو بوب ببصره نحو هذا المسار يرى هيئة صبي صغير يبدو أنه منهمك في اللعب فوق القضبان. لا يستطيع بوب أن يُوقِف القطار، والطفل بعيد للغاية بحيث لا يسمع صياحه التحذيري، ولكنه يستطيع أن يشد ذراع التحويلة التي ستحوّل انزلاق القطار إلى المسار الجانبي الذي تقف عنده سيارته البوجاتي. إذا فعل ذلك، فلا أحد سوف يُقتَل، ولكن القطار سوف يصطدم بالحاجز المتهالك عند نهاية التحويلة الفرعية ويحطم سيارته البوجاتي. إذا فكر بوب في بهجته بامتلاك السيارة، وفي القيمة المالية للسيارة باعتبارها سندًا له؛ فسوف يقرر ألّا يشدّ ذراع التحويلة.

السيارة أم الطفل؟

لقد طرح الفيلسوف بيتر آنجر Peter Unger هذه الصورة المغايرة لقصة الطفل الذي يغرق؛ لكي يحفّزنا على أن نمدّ تفكيرنا إلى النظر في مقدار ما ينبغي أن نضحّي به من أجل إنقاذ حياة طفل. تضيف قصة آنجر عاملًا يكون حاسمًا غالبًا بالنسبة إلى تفكيرنا عن فقر العالم الواقعي: أي عن عدم التيقن من محصلة تضحيتنا. بوب لا يستطيع أن يكون متيقنًا من أن الطفل سوف يموت إذا لم يفعل شيئًا حياله، وأنقذ بذلك سيارته. فربما أن الطفل في اللحظة الأخيرة سوف يسمع ضجة القطار ويقفز إلى بر الأمان. وعلى النحو ذاته، فإن معظمنا قد يخامره الشك في أنّ المال الذي نمنحه لمؤسسة خيرية يساعد بالفعل الفقراء فيما هو مقصود من هذه المساعدة.

من خلال تجربتي الخاصة، فإنّ معظم الناس سوف يجيبون عن السؤال بقولهم بأن بوب تصرف بطريقة سيئة حينما لم يشد ذراع التحويلة كي لا تتحطم بذلك ملكيته الأثيرة عنده والثمينة بالنسبة إليه؛ ومن ثم لم يستطع أن يضحّي بأمله في تقاعد عن العمل مأمون ماليًا. فهؤلاء الناس سيقولون إننا لا يمكن أن نخاطر جديًا بحياة طفل من أجل إنقاذ سيارة، ولا أهمية هنا لندرة السيارة أو قيمتها. ويلزم عن ذلك القول إننا ينبغي أن نؤمن بأننا عندما نقوم بتوفير المال فحسب من أجل سن التقاعد، فإننا بذلك نتصرف بطريقة سيئة مثلما فعل بوب. لأننا بتوفير المال من أجل تأمين التقاعد، فإننا نرفض في واقع الأمر أن نستخدم المال من أجل المساعدة في إنقاذ حياة الناس. وهذا لزوم منطقي يصعب علينا مواجهته. فكيف يكون من الخطأ تأمين تقاعد مريح؟ هناك -على أقل تقدير- أمر محيّر هنا؟

لقد ابتدع آنجر مثالًا آخر يقيس مستوى التضحية التي نعتقد أن الناس ينبغي أن يقدّموها من أجل تخفيف المعاناة في الحالات التي لا تكون فيها حياة شخص ما على المحك:

إنك تقود سيارتك السيدان العتيقة المصنوعة قبل سنة 1930 vintage car عبر طريق ريفي ضيق بينما يوقفك مترجّلٌ في الطريق أُصيبت رجله بجرح خطير. إنه يطلب منك أن تأخذه إلى أقرب مستشفى. وإذا رفضتَ، فسيكون هناك احتمال كبير في أن يفقد رجله. وفي مقابل ذلك، فإنك إذا وافقتَ على أن تأخذه إلى المستشفى؛ فإنه من المحتمل أن ينزف دماءً على مقاعد السيارة التي أعدتَ تجديدها حديثًا -بتكلفة كبيرة- بجلد أبيض ناعم.

مرة أخرى، سنجد أنّ الناس يقولون في هذه الحالة إنّك ينبغي أن تنقل ذلك المترجل إلى المستشفى. وهذا القول يوحي ضمنًا بأنّنا عندما نكون مدفوعين إلى التفكير بطريقة عملية، فيما يتعلق بأفراد واقعيين، فإن معظمنا سيرى أنه من الواجب أن ننصت إلى المعاناة الجادة للآخرين الأبرياء، حتى إن كان ذلك نظير بعض التكلفة، أو حتى تكلفة عالية نتحملها.

البرهان الأساسي

الأمثلة السابقة تكشف عن إيماننا الحدسي بأننا ينبغي أن نساعد الآخرين الذين يكونون في احتياج، على الأقل عندما يمكننا أن نراهم،

وعندما نكون الشخص الوحيد الذي يكون في وضع يتيح له إنقاذهم. ولكن حدوسنا الأخلاقية لا يمكن الاعتماد عليها دائمًا، كما يتبين لنا ذلك من خلال التباينات في الحدوس التي يمكن أن تكون مقبولة أو محل اعتراض فيما بين الناس في الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة. إنّ إقامة الدعوى بمساعدة أولئك الذين يكونون في فقرٍ مُدقِع ستكون أقوى إذا لم تستند فقط إلى حدوسنا. هاك هو البرهان المنطقي الذي يبدأ من مقدمات مقبولة وينتهي إلى النتائج ذاتها:

المقدمة الأولى: المعاناة والموت بسبب الافتقار إلى الغذاء والمأوى والرعاية الطبية هي أمور سيئة.

المقدمة الثانية: إذا كان في مقدورك أن تمنع شيئًا ما سيئًا من الحدوث، من دون أن تضحي بأي شيء يكون مهمًّا تقريبًا؛ فمن الخطأ ألّا تفعل ذلك.

المقدمة الثالثة: بواسطة التبرُّع إلى وكالات الغوث، يمكنك أن تمنع المعاناة والموت بسبب الافتقار إلى الغذاء والمأوى والرعاية الطبية، من دون التضحية بأي شيء يكون مهمًّا تقريبًا.

النتيجة: لذلك، فإنك إذا لم تتبرّع إلى وكالات الغوث؛ فإنك بذلك تفعل شيئًا ما خاطئًا.

إنّ قصة الطفل الذي يغرق هي تطبيق لهذا البرهان على ضرورة العون؛ حيث إنّ تلَف حذائِكَ وكونَك سوف تتأخّر عن موعد العمل، ليسا من الأمور المهمة تقريبًا، مثلما تكون حياة طفل ما مهمة. وبالمثل، فإن تجديد سيارة ما ليس بالفعل بمسألة كبيرة على نحو ما يكون فقدان رِجْل شخص ما. وحتى في حالة بوب والسيارة البوجاتي، فإنّه سيكون من قبيل الشَّطط القول بأن فقدان البوجاتي يقترب من أن يكون ندًّا مناظرًا لأهمية موت شخص بريء.

اسأل نفسك إذا كنت تستطيع أن تُنكر مقدمات البرهان. كيف يمكن للمعاناة والموت بسبب الافتقار إلى الغذاء والمأوى والرعاية الصحية، ألّا تكون بالفعل شيئًا سيّئًا؟ فكّر في ذلك الصبيّ الصغير في غانا الذي يموت بسبب مرض الحصبة. كيف سيكون شعورك إذا كنتَ أمَّه أو أباه، وتشاهد بلا حيلة ابنَكَ يُعاني ويتزايد ضعف جسدِه؟ إنّك تعرف أنّ الأطفال يموتون غالبًا بسبب هذه الحالة. وأنت تعرف أيضًا أن هذه الحالة قابلة للعلاج، فقط إذا أمكنك أن تقوم بنقل ابنِكَ إلى المستشفى. وفي تلك الظروف سوف

تتخلّى عن أي شيء تقريبًا لكي تجد طريقة ما لتأمين بقاء طفلِكَ على قيد الحياة.

عندما تضعُ نفسَكَ موضعَ الآخرين -مثل: أبوي الصبي أو الطفل نفسه- فإنّ هذا هو كل يدور حوله التفكير بطريقة أخلاقية. هذا هو ما تقدمه بإيجاز «القاعدة الذهبية» التي تقول لنا: «افعل للآخرين ما تودُّ أن يفعلوه لكَ». وعلى الرّغم من أن «القاعدة الذهبية» معروفة جيّدًا بالنسبة إلى الغربيين من خلال كلمات المسيح كما ذكرها متّى Mathew ولوقا Luke، فمن اللافت للنظر أنها قاعدة عامة، تُوجَد في البوذية والكونفشيوسية والهندوسية والإسلام واليانية[1] واليهودية، بينما هي تُوجَد في سفر اللاويين Leviticus[2]، وفيما بعد لدى الحاخام هيليل Hillel[3]. القاعدة الذهبية تقتضي منا أن ننظر إلى رغبات الآخرين كما لو كانت رغباتنا الخاصة. فلو كانت رغبات والدَي الطفلِ الذي يغرق هي رغباتنا الخاصّة؛ لما كان لدينا أيّ شكٍّ في أنّ معاناتهما وموت طفليهما تُعدّان شيئًا ما سيّئًا مثل أي شيء سيّئ آخر. وهكذا فإننا عندما نفكر بطريقة أخلاقية، فإن هذه الرغبات يجب أن نعتبرها كما لو كانت رغباتنا الخاصة، ولا يُمكننا أن ننكر أن المعاناة والموت هما شيئان سيّئان.

المقدمة الثانية أيضًا من الصعب جدًّا رفضها؛ لأنها تصرف عنا شيئًا من التذبذب عندما تتصل بالمواقف التي لكي نمنع فيها شيئًا ما سيئًا، كان ينبغي لنا أن نخاطر بشيء له أهمية **تقريبًا** مثل الشيء السيئ نفسه الذي نمنعه. تأمل-على سبيل المثال- الموقف الذي يمكنك فيه أن تمنع فقط موت الأطفال الآخرين من خلال إهمالك لأطفالك أنت. هذا المعيار لا يلزمك بأن تمنع موتَ الأطفال الآخرين.

إن عبارة: «مهم تقريبًا»، هي عبارة غامضة. وهذا مقصود؛ لأنني على ثقة بأنك يمكن أن تتصرف من دون العديد من الأشياء التي من الواضح ولا جدال فيه أنها ليست لها القيمة نفسها التي تكون لحياة طفل ما. إنني لا أعرف ما يمكن **أنت** أن تفكر فيه باعتباره شيئًا مهمًّا، أو مهمًّا تقريبًا بقدر

---

(1) اليانية Jainism ديانة هندية قديمة، نشأت في القرن السادس قبل الميلاد، وهي تقوم على الزهد والإيمان بالخلود وتناسخ الأرواح؛ ولكنها لا تؤمن بوجود إلهٍ أو موجودٍ سامٍ. [المترجم]

(2) سفر اللاويين أو الأحبار هو السفر الثالث من العهد القديم، باعتباره جزءًا من الكتاب المقدس، وهو يشرح طقوس اليهود وأعيادهم وقرابينهم والمعاملات فيما بينهم. [المترجم]

(3) For further discussion see Peter Singer, *The Expanding Circle*, (Oxford: Clarendon Press,1981), pp. 136,183. For further examples, see www.unification.net/ws/theme015.htm.

أهمية إنقاذ حياة شخص ما. وعندما أترك هذه المسألة لك لكي تقرر ما هي تلك الأشياء، فإنني أتجنب الحاجة إلى أن أكتشفها. سوف أثق بأنك ستكون أمينًا مع نفسك فيما يتعلق بها.

يمكننا أن نسوق الحالات المشابهة والقصص إلى أبعد من ذلك بكثير. إن إنقاذ طفل يغرق أمامك، وشد ذراع التحويلة على مسار قضبان قطار من أجل إنقاذ حياة طفل يمكنك أن تراه على بُعد، في الوقت الذي تكون فيه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ الطفل. كلاهما حالتان مختلفتان عن تقديم العون إلى الناس الذين يعيشون على مسافة بعيدة للغاية. إنّ البرهان الذي قدمته الآن يُتمم حالة الطفل الذي يغرق؛ لأنه بدلًا من جذب أوتار القلب بالتركيز على طفل واحد يكون في حالة احتياج، فإنه يستميل عقلك ويسعى إلى موافقتك على مبدأ أخلاقي مجرّد وإن كان مقنعًا. وهذا يعني أنك لكي ترفض هذا البرهان، فإنك تحتاج إلى أن تجد خللًا في البرهنة. وربما ترتئي الآن أن البرهان الأساسي -الذي يقضي بأننا ينبغي أن نتبرّع لوكالات الغوث عندما يمكن لفعلنا هذا أن يمنع المعاناة والموت من دون التخلي عن أي شيء يكون مهمًّا تقريبًا، ليس هو كل ما يكون قابلًا للجدال. ومع ذلك، فإننا إذا أخذنا هذا البرهان على محمل الجد، فإن حياتنا سوف تتغير بطريقة بالغة التأثير. لأنه بينما أن كلفة إنقاذ حياة طفل واحد من خلال التبرُّع إلى إحدى مؤسسات الغوث قد لا تكون كلفة كبيرة؛ فإنك بعد أن تكون قد تبرعتَ بذلك المبلغ المعين، فإنه سيبقى هناك مزيد من الأطفال في حاجة إلى الإنقاذ، كل واحد منهم يمكن إنقاذه بكلفة ضئيلة نسبيًّا. لنفترض أنك قد أرسلتَ فقط 200 دولار إلى وكالة يمكنها -نظير هذا المبلغ- أن تُنقذَ حياةَ طفلٍ في بلد نامٍ، وإلّا كان سيموت. لقد فعلتَ بذلكَ شيئًا جيّدًا تمامًا، وكل ما كلّفك فعلك هذا هو ثمن بعض الملابس الجديدة التي لا تحتاج إليها بأية حال. تهانينا لك! ولكن لا تحتفل بفعلك الجيّد هذا بفتح زجاجة شمبانيا أو بالذهاب إلى السينما. فتكلفة تلك الزجاجة أو الفيلم، بالإضافة إلى ما يمكنك أن تدّخره بتقليل بعض أشكال التبذير الأخرى، سوف يُنقذ حياةَ طفلٍ آخر. وبعد أن تستغني عن تلك الأشياء، وتعطي 200 دولار أخرى؛ فهل يعني ذلك أن كل شيء آخر تُنفقه يكون مهمًّا -أو مهمًّا تقريبًا- مثلما تكون حياة طفل مهمة؟ ليس على الأرجح! وهكذا فإنك يجب أن تواظب على تقليل النفقات غير الضروريّة، وأن تتبرّع بما تدَخره، إلى أن يصل تخفيضك للنفقات إلى نقطة التي إذا أعطيتَ فيها مزيدًا من المال، فإنّك ستضحي عندئذ بشيء ما يكون تقريبًا مهمًّا مثلما

تكون حياة طفل ما مهمّة، وذلك من قبيل: تبرّعك بالكثير جدًّا من المال بحيث إنك لم تعد قادرًا على أن تكفل تعليمًا كافيًا لأطفالك.

إننا نميل إلى افتراض أنه إذا كان الناس لا يُؤذون آخرين غيرهم، ويحافظون على وعدهم، ولا يكذبون أو يحتالون، ويدعمون أطفالهم ووالديهم كبار السن، وربما يسهمون قليلًا إلى الأعضاء الأكثر احتياجًا في مجتمعهم المحلي؛ فإنهم بذلك يكونون قد تصرّفوا بشكل جيّد. وإذا كان لدينا مال متبقٍّ بعد الوفاء باحتياجاتنا وباحتياجات من يعتمدون علينا؛ فإننا يمكن أن ننفقه كما يروق لنا. إن وهب المال للغرباء عنّا، خاصةً أولئك الذين يكونون خارج حدود مجتمع المرء، قد يكون أمرًا جيّدًا؛ ولكننا لا نفكر فيه باعتباره أمرًا **ينبغي** لنا فعله. ولكن إذا كان البرهان الأساسي الذي قدمناه سابقًا صحيحًا؛ فإن ما يعتبره الكثير منا سلوكًا مقبولًا هو أمر ينبغي إذًا النظر إليه في ضوء جديد مُنذِر بمزيد من السوء. فعندما ننفق الفائض لدينا على الحفلات الموسيقية أو الأحذية الأنيقة، وعلى تناول العشاء الممتاز والنبيذ الجيد، أو على قضاء العطلات في بلاد بعيدة؛ فإنّنا بذلك نفعل شيئًا خاطئًا.

وهكذا فإنّنا نجد فجأة أن المقدمات الثلاثة التي أرسيناها يصعب استساغتها. وأنتَ الآن تتشكّك فيما إذا كان البرهان الأخلاقيّ الذي ينطوي بشكلٍ أساسيّ على هذه اللزوميات المنطقية، يمكن أن يكونَ برهانًا صحيحًا. ولهذا فإنّ الأمر يستحقّ هنا أن نرجع خطوةً إلى الوراء لننظر في الكيفية التي يكون بها هذا البرهان مُلائمًا لبعضٍ مِن تقاليدنا الأخلاقيّة التي تحظى باحترامٍ بالغ.

الرؤى التراثية حول مساعدة الفقراء

مساعدة الفقراء في التراث المسيحيّ شرطٌ لازم للخلاص. لقد أخبر يَسوع الرجلَ الغنيّ قائلًا: «إذا أردتَ أن تكون مكتملَ الإيمان؛ فاذهب وبِعْ ممتلكاتِكَ وأعطِ الفقراء». ومن المؤكّد أنّ رسالته لم تضِع، وقد واصل القول بأنّه أيسر أن يمر جملٌ من ثقب إبرة من أن يدخل غني في مملكة الرب[1]. وقد أثنى على السامري الصالح[2] the Good Samaritan الذي

(1) Luke 18: 22-25; Mathew 19: 16-24.

(2) كلمة السامري نسبة إلى جماعة السامريين من قوم إسرائيل، وقد أصبحت عبارة «السامري الصالح» تُطلق أيضًا على سبيل التعميم، لتشير إلى من يمد يده بالمساعدة للغير. وهو بخلاف السامري الطالح الذي أقنع قوم

خرج عن طريقه ليساعد شخصًا غريبًا[1]. وقد حثّ أولئك الذين يقيمون الولائم على أن يدعوا إليها الفقراء والعجزة والكُسحان والعُميان[2]. وعندما تحدّث عن حساب الآخرة، قال إنّ الرّبّ سوف يُخلِّص أولئك الذين أطعموا الجوعى، وسقوا العطشى، وكسوا العرايا. فالكيفية التي بها أتصرف إزاء «هؤلاء الأضعف من بين إخواني» هي ما ستقرر -كما يقول يسوع- إن كنّا سنرث مملكة الرب أو سنذهب إلى النار الأبدية[3]. وهو يؤكّد بشدة على الإحسان إلى الفقراء أكثر من أي شيء آخر.

ومن ثَمَّ فلا عجب في أنّ المسيحيين الأوائل وفي العصر الوسيط قد أخذوا هذه التعاليم بشكل جاد تمامًا. لقد ارتأى القديس بولس -في رسالته الثانية إلى الكورنثيين- أنّ أولئك الذين يكون لديهم فائض من المال ينبغي أن يتشاركوا مع المحتاجين: «الفائض لديك في الوقت الحالي ينبغي أن يمدهم باحتياجاتهم، بحيث إن الفائض لديهم يمكن أيضًا أن يمدّك باحتياجاتك، حتى يمكن أن تكون هناك مساواة»[4]. إن أعضاء الجماعة المسيحية المبكرة في أورشليم -وفقًا للتوصيف المقدَّم في **أعمال الآباء الرسوليين** *the Acts of the Apostles*- قد باعوا كل ممتلكاتهم ووزعوها وفقًا لاحتياج الناس[5]. إن الآباء الفرنسيسكيين -أتباع النظام الذي أسسه فرانسيس الأسيسي[6] Francis of Assisi- قد نذروا أنفسهم للفقر ونبذوا كل ملكية خاصة. أما توما الأكويني Thomas Aquinas -الفيلسوف المدرسي العظيم في العصر الوسيط الذي أصبحت آراؤه بمثابة الفلسفة شبه الرسمية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية- فقد كتب قائلًا بأنّ مهما يكن لدينا من «وفرة»، أي كل ما يفوق ويتعدّى ما سوف يُشبِع حاجاتنا وحاجات عائلتنا في الوقت الراهن وفي المستقبل المنظور هو «دَيـنٌ علينا -بمقتضى الحق الطبيعي- للفقراء بتوفير سُبُل إعاشتهم». وتدعيمًا لهذه الرؤية، فقد استشهد إمبروز[7]

موسى بعبادة العجل حينما خرج موسى مختليًا استجابة لأمر ربه، وتنزلت عليه التوراة، وهي القصة التي ورد ذكرها في القرآن في سورة «طه». [المترجم]

(1) Luke 10: 33.

(2) Luke: 14: 13.

(3) Mathew 25: 31-46.

(4) Second Letter to Corinthians, 8: 14.

(5) Act 2-43; see also 4: 32-37.

(6) راهب كاثوليكي روماني، من المرجّح أنه وُلِد سنة 1182، وتوفي سنة 1226. وقد أسس النظام الفرانسيسكاني الذي يُنسب إلى اسمه سنة 1209، الذي يقوم على تلقين اتباعه أصول الحياة البسيطة التي تقوم على الزهد والتكريس الديني وحب الطبيعة. وقد تم رفعه إلى مرتبة القديس بعد مماته سنة 1228. [المترجم]

(7) هو القديس إمبروز المرجّح ميلاده سنة 340، والمتوفى سنة 397. وهو كاتب ومؤلِّف موسيقي وأسقف ميلانو. وقد فرض التقاليد الأرثوذكسية على الكنيسة المسيحية المبكرة. [المترجم]

Ambrose الذي يُعدُّ واحدًا من «علماء اللاهوت العظام» «Great Doctors» أو أساتذة الكنيسة. وقد استشهد أيضًا بمرسوم جراتيان[1] Decretum Gratiani، وهي مجموعة من القواعد القانونية في القرن الثاني عشر التي تنطوي على القول بالغ التأثير بأن «الخبز الذي لا تعطيه يخص الجائع، واللباس الذي تمنعه يخص الشخص العاري، والمال الذي تدفنه في الأرض هو عتق للمفلس وتحرُّز له».

وينبغي أن تلاحظ هنا كلمة «مَدين لـ» و«يخص». لأنه بالنسبة إلى هؤلاء الآباء المسيحيين، لا يعد التشارك مع فائض ثروتنا مع الفقراء مجرد مسألة إحسان، وإنما هي مسألة تخصّ واجبنا وحقوق هؤلاء الفقراء. بل إنّ الأكويني ذهب بعيدًا إلى حد القول: «ليس من قبيل السرقة -بالمعنى الدقيق- أن يأخذ الفقير سرًّا ملكية شخص آخر ويستخدمها في حالة الاحتياج الشديد: لأنّ ما يأخذه من أجل دعم استمرار حياته يصبح ملكية خاصة به بمقتضى الحاجة»[2]. وليست هذه الرؤية مجرد رؤية كاثوليكية رومانية. فجون لوك John Lock -الفيلسوف الأثير لدى الآباء المؤسسين الأمريكيين- كتب يقول: «الإحسان يمنح كل شخص قليلًا من الوفرة الكثيرة جدًّا لدى شخص آخر، كما أنه سيجنّبه العوز الشديد، حينما لا تكون لديه وسيلة أخرى يتعيّش بها»[3].

في يومنا هذا يسعى بعض المسيحيين إلى التركيز مجددًا على رسالة الأناجيل. يحب جيم واليس Jim Wallis -مؤسس ومحرر المجلة المسيحية *Sojourners* أن يشير إلى أن الكتاب المقدس ينطوي على ثلاثة آلاف سند لتخفيف الفقر- وهو يعتقد أن هناك مبررًا كافيًا لجعل هذا الأمر قضية أخلاقية مركزية للمسيحيين[4]. كما أن ريك وارين Rick Warren -مؤلف كتاب *Purpose Driven Life* وراعي الكنيسة المحدّبة the Saddleback Church- قد زار دولة جنوب إفريقيا سنة 2003 ومرّ بكنيسة مبنية من الصفيح يتم إدارتها من خيمة متداعية، وتُؤوي خمسة وعشرين طفلًا من الأيتام بسبب مرض نقص المناعة المكتسب AIDS. لقد كان هذا المشهد كما يقول وارين «أشبه بطعنة سكين في القلب: لقد أدركت أنهم يفعلون للفقراء

(1) هو المرسوم الذي يشمل القواعد الشرعية المكتوبة في القرن الثاني عشر التي تشكل النصوص الشرعية السنة التي استخدمها أصحاب الفتاوى البابوية للكنيسة الكاثوليكية. [المترجم]

(2) Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II-II, Question 66, Article 7.

(3) John Lock, *Two Treaties of Government*, Book I, Paragraph 42.

(4) Erin Carry, «Jim Wallis, Dems Favorite Evangelical?» *Baptist Press*, January 19, 2005, www.bpnews.net/bpnews.ap?ID=19941.

أكثر مما تفعله كنيستي الضخمة». ومنذ ذلك الحين، وبفضل تشجيعه، تبرّع للبلدان النامية أكثر من 7500 من أعضاء الكنيسة المحدَّبة، كلٌّ بطريقته الخاصة، من أجل العمل التطوعي في محاربة الفقر والمرض. وما إن رأوا الوضع بأنفسهم، فإن كثيرًا منهم أرادوا مواصلة المساعدة. ووارين نفسه يقول الآن: «لم أستطع أن أكون أقلّ اهتمامًا بالسياسة، بالحروب الثقافية. اهتمامي الوحيد هو أن أجعل الناس يهتمون بوضع البشر في دارفور ورواندا»[1].

مساعدة الفقراء يتم أيضًا التأكيد عليها بشدة في اليهودية، التي هي مصدر الكثير من تلك الآلاف الثلاثة من السندات المرجعية في الكتاب المقدس المتعلقة بمساعدة الفقراء. الكلمة العبرية المرادفة لكلمة «إحسان» -*tzedakah*[2]- تعني ببساطة «العدالة»، وبما أن هذه الكلمة تدل عند اليهود على أن التصدق على الفقراء ليس اختيارًا إضافيًا بأي حال وإنما هو جزءٌ جوهري من عيش حياة منصفة. وفي التلمود (وهو مناقشات مدونة للأحبار القدامى حول القانون والأخلاق اليهوديين). يُقَال إن الإحسان له أهمية مساوية لأهمية كل الوصايا الأخرى مجتمعةً، وإن اليهود يجب أن يتصدقوا بمقدار 10% على الأقل من دخلهم باعتبار ذلك **تصدقًا** [أو إحسانًا] «*tzedakah*»[3].

الإسلام أيضًا يطلب من معتنقيه أن يساعدوا أولئك الذين يكونون في عوز. ففي كل سنة يجب على المسلمين الذين يتجاوزون الحد الأدنى من الثروة أن يؤتوا **الزكاة** *zakat* بالتناسب مع الأصول المملوكة لديهم (وليس الدخل). فبالنسبة إلى الذهب والفضة -اللذين يُفهمَان في يومنا هذا باعتبارها يشملان العملة النقدية والأصول السائلة- يكون المتطلب هو إخراج نسبة 2.5% من قيمته عن كل سنة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المرء يمكن أن يعطي **الصدقة** *sadaqa*، التي يمكن أن تشمل المال والعمل معًا. وعلى سبيل المثال: حفر بئر كي يمكن للمسافرين أن يجدوا الماء، أو المساعدة في بناء مسجد. ولكن الصدقة، بخلاف الزكاة، تكون اختيارية.

اليهودية والمسيحية والإسلام هي تعاليم مرتبطة بجذورها في الجانب

(1) Nicholas Kristof, «Evangelicals a Liberal Can Love,» *The New York Times*, February 3, 2008.

(2) تُنطق هذه الكلمة العبرية على نحو شبيه تمامًا بنطق كلمة «صدقة» بالعربية، ولكن بالهاء المفتوحة: صدقه. [المترجم]

(3) Babylonian Talmud, Bava Bathra 9a; Maimonides, Mishneh Torah, «Laws Concerning Gifts for the Poor», 7: 5.

الواحد من العالم. التراث الصيني يعد متميزًا إلى حد كبير، وهو -كما يُقال أحيانًا- يركز بشكل أكبر على الكيفية التي يتصرف بها المرء إزاء من يكون على صلة ما به، وبوجه خاص على صلة عائلية به؛ ومع ذلك، فإننا هنا أيضًا من الممكن أن نجد تأكيدًا قويًا للغاية على التزاماتنا إزاء الفقراء. إن مينشيوس[1] Mencius -الذي عاش قبل الحقبة المسيحية بحوالي ثلاثمائة سنة قبل التقويم المسيحي- يُعتبر حجّة في تفسير التعاليم الكونفشيوية، وهو من حيث تأثيره على الفكر الصيني يأتي في المرتبة الثانية فقط بالنسبة إلى كونفشيوس نفسه. أحد الكتب التي تصف تعاليمه يروي أنّه قام بزيارة للملك هُوِي في إقليم ليان King Hui of Liang . وعند وصوله قابل الملك وقال له:

> هناك أناس يموتون بسبب المجاعة على الطرق، وأنت لا توزع المُؤن على مخازنك من أجلهم. وعندما يموت الناس تقول: «إن هذا لا يرجع إليّ، بل يرجع إلى ظروف السنة». ففيم يختلف هذا عن حبسِ شخصٍ ما في حظيرةٍ وقتلِه، ثم تقول بعدئذ: «لم أكن أنا سببَ موته، وإنما السلاح»[2].

ليس هناك شيءٌ جديدٌ فيما يتعلق بالفكرة القائلة بأننا علينا التزام أخلاقي قوي بمساعدة أولئك الذين يكونون في عوز. ففي مواقف الناس بعضها إزاء بعض حينما تكون الإغاثة سهلة، نجد أن حدوسنا تُخبرنا بأنّه من الخطأ عدم القيام بالإغاثة. ونحن جميعًا نرى أو نقرأ مناشدات لإغاثة أولئك الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع في بلدان العالم الأكثر فقرًا. ومع ذلك فإن معظمنا يرفض «التصرف حيال الآخرين». سأنتقل الآن إلى بيان بعض الأسباب التي نقدمها لإخفاقنا في التصرف.

---

(1) يُدعى في الأصل مينزي Mengzi، وهو فيلسوف كونفشيوسي، عاش في القرن الرابع قبل التقويم المسيحي. تقوم تعاليمه الأساسية على أن الإنسان طيب بفطرته، وأن طبيعته يمكن السمو بها أو إفسادها من خلال البيئة والظروف التي ينشأ فيها. [المترجم]

(2) Mengzi [Mencius], Lang Hui Wang I, http://chinese,dsurgeon.net/text/.pl/node=16028&if=en.

3 - الاعتراضات الشائعة على التبرُّع

قد ترى نفسك شخصًا مُحسِنًا. معظم الأمريكيين يرون ذلك، فتبرعهم بمبلغ 306 بلايين دولار للمؤسسات الخيرية سنة 2007، والذي يأتي ثلاثة أرباعه مباشرةً من أفـراد، يعمل على تدعيم هـذا الاعتقاد. في الولايات المتحدة يبلغ التبرُّع الخيري حوالي 2.2% من إجمالي الدخل القومي. وهذا المبلغ أكبر بوضوح مما يكون في أي بلد آخر، ويصل إلى ضعف مستوى التبرُّع الخيري في معظم الأمم الغنية. وحوالي سبعة من بين كل عشرة من الأُسر قـد ساهمت بشكل ما في الـتبرُّع الـخيري في سنة 2007[1]. والأمريكيون يساهمون أيضًا بوقتهم: فحوالي 30% يشاركون في نوع ما من العمل التطوعي، في الغالب مع مؤسسات دينية وتعليمية أو مجتمعية، بمعدل يبلغ حوالي 50 ساعة في السنة. ومع ذلك، ففي مقابل التبرعات المالية، نجد أنه فيما يتعلق بالعمل التطوعي تأتي الولايات المتحدة في مكانة متأخرة خلف كثير من دول أوربية عديدة، خاصةً الهولنديين الذين يشاركون بضعف ذلك القدر من وقتهم. وعندما يتم الجمع بين التبرعات المالية والعمل التطوعي، فإن الولايات المتحدة تأتي في المرتبة الثالثة عالميًا من بين الدول الأكثر كرمًا، بعد هولندا والسويد[2].

ولكن خلف هذا الرقم المُشجِّع توجد صورة أقل تشجيعًا إلى حدٍّ ما، على الأقلّ فيما يتعلق بأولئك الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع. وفقًا لتقرير «عطاء الـولايات المتحدة سنة 2008» -وهـو التقرير الأكـثر موثوقية عن العمل الخيريّ في الولايات المتحدة- فإن النسبة الأكبر من المال الذي يتبرّع به الأمريكيون، وهو ثلثه بالتمام، يذهب إلى المؤسسات الدينية، إذ تدفع هذه المؤسسات رواتب إلى رجال الدين ولتشييد الكنائس والمعابد اليهودية والمساجد وصيانتها. بعض من هذا المال -وإن يكن على التقدير الأكثر تفاؤلًا، أقل من 10%- يذهب كمساعدة للبلدان النامية. والقطاع الأوسع التالي الذي يذهب إليه هذا المال هو قطاع التعليم، بما يشمله من جامعات

---

(1) Center of Philanthropy at Indiana University Giving *U.S.A 2008: The Annual Report on Philanthropy for the Year 2007, Glenview*, IL: Giving U.S.A Foundation, 2008, pp. 9, 48.

والبيان الإحصائي للمقارن يغطي الفترة من 1995 حتى سنة 2002، وهو مقدم من قطاع التخطيط المقارن غير الهادف للربح في مركز دراسات المجتمع المدني في معهد جون هوبكنز للدراسات السياسية، جدول رقم 5.

(2) Eli Portillo and Sadie Latifi, American Volunteer Rate a Steady 28.8%, «*San Diego Union-Tribune*, June 13, 2006».

والبيانات المقارنة هنا أيضًا مأخوذة عن قطاع التخطيط المقارن غير الهادف للربح.

وكليات ومكتبات. كذلك فإن نسبة ضئيلة من ذلك المال تذهب للمنح الدراسية للدارسين من البلدان النامية، أو لتمويل البحث العلمي الذي يمكن أن يساعد على تقليل الفقر والمرض. إن تقرير «عطاء الولايات المتحدة سنة 2008» يجمع في كتلة واحدة التبرعات للإعانة الدولية أو المؤسسات جنبًا إلى جنب مع المنح للمؤسسات الأخرى التي لا تقدم عونًا للفقراء وإنما تقوم -على سبيل المثال- ببرامج وأعمال تبادلية دولية من أجل إحلال السلم والأمن الدوليين. وهذه الفئة من المعونات بكاملها قد تلقت فقط 4.3% من مجمل العطاء الخيري. وفقًا للإحصاءات المستمدة من «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» (OECD) بالولايات المتحدة، فإن الإحسان الشخصي الموجه إلى الإعانة الخارجية يبلغ فقط 0.07% من مجمل الدخل القومي للأمة (أي فقط 7 سنتات لكل مائة دولار من الدخل)[1].

بما أنّك شخصٌ ما اخترتَ أن تقرأ هذا الكتاب، فمِن المحتَمل أنك من بين أولئك الذين يتبرّعون لمؤسسة خيرية أو يتطوعون بالعمل الخيري في مجتمعهم؛ على الرغم من أنك قد تكون أقل ميلًا إلى أن تمنح جزءًا ماديًّا من دخلك من أجل إنقاذ أولئك الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع في أماكن بعيدة جدًّا. البّر يبدأ في البيت كما يقول المَثل السائر؛ ولقد وجدتُ أن الأصدقاء والزملاء والطلبة وجمهور المحاضرات يعبّرون عن ذلك الامتناع عن الإحسان بأساليب متنوعة. لقد رأيتُ ذلك في أعمدة صحفية وفي رسائل وفي مدوّنات أيضًا. وهذا تحديدًا أمر مشوّق؛ لأنه يعكس خطًّا من التفكير سائدًا في أمريكا الثرية، حيث إن التعليقات يذكرها الطلبة الذين يدرسون مُقرّرًا اختياريًا يُسمّى الأدب والعدالة في مدرسة Glenn-view High (وليس هذا اسمها الحقيقي)، وهي مدرسة في ضاحية ثرية من ضواحي بوسطن. جزء من واجب القراءة في هذا المقرر يتمثل في أن

(1) *Giving USA 2008*, pp. 9-14; Organization for Economic Cooperation and Development (OECD), Statistical Annex of 2007 Development Co-operation Report, www.oecd.org/dataoecd/52/9/18931 43.xls, Table 7e.

أما عبارة «التقدير الأكثر» تفاؤلًا عن نسبة العطاء الديني الذي يذهب إلى المعونة الخارجية، فهي مستمدة من فهرس معهد هدسون للإحسان العالمي، عن سنة 2008. وهذا الفهرس يشير إلى أن المؤسسات الدينية تسهم بمبلغ 8.8 بليون دولار في المعونة الخارجية. وهو أيضًا يقدم رقمًا إجماليًا عن الإحسان الشخصي في الولايات المتحدة الذي يزيد أربع أضعاف على رقم منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. ويمكن تفسير بعض التباين في الأرقام هنا استنادًا إلى المجال الأوسع لفهرس أرقام الإحسان العالمية، وهي الأرقام التي تشتمل -على سبيل المثال- على الوقت الذي يكرسه المتطوعون للعطاء، وفقًا لتكلفة متوسط مستويات أجر العمل في الولايات المتحدة؛ وعلى الرغم من ذلك يظل من غير الواضح الكيفية التي يمكن بها التوفيق بين هذا الرقم وبين الرقم الذي تقدمه منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية أو مع بيانات العطاء في الولايات المتحدة. انظر: مركز الرخاء العالمي، فهرس الإحسان العالمي، معهد هدسون، 2008، المتاح على موقع:

http://gpt.hudson.org/

المُدرّسين يعطون الطلبة مقالًا كتبته أنا لمجلة *The New York Times* سنة 1999، طارحين عليهم البرهان الذي قرأتَه أنتَ الآن، وبعدئذ يطلبون منهم أن يكتبوا أوراقًا بحثية ردًا على ذلك المقال[1]. يقوم الطالب سكوت سيدر Scott Seider -الذي تخرّج فيما بعد في جامعة هارفارد- بالبحث في الكيفية التي يفكر بها المراهقون في الالتزامات الأخلاقية إزاء الآخرين، وقد أجرى مقابلات مع ثلاثة وثمانين من الطلبة في شعبتين من المقرر الدراسي وقرأ أوراقهم البحثية[2].

لننظر في بعض الاعتراضات التي تثيرها هذه المصادر المتنوعة. ربما يكون الاعتراض الأكثر أساسية هو ذلك الذي أثارته كاترين Kathryn، وهي طالبة في مدرسة «جلين-فيو» تعتقد أننا لا ينبغي أن نصدر حكمًا على الناس الذين يرفضون التبرع:

> **ليس هناك تقنين عـام أبيض وأسـود لكل شخص. ومن الأفضل أن نتقبل القول بأنّ كل شخص له رؤية مختلفة في المسألة، وكل الناس لهم الحق في اتباع معتقداتهم الخاصة.**

لقد رأت كاترين أنّ الفرد له أن يحدد التزامه/أو التزامها الأخلاقي إزاء الفقراء. ولكن في حين أن الظروف تُحدِث اختلافًا، وأننا ينبغي أن نتجنب التطرف في أحكامنا بين الأسود والأبيض؛ فإن هذا لا يعني أننا نقبل أن يكون لكل شخص الحق في أن يتبّع معتقداته/أو معتقداتها الخاصة. فذلك هو موقف النسبية الأخلاقية moral relativism، وهو موقف يجده الكثيرون جذّابًا فقط إلى أن يجدوا أنفسهم في مواجهة شخص يفعل شيئًا ما يُعدُّ خاطئًا بالفعل وفي واقع الأمر. فلو رأينا شخصًا يضع مخلب قط ما على شواية كهربائية تزداد حرارتها تدريجيًا، وعندما نعترض بشدة على مسلكه هذا، يقول: «أوه، حسنًا، يحق لك أن تتبّع معتقداتك الخاصة»، ودعه وشأنه. ونحن يمكننا ونحاول بالفعل أن نُوقِف فعل الناس الذين يكونون قساة إزاء الحيوانات، مثلما نوقف فعل مغتصبي

---

(1) Peter Singer, «The Singer Solution to World Poverty», *The New York Times Sunday Magazine*, September 5, 1999.

(2) «مدرسة جلين-فيو العليا» هو الاسم الذي اختلقه سيدر للمدرسة، والأسماء التي أطلقها الطلبة هي أيضًا أسماء مستعارة. والمادة العلمية المقدمة عن طلبة المدرسة مستمدة من بحث سيدر التالي:
Scott Seider, «Resisting Obligation: How Privileged Adolescents Conceives of their Responsibilities to Others»; *Journal of Research in Character Education*, 6:1 (2008). Pp. 3-19, and Scott Seider, *Literature, Justice and Resistance: Engaging Adolescents from privileged Groups in Social Actions*, unpublished doctoral dissertation, Graduate School of Education, Harvard University.

النساء والعنصريين والإرهابيين. وأنا لا أقول إن الإخفاق في العطاء يشبه ارتكاب هذه الأفعال من العنف، ولكننا إذا رفضنا النسبية الأخلاقية في مواقف معينة؛ فإننا إذًا ينبغي أن نرفضها أينما كانت.

بعد أن قرأ مقالي الطالب دوجلاس Douglas، وهو طالب آخر في مدرسة جلين-ڤيو، أبدى اعتراضه قائلًا «إنني ليس لديّ الحق في أن أخبر الناس بما ينبغي أن يفعلوه». ومن ناحية ما، يمكن القول بأنه على صواب في رأيه هنا. فأنا ليس لديّ أي حق في أن أخبرك أو أخبر أي شخص آخر بما ينبغي أن تفعله في إنفاق مالك، بمعنى أنّ ذلك سوف يتضمن أنك **ينبغي** أن تتصرف وفقًا لما أقول. ومن ناحية أخرى، فإنني بالفعل لديّ الحق في الكلام الحر الذي أمارسه الآن بأن أقدّم لك بعض البراهين التي ربما تتأمّلها قبل أن تُقرّر ما الذي تفعله بمالك. وأنا أتمنّى أنك ستريد الإنصات إلى رؤى متنوعة قبل أن تتخذ رأيًا بشأن مثل هذه المسألة المهمّة. وإذا كنتُ على خطأ في هذا، فإنك مع ذلك تكون حُرًّا في إغلاق الكتاب الآن، ولن يكون لديّ شيء يمكن أن أفعله حيال ذلك.

من الممكن -بطبيعة الحال- أن نرى أن الأخلاق ليست نسبية، وأن ذلك هو ما ينبغي أن نتحدّث عنه؛ ولكن الرؤية الصحيحة هي أننا لا نكون بذلك واقعين تحت أي إلزام بأن نعطي أي شيء على الإطلاق. لقد كتبتْ لوسي Lucy، وهي طالبة أخرى في مدرسة «جلين-ڤيو»، ما يلي:

> **إذا أراد شخص ما أن يشتري سيارة جديدة، فينبغي أن يفعلوا ذلك له. وإذا أراد شخص ما أن يعيد طلاء منزله، فينبغي أن يفعلوا ذلك له، وإذا كانوا في احتياج إلى حُلة، فأجلبها لهم. فهم يعملون من أجل المال الذي يحصلون عليه، وهم لهم الحق في إنفاقه على أنفسهم.**

من المحتمل أن يكون لديك من قبل هذا الفكر: لقد عملتَ بكدٍّ لكي تحصلَ على ما حصلتَ عليه الآن، أفلا يكونُ بذلكَ لكَ الحقُّ في أن تستمتعَ به؟ إنَّ هذا يبدو أمرًا عادلًا ومعبّرًا عن قيمنا الاقتصادية الأساسية. ومع ذلك، فإنك عندما تفكر في العدالة، فإنك ربما تفكر أيضًا فيما إذا كنتَ تنتمي إلى الطبقة المتوسطة في دولة نامية، فأنت عندئذ تكون محظوظًا بأن تُولَد في ظروف اجتماعية واقتصادية تجعل من الممكن بالنسبة إليك أن تعيش بشكل مريح إذا ما عملتَ بكدٍّ، وكان لديك القدرات الصحيحة. وفي أماكن أخرى، ربما تنتهي بك الحال إلى أن تكون فقيرًا، مهما يكن ما

فعلته بكد. لقد اعترف وارين بافيت Warren Buffett -وهو أحد أكبر الأثرياء في العالم- بالكثير مما ذهبنا إليه بالقول: «إذا وضعتني في وسط بنجلاديش أو بيرو؛ فإنك سوف تكتشف مقدارَ ما تعمل هذه الموهبة على إنتاجه في النوع الخاطئ من التربة». لقد قام هربرت سيمون Herbert Simon -عالم الاقتصاد والاجتماع الفائز بجائزة نوبل- بتقدير «رأس المال الاجتماعي» باعتباره مسؤولًا بمقدار 90% على الأقل مما يكسبه الناس في المجتمعات الثرية. لقد كان سيمون يتحدث عن العيش في مجتمع ينطوي على مؤسسات جيدة، من قبيل: نظام بنكي سديد، وقوة شرطية سوف تحميك من الجرائم، ومحاكم يمكن أن تستعين بها آملًا في اتخاذ قرار عادل إذا ما نقض شخص ما عقدًا معك. إن البنية التحتية ممثلةً في شكل الطرق، والاتصالات، وكذلك القدرة الموثوق بها على الدعم، تعدُّ جزءًا من رأس المال. ومن دون هذه الأشياء، فإنك سوف تكافح من أجل الهروب من الفقر، مهما كان ما تبذله من العمل الشاق. وأغلب الفقراء يكدّون في العمل على الأقل بقدر كدّك فيه. فهم لديهم قدر ضئيل من الاختيار، برغم أن معظم الناس في الدول الثرية لن يتسامحوا أبدًا مع ظروف العمل في البلدان الفقيرة. إن العمل في البلدان الفقرة يشبه إلى حد كبير الانغماس في جهد بدني شاق؛ لأنه يُوجَد هناك آلات أقل لتنفيذ المهمة المطلوبة، ومكاتب العمال في البلدان الفقيرة في مناطق المدار الاستوائي، من النادر أن يكون لديها سبل الرفاهية الخاصة بالتكييف الهوائي. وإذا كان الناس الفقراء لا يعملون، فمن الأرجح أن يكون ذلك بسبب أن نسبة البطالة تكون أعلى في البلدان الفقيرة مما تكون عليه في البلدان الغنية، وليس هذا خطأ الفقراء.

قالت لوسي: إن الناس لديهم الحق في إنفاق المال الذي يكسبونه على أنفسهم. وحتى إذا وافقنا على ذلك، فإن القول بأنَّك لديك **الحقّ** في فعل شيء ما، لا يحسم المسألة فيما يتعلّق بما **ينبغي** أن تفعله. فإذا كان لديك حق في أن تفعل شيء ما، فلن يكون لديّ مبرر في أن أرغمك على ألّا تفعله، ولكني مع ذلك يمكنني أن أخبرك بأنك ستكون أحمق بفعلك له، أو فعلك له سيكون أمرًا فظيعًا، أو أنك ستكون خاطئًا إذا فعلته. قد يكون لك الحق في أن تمضي عطلة نهاية الأسبوع في رياضة ركوب الأمواج، ولكن يمكن مع ذلك أن يكون من الصواب القول بأنه ينبغي لك زيارة أمك المريضة. وبالمثل، فربما نقول إن الأغنياء لديهم الحق في إنفاق أموالهم على حفلات باذخة، وساعات باتيك فيليب، وقارب نفّاث خاص، واليخوت

الفاخرة، والسفر عبر الفضاء -أو لأجل ذلك للسبب- فإننا نلقي برزم المال في المرحاض. أو نقول بأن أولئك من أمثالنا ممن تكون لهم وسائل أكثر تواضعًا، لا ينبغي إرغامهم على الاستغناء عن أي متع أقلّ تكلفة يمكن أن تكفَل بعض الارتياح من طيلة الوقت الذي نمضيه في العمل. ولكننا مع ذلك يمكننا أن نعتقد أننا باختيارنا فعل هذه الأشياء بدلًا من استخدام المال في إنقاذ حيوات إنسانية، هو أمر يكشف عن افتقار للتعاطف يُرثى له، ويكشف عن أنك لستَ شخصًا صالحًا.

لو كان لدينا الحق في أن نفعل بمالنا ما نشاء؛ لأتاح ذلك الحق في الاعتراض على أية محاولة لإرغام الأغنياء على التبرُّع بأموالهم، أو على محاولات أخذ أموالهم، بفرض الضرائب على سبيل المثال. إنني لا أوافق على أننا يكون لدينا مثل هذا الحق، ولكنني لا أبرهن هنا على فرض ضرائب أعلى أو على أية وسائل جبرية لزيادة الإعانة. إنني أتحدث عما ينبغي أن **نختار** ما نفعله بأموالنا إن كان لنا أن نعيش بطريقة أخلاقية. وفي الوقت ذاته، فإنني لا أبرهن ضد أن يكون هناك دور حكومي في تقليل الفقر العالمي. فإن كان ينبغي للحكومات أن تؤدي مثل هذا الدور، فهذه ببساطة مسألة منفصلة عن البرهان الذي أقيمه. إن هدفي هو أن أقنعك -أنت أيها القارئ الفرد- بأنك يمكن وينبغي أن تفعل أكثر جدًّا مما تفعله من أجل مساعدة الفقراء.

الليبراليون يناهضون الفكرة القائلة بأن علينا واجب مساعدة الآخرين. الفيلسوف الكندي جان نارفيسون Jan Narveson يفصح عن هذه الوجهة من النظر بقوله:

> **إننا بالتأكيد مسؤولون عن الشرور التي نوقعها بالآخرين، بصرف النظر عن المكان؛ ونحن مدينون بتعويض أولئك الناس... وعلى الرغم من ذلك، فإنني لم أرَ أي برهان مقنع على أننا ندين بشيء ما -كأمر يتعلق بواجب عام- لأولئك الذين لم نفعل شيئًا خاطئًا حيالهم**[1].

هناك، للوهلة الأولى، شيء ما جذاب في النظرية السياسية التي تقول: «اتركني وشأني، وسوف أتركك وشأنك، وسوف نسير بذلك بشكل جيّد». هذه النظرية تروق للذهنية الحدية، ولحياة مثالية في فضاءات مفتوحة على مصراعيها، حيث نقتطع فيها منطقتنا الخاصة ونعيش من دون

(1) Jan Narveson, «We Don't Owe Them a Thing», A Tough-minded but Soft-hearted View of Aid to the Faraway Needy, *The Monist*, 86;3 (2003), p. 419.

إزعاج من الجيران. وللوهلة الأولى، فإن هذا يبدو معقولًا تمامًا. ومع ذلك، فإن هناك جانبًا فظًّا في الفلسفة التي تنكر أن يكون لدينا أية مسؤوليّات إزاء أولئك الذين يكونون في عوز من دون أن يكون لهم أي ذنب في ذلك. أخذُ الليبرالية مأخذَ الجدّ سوف يتطلب منا أن نلغي كل مخططات الدولة في دعم الرفاهية لأولئك الذين لا يمكنهم الحصول على وظيفة أو يكونون مرضى أو عاجزين، وأن نلغي كل تمويل من الدولة للرعاية الصحية لكبار السن ولأولئك الذين يكونون فقراء للغاية بحيث لا يستطيعوا كفالة رعاية صحية على نفقتهم. لأن الناس بالفعل تدعم مثل هذه الرؤى المتطرفة. فأغلب الناس يرون أننا لدينا بالفعل التزامات إزاء أولئك الذين يمكننا مساعدتهم بتضحية ضئيلة نسبيًا، وبالتأكيد إزاء أولئك الذين يعيشون في بلدنا، وأنا أود أن أبرهن على أننا لا يمكن بطريقة مبررة أن نرسم حدًّا هناك. ولكن إذا لم أقنعك بذلك، فإن هناك مسارًا آخر من البرهان يمكن أن نتأمله: لو كان لدينا -في الواقع- على الأقل جزئيًا سببٌ لفقر الناس الأكثر فقرًا في العالم، إذا كنا نؤذيهم، عندئذ فإنه حتى الليبراليون من أمثال نارفيسون سيكون عليهم أن يوافقوا على أننا ينبغي علينا أن نعوّضهم.

بعض الناس يتخيلون ثروة العالم هي مقدار ثابت، وكأنها فطيرة محشوّة يجب تقسيمها بين كثرة من الناس. ووفقًا لذلك النموذج، فإن القطعة الأكبر يحصل عليها الأغنياء والقطعة الأقل حجمًا تكون للفقراء. وإذا كانت هذه بالفعل هي الطريقة التي يُدَار بها العالم، عندئذ فإنّ نخبة ضئيلة نسبيًا سوف تُوقِع ظلمًا فظيعًا على كل شخص آخر؛ لأن 2% فقط من أناس العالم يمتلكون نصف ثروة العالم، وأن الأكثر ثراءً في العالم البالغ نسبتهم 10% يمتلكون 85% من ثروته. وفي مقابل ذلك، فإن نصف الناس في العالم لديهم 1% بالكاد من الأصول المالية للعالَم لكي يتم تقسيمها فيما بينهم[1]. ولكن ثروة العالم ليست ثابتة الحجم. فالعالم الآن أكثر ثراءً بشكل شاسع مما كان عليه، لنقل: منذ ألف سنة مضت. فبإيجاد وسائل أفضل لخلق ما يحتاج إليه الناس، استطاع المقاولون أن يجعلوا أنفسهم أثرياء، ولكنهم لا يجعلون بالضرورة الآخرين أكثر فقرًا. هذا الكتاب عن الفقر المطلق، لا عن كونك فقيرًا نسبيًا مقارنةً بمقدار الثراء

(1) James B. Davies, Susanna Sandstorm, Antony Shorrocks, and Edward N. Wolff, «The World Distribution of Household Wealth», Worldwide Institute for Development Economics Research of the United Nations University, Helsinki.
(December 2006), www.wider.un.edu/research/2006-2007/2006-2007-1/wider-wdhw-launch 5-12-2006/wider-wdhw-report-5.

الذي يكون عليه جيرانك؛ وبعبارة قاطعة يمكن القول بأن المقاولين يزيدون ثروة العالم. وهكذا، فإن التوزيع غير العادل لثروة العالم -برغم أنه يكون مفزعًا- لا يكون كافيًا لكي يبين لنا أن الأغنياء قد آذوا الفقراء.

ومع ذلك، فإن هناك العديد من الأساليب التي يتضح منها أن الأغنياء قد آذوا الفقراء. يعرّف علي نوداي Ale Nodye أحد هذه الأساليب. لقد نشأ في قرية بالقرب من البحر في السنغال في وسط إفريقيا. كان أبوه وجده صيادَين، وقد أراد أن يكون صيادًا أيضًا. ولكن بعد ست سنوات اصطاد فيها ما يكفي من السمك لكي يوفّر ثمن الوقود وتكاليف قاربه، شرع في الارتحال بقارب بالمجداف إلى جزر الكناري، حيث تمنّى أن يصبح هناك واحدًا آخرَ من الكثيرين المهاجرين غير الشرعيين إلى أوروبا. وبدلًا من ذلك، فقد تم القبض عليه وترحيله. ولكنه يقول إنّه سوف يحاول مرة أخرى، برغم أن الرحلة خطيرة وأحد أبناء أعمامه قد مات في رحلة مماثلة. إنه ليس لديه أي اختيار، كما يقول، «لأنه لم يعد هناك أي سمك هنا في البحر». تقرير لجنة تحقيق أوروبية يبين أن نوداي على حقٍّ؛ فالمخزون السمكي الذي كان يصطاد منه أبوه وجده ويطعمان عائلتهما قد تم تدميره بفعل أساطيل الصيد الصناعية التي تأتي من أوروبا والصين وروسيا، وتبيع أسماكها لكي تغذّي جيدًا الأوروبيين الذين يمكن أن يتكفلوا بدفع أسعار عالية. الأساطيل الصناعية تجر شباكًا شاسعة على قاع البحر، مدمرةً بذلك الشعاب المرجانية حيث يتغذّى السمك. ونتيجةً لذلك، فإن مصدرًا أساسيًا من البروتين اللازم للناس الفقراء قد تلاشى؛ فالقوارب عاطلة عن العمل، والناس الذين اعتادوا أن يمارسوا صيدًا لا يتلاشى أو يصنعوا قوارب، هم الآن بلا عمل، وهذه القصة تتكرر في كثير من المناطق الشاطئية حول العالم[1].

أو تأمل كيف نحصل نحن المواطنين في البلدان الغنية على نفطنا ومعادننا. تيودورو أوبيانج Teodoro Obiang -ديكتاتور غينيا الاستوائية الصغيرة للغاية- يبيع معظم نفط بلده لمؤسسات أمريكية، من بينها إيكسون موبيل Exxon Mobil، وماراثون Marathon، وهيس Hess. وبرغم أن مرتبه المتواضع يبلغ 60,000 دولار، فإن هذا الحاكم لبلد يبلغ عدد سكانها 500,000، يُعَدُّ أغنى من الملكة إليزابيث الثانية. فهو يملك

(1) Sharon Laftaniere. «Europe Takes Africa Fish, and Boatloads of Migrants Follow», *The New York Times*, January 14, 2008, and Elizabeth Rosenthal, «Europe Appetite for Seafood Propels Illegal Trade», *The New York Times*, January 15, 2008.

ست طائرات نفاثة، ومنزلًا بقيمة 35 مليون دولار في ماليبو، وكذلك العديد من المنازل الأخرى في ميرلاند وكيب تاون، وسيارت نفاثة من فئة لامبورجيني وفيراري وبنتلي. ومعظم الناس الذين يحكمهم يعيشون في فقرٍ مُدقِع بمتوسط عمر يبلغ 49 سنة، ووفيات الرضع تصل إلى 87 من بين كل ألف (وهذا يعني أن أكثر من واحد من بين اثني عشر رضيعًا يموت قبل أن يبلغ العام الأول من ولادته)[1]. غينيا الاستوائية حالة متطرفة، ولكنّ هناك أمثلة أخرى سيئة غالبًا مثلها. في سنة 2005 صدَّرت جمهورية الكونغو الديموقراطية معادنَ بقيمة 200 مليون دولار. ومن هذا المبلغ بلغَت إيـرادات ضريبة الدولة 86,000 دولار. ومن المؤكّد أن شخصًا ما كان يجمع أموالًا من هذه الصفقات، وليس شعب الكونغو[2]. وفي سنة 2006، جلبت أنجولا مبلغ 30 بليون دولار كضريبة إيراد للدولة، وهو ما يساوي 2,500 دولار لكل مواطن من إجمالي مواطنيها البالغ عددهم 12 مليونًا. ومع ذلك، فإن غالبية مواطني أنجولا ليس لديهم أي سبيل للرعاية الصحية الأساسية، ومتوسط العمر يبلغ إحدى وأربعين سنة، وطفلًا من بين أربعة يموت من دون أن يبلغ سن الخامسة. ووفقًا لفهرس إدراك الشفافية العالمية للفساد، فإن أنجولا تأتي الآن في المرتبة 147 من بين 180 في القائمة.

إن الشركات الدولية في صفقاتها مع الطغاة الفاسدين في البلدان النامية تشبه الناس الذين يشترون بضائع يعلمون أنها مسروقة، مع فارق يتمثل في أن النظام الدولي القانوني والسياسي يعترف بهذه الشركات، لا باعتبار أصحابها كالمجرمين الذين يستحوذون على بضائع مسروقة، وإنما باعتبارهم المُلّاك القانونيين للبضائع التي اشتروها. هذا الوضع -بطبيعة الحال- مفيد للشركات التي تعقد صفقات مع الطغاة، وهو مفيد أيضًا لنا؛ لأننا نستخدم النفط والمعادن والمواد الخام التي نحتاج إليها للحفاظ على رخائنا. ولكنه يُعدّ وضعًا كارثيًا بالنسبة إلى البلدان الغنية بمواردها. والمشكلة لا تكمن فحسب في الخسارة الهائلة للثروة، التي إن استُخدِمت بطريقة رشيدة يمكن أن تبني رخاء الدولة. وعلى نحو ينطوي على مفارقة، فإن الدولة النامية التي لديها مخزون غني من النفط أو المعادن، هي الدول التي غالبًا ما تكون هي الأسوأ، مقارنةً بغيرها من الدول التي لا تكون لديها

(1) See Leif Wenar, «Property Rights and the Resource Curse»,' *Philosophy & Public Affairs* 36:1 (20080, pp. 2-32). A more detailed version is available on Wenar's website: www.wenar.staff.shef.ac.uk/PRRCwebpage.html.

(2) Paull Collier, *The Bottom Billion* New York: Oxford University Press, 2007).

هذه الموارد. أحد أسباب ذلك هو أن إيرادات الدولة من هذه الموارد تمثّل حافزًا ماليًّا ضخمًا لأي شخص يطمح إلى الانقلاب على الحكومة ويمسك بالسلطة. المتمردون الناجحون يعرفون أنهم إذا نجحوا سوف يفوزون بثروة شخصية هائلة. وهم يمكنهم أيضًا أن يكافئوا أولئك الذين تستروا على الانقلاب، ويمكنهم شراء أسلحة كافية لكي يحافظوا على بقائهم في السلطة مهما يكن من سوء حكمهم للبلاد. هذا بالطبع ما لم يعطوا الأسلحة لبعضٍ من أولئك الذين تغويهم هم أنفسهم إمكانية التحكم في تلك الثروة كلها... وهكذا فإن الموارد التي ينبغي أن تفيد الدول النامية، تصبح بدلًا من ذلك لعنة تجلب الفساد والانقلابات والحروب الأهلية[1]. وإذا كنّا نستخدم بضائع مصنوعة من مواد خام نحصل عليها بواسطة هذه الصفقات اللاأخلاقية من دول غنية الموارد ولكنها فقيرة ماليًّا؛ فإننا بذلك نؤذي أولئك الذين يعيشون في هذه الدول. هذه الناحية الأخرى التي نقوم فيها نحن الذين نعيش في البلدان الغنية بإيذاء الفقراء، قد أصبحت واضحة بازدياد خلال العقد أو العقدين الأخيرين. يوري موسيفيني Yoweri Museveni رئيس أوغندا قد ذكر هذا الأمر صراحةً موجهًا خطابه إلى العالم المتقدم في اجتماع الاتحاد الإفريقي سنة 2007، قائلًا: «أنتم تقومون بالاعتداء علينا بالتسبب في زيادة الحرارة العالمية... من المحتمل أنّ ألاسكا سوف تصبح صالحة للزراعة، ومن المحتمل أن سيبيريا سوف تُصبح صالحةً للزراعة؛ ولكن أنّى سيترك هذا إفريقيا على حالها؟»[2].

إنها لهجة عنيفة، ولكن الاتهام يصعب إنكاره. إن ثلثي الغازات المحتبسة الآن في الغلاف الجوي قد أتى من الولايات المتحدة وأوروبا. بدون تلك الغازات، لن تكون هناك أية مشكلة في ازدياد حرارة العالم التي يتم شحنها بفعل البشر. إسهام إفريقيا في هذه المشكلة يعدّ -بالمقارنة- محدودًا للغاية: أقل من 3% من الانبعاثات العالمية الناتجة عن الوقود المحترق منذ سنة 1900، وهي نسبة تصبح أكبر إلى حد ما إذا ما تضمّن ذلك تمهيدَ الأرض

(1) See Leonard Wantchekon, «Why do Resources Dependent Countries Have Authoritarian Governments?» *Journal of African Finance and Economic Development* 5:2 (2002), pp. 57-77; an earlier version is available at www.yale.edu/leitner/pdf/1999-11.pdf. See also Nathan Jensen and Leonard Wantchekon, «Resources Wealth and Political Regimes in Africa,» *A comparative Political Studies*, 37 (2004), pp. 816-841.

(2) كان الرئيس موسيفيني يتحدث في قمة الاتحاد الإفريقي المنعقدة في أديس أبابا، إثيوبيا في فبراير 2007، وقد ورد تقرير عن خطابه في:

Andrew Revkin, «Poor Nations Bear Burnt as the World Warms,» *The New York Times*, April 1, 2007.

وانبعاثات غاز الميثان الناتجة عن مخلفات المواشي، ولكنها لا تزال تمثل كسرًا حسابيًّا ضئيلًا مما ساهمت به الدول الصناعية. وفي حين أن كل دولة سيكون لديها بعض المشكلات في تعديل التغير المناخي، فإن العناء -كما يري موسيفيني- سيكون بشكل غير متناسب من نصيب الفقراء في أقاليم العالم الأقرب إلى خط الاستواء. بعض العلماء يعتقدون أن ظاهرة التبخّر الذي يتحوّل إلى مطر سوف تتناقص في المناطق الأقرب إلى خط الاستواء، وتزداد في المناطق الأقرب إلى القطبين. وعلى أية حال، فإن سقوط الأمطار الذي يعتمد عليه مئات الملايين في إنبات غذائهم، سوف يقل الاعتماد عليه. وفضلًا عن ذلك، فإن الدول الفقيرة تعتمد على الزراعة بدرجة أكبر إلى حد بعيد من الدول الغنية. في الولايات المتحدة تمثل الزراعة نسبة 4% فقط من الاقتصاد؛ في حين أن النسبة في مالاوي تبلغ 40%، و 90% من السكان هم مزارعون يعيشون على الكفاف مما يزرعون، وكلّهم في واقع الأمر يعتمدون سقوط المطر. كما أن الجفاف لن يكون هو المشكلة الوحيدة التي يجلبها التغير المناخي للفقراء. فارتفاع مستويات سطح البحر سوف يُغرق أقاليم الدلتا الخصبة المستقرة بكثافة والتي يسكنها عشرات الملايين من الناس في مصر، وبنجلاديش والهند وفيتنام. أما دول الجُزر الهادئة الصغيرة التي تتألف من شعاب مرجانية حَلقِية ممتدة بشكل واطئ، مثل كريباتي[1] Kiribati وتوفالو[2] Tuvalu، فهي معرضة لخطر مماثل، ويبدو أنه من المحتمل أنها سوف تصبح مغمورة خلال عقود قليلة[3].

الدليل مفحم على أن انبعاث الغاز المحتبس من الدول الصناعية قد أضرّ -ولا يزال يضرّ- الكثير من الناس الأكثر فقرًا في العالم، جنبًا إلى جنب مع الناس الأكثر غِنًى أيضًا. وإذا وافقنا على أن أولئك الذين يضرون الآخرين يجب أن يعوّضوهم عن هذا الضرر، فإننا لا يمكننا إنكار أن الدول الصناعية مدينة بتعويض كثير من الناس الأكثر فقرًا في العالم. إن منحهم إعانة كافية للتخفيف من نتائج التغير المناخي سيمثل أحد أساليب دفع ذلك التعويض.

في عالم لم يعد لديه مزيد من القدرة على استيعاب احتباس الغازات

---

(1) دولة جزيرية تقع غرب وسط المحيط الهادي بالقرب من خط الاستواء. أصبحت مستقلة عن بريطانيا سنة 1979، ويبلغ عدد سكانها حوالي 57 ألف نسمة. [المترجم]

(2) دولة جزيرية تقع غرب المحيط الهادي بالقرب من فيجي Fiji. وقد أصبحت جزءًا من مستعمرة جزيرتي جلبرت واليس، واستقلت عن الوصاية البريطانية سنة 1978، ويزيد عدد سكانها على 7 آلاف نسمة. [المترجم]

(3) Andrew Revkin,op.cit., and «Reports from the Front in the War on Warming,» *The New York Times*, April 3, 2007; Kathy Marks, «Rising Tide of Global Warming Threatens Pacific Islands States,» *The Independent* (UK), October 25, 2006.

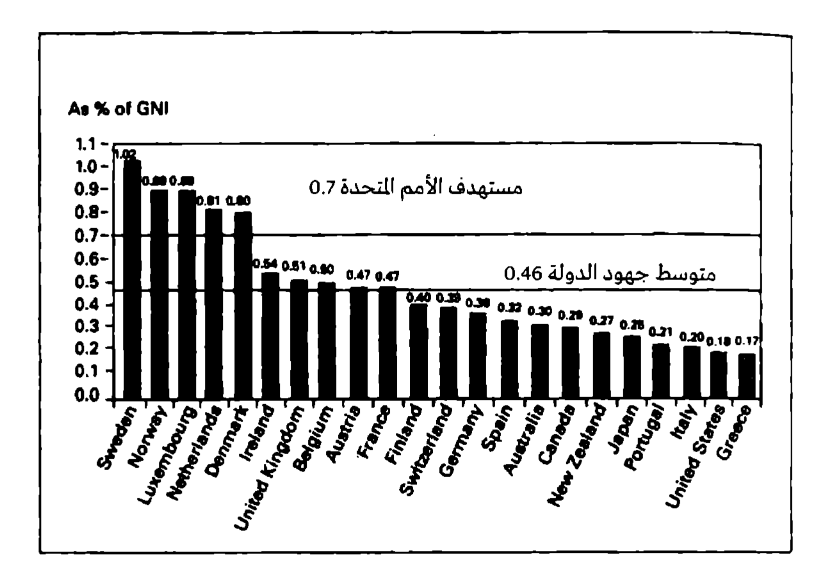
من دون نتائج مترتبة على التغير المناخي المدمر، فإن الفلسفة القائلة «دعني وشأني، وسوف أدعك وشأنك» قد أصبح من المستحيل غالبًا العيش وفقًا لها؛ لأن هذا العيش يتطلب التوقف عن تحميل الغلاف الجوي بأي مزيد من الغازات المحتبسة. وإلا فإننا ببساطة لا نترك بذلك الآخرين وشأنهم.

أمريكا دولة كريمة. ونحن باعتبارنا أمريكيين نعطي أصلًا من خلال الضرائب التي ندفعها أكثر مما نعطيه من خلال المساهمة في الإعانة الخارجية. ألا يكفي هذا؟

وبسؤال الأمريكيين عما إذا كانت الولايات المتحدة تمنح أكثر أو أقل أو قرابة المبلغ نفسه من الإعانة التي تدفعها الدول الثرية الأخرى؛ فإن واحدًا فقط من بين عشرين قد استطاع تقديم الإجابة الصحيحة. وعندما ارتأى طلبتي أن أمريكا تعد كريمة في هذا الشأن، عرضتُ عليهم أرقامًا مستمدة من موقع «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» عن المبالغ الممنوحة من كل منظمات الأعضاء المانحين. وقد أدهشهم أن يجدوا أن الولايات المتحدة -لسنوات عديدة- كانت في أدنى أو قرب أدنى قائمة الدول الصناعية من حيث نسبة الدخل القومي الممنوحة للإعانة الخارجية. ففي سنة 2006 جاء ترتيب الولايات المتحدة في القائمة وراء البرتغال وإيطاليا، بصرف النظر عن أن اليونان باعتبارها الدولة الصناعية الوحيدة التي تمنح نسبة أصغر من دخلها القومي للإعانة الخارجية. معدل الجهد الدولي في تلك السنة بلغ 46 سنتًا لكل 100 دولار من مجمل الدخل القومي، بينما الولايات المتحدة منحت 18 سنتًا فقط لكل 100 دولار مما كسبته.

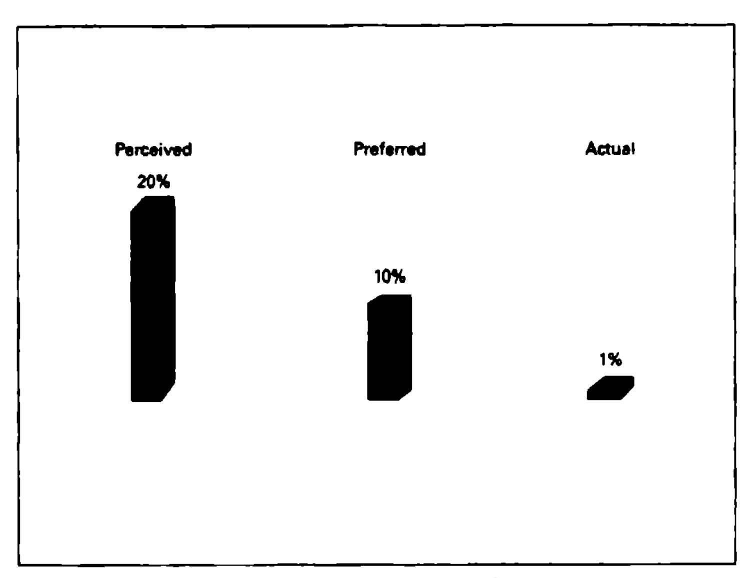


الإعانة الرسمية كنسبة لمجمل الدخل القومي (2006)[1]



في أربعة استطلاعات مختلفة سألت الأمريكيين عن نسبة الإنفاق الحكومي (وليس الدخل القومي) الذي يذهب إلى الإعانة الخارجية، تراوحت الإجابات بين 15% و 20%. بينما الإجابة الصحيحة أنها تقل عن 1%.

(1) Organization for Economic Co-operation and Development *(OECD); OECD Journal on Development: Co-operation Report 2007,* p.134, www.oecd.org/dac/dct. The table is reproduced by kind permission of OECD. See also *Annex of the 2007 Development Co-operation Report,* www.oecd.org/dataoecd/52/9/1893143.xls.



الإعانة الأجنبية كنسبة من الميزانية الفيدرالية

تمثل الأعمدة متوسط الإجابات عن الاستطلاع الذي أجراه البرنامج في مجال الاتجاهات السياسة الدولية (PIPA) سنة 2000. كذلك فإن استطلاعات الرأي الأخرى التي أجراها هذا البرنامج نفسه مع صحيفة Washington Post قد أفضت إلى نتائج مماثلة.

بسؤال الأمريكيين عن حصة أمريكا من الدخل القومي التي تتبرّع بها الولايات المتحدة في مجال الإعانة الخارجية، أجاب 42% منهم باعتقادهم أن الدولة تتبرّع بما يبلغ قيمته أربعة أضعاف ما تمنحه بالفعل، في حين أن 8% من الأمريكيين اعتقدوا أن الولايات المتحدة تتبرّع بأكثر من مائة ضعف المبلغ الذي تمنحه بالفعل[1].

أغلبية الناس في هذا الاستطلاع قالوا أيضًا إن أمريكا تمنح الكثير جدًّا من الإعانة، ولكن عندما سُئِلوا عن مقدار المبلغ الذي ينبغي أن تتبرّع به،

(1) Program on International Policy Attitudes, www.worldpublicopinion.org/pipa/articles/home_page/383.php?nid=&pnt=383&Ib=hmpgI. The table is reproduced by kind permission of the Program on International Policy Attitudes, and is taken from «Americans on Foreign Aid and World Hunger: A Survey of US Public Attitudes» February 2 (2001), http://65.109.167.118/pipa/pdf.feb0/ForeigbAid_Feb01 _rpt.pdf.

تراوح متوسط الإجابات بين 5% و 10% من الإنفاق الحكومي. وبعبارة أخرى، أراد الناس أن تتراوح نسبة الإعانة الأجنبية «المُستقطعة» بين خمسة وعشرة أضعاف المبلغ الذي تتبرّع به الولايات المتحدة بالفعل!

بعض آخر من الناس على قناعة بأن هذه الأرقام الخاصة بالإعانة الرسمية مضللة؛ لأن أمريكا تمنح أكثر جدًّا مما تمنحه الدول الأخرى في شكل إعانة غير حكومية. ولكن على الرغم من أن الولايات المتحدة تمنح معونات غير حكومية أكثر مما تمنحه الدول الغنية، فإنه حتى ما تقدمه كمنح غير حكومية يأتي متقدمًا على المنح التي تقدمها أستراليا وكندا وأيرلندا وسويسرا كنسبة من الدخل القومي، ويأتي على قدم المساواة مع المنح التي يقدمها الناس في بلجيكا ونيوزيلندا. وإذا أضفنا إعانة الولايات المتحدة غير الحكومية -بنسبة 7% من كل 100 دولار مكتسب- إلى إعانة الولايات المتحدة الحكومية، فإن مجمل إسهام الإعانة الأمريكية لن يزيد على 25 سنتًا من كل 100 دولار مكتسبة، وهي نسبة تظل في أدنى مستويات الإعانة الدولية[1].

الاستجابات الخيرية تقوّض التغيير السياسي الواقعي

إذا كان هؤلاء المنتمون إلى معسكر اليمين يخشون من أنني بذلك أشجع الدولة على أن تستولي على أموالهم وتمنحها لفقراء العالم، فإن المنتمين إلى معسكر اليسار يأسفون على أن تشجيع الأغنياء على التبرُّع لمنظمات الإغاثة يعمل على تسكين ضمائرهم، بينما هم يواصلون الانتفاع من النظام الاقتصادي العالمي الذي يجعلهم أغنياء ويُبقي البلايين فقراء[2]. الإحسان -فيما يرى الفيلسوف بول كومبرج Paul Comberg- يشجع على «التخلّي السياسي» محولًا الانتباه عن الأسباب المؤسساتية للفقر -وهي

(1) Organization for Economic Co-operation and Development (OECD), Statistical Annex of the 2007 Development Co-operation Report, www.oced.org/dataoecd/52/9/1893143.xls.Table 7e. وإذا قبلنا التقدير الأعلى للإحسان غير الحكومي من جانب الولايات المتحدة الوارد في فهرس معهد هدسون للإحسان العالمي، فإن إسهام مجمل المعونة الأمريكية يرتفع إلى 0.42%، وهي نسبة تعد أكثر جدارة بالتقدير، ولكنها تظل أدنى قليلًا من متوسط جهود الدولة في المعونة الرسمية. وعلى ذلك فإن أرقام فهرس الإحسان العالمي ليست صالحة للمقارنات الدولية، حيث إنها تفتقر إلى أرقام يتم إحصاؤها على أساس متماثل بالنسبة إلى معظم الدول الأخرى.

(2) See for example, Antony Langlois, «Charity and Justice in the Singer Solution,» in Raymond Younis (ed) *On the Ethical Life* (Newcastle upon Tyne: Cambridge Scholars, forthcoming); Paul Comberg, The Fallacy of Philanthropy 32:1 (2002), pp. 29-66.

الرأسمالية من وجهة نظره- وعن الحاجة إلى إيجاد بدائل أخرى جذرية، إلى الانتباه لهذه المؤسسات نفسها[1].

على الرغم من أنني أؤمن بأنه ينبغي أن نتبرّع بنسبة أكبر من دخلنا للمنظمات التي تكافح الفقر، فإنني على استعداد لتقبل أفضل الوسائل لمكافحة الفقر[2]. بعض وكالات الإغاثة -على سبيل المثال: «أوكسفام»Oxfam- تنشغل بالإغاثة الطارئة، **وأيضًا** بالدفاع عن نظام اقتصادي عالمي أكثر عدلًا. وإذا كُنتَ -بعد فحص أسباب الفقر العالمي والاعتداد بالاتجاه الذي من الأرجح أن يعمل على تقليل هذا الفقر- تعتقد حقًّا بأنّ هناك احتياجًا لتغيير أكثر ثوريةً؛ فسوف يكون من الصواب إذًا أن تسهم بوقتك وجهدك ومالك في المنظمات التي تشجّع على تلك الثورة في النظام الاقتصادي العالمي. ولكنّ هذا سؤالٌ عملي؛ وإذا كانت هناك فرصة ضئيلة لتحقيق نوع الثورة التي تبحث عنها، فإنك إذًا تحتاج إلى أن تنظر حولك لتجد استراتيجية يُنتظَر منها تقديم مساعدة فعلية لبعض الناس الفقراء.

التبرُّع للناس بالمال أم الاعتماد على المعونات الغذائية

إنني أوافق على أنه لا ينبغي منح المال أو الغذاء مباشرةً للفقراء، إلا في الحالات الطارئة مثل: الجفاف والزلزال والفيضان، حيث إن جلب الغذاء قد يكون مطلوبًا لإيقاف التضور جوعًا على المدى القصير. وفي الأوضاع التي تكون فيها الحاجة الماسة أقل إلحاحًا، يمكن للتزويد بالغذاء أن يجعل الناس اتكاليين. وإذا كان الغذاء مشحونًا من دولة متقدمة، كالولايات المتحدة على سبيل المثال؛ فإن هذا يمكن أن يدمر الأسواق المحلية ويقلل من محفزات المزارعين المحليين لإنتاج فائض من الغذاء بغرض بيعه. إننا في حاجة إلى أن نتيح للناس إمكانية كسب أرزاقهم، أو إنتاج غذائهم والوفاء باحتياجاتهم الأخرى بطريقة مستدامة ومن خلال عملهم الخاص. منحهم المال أو الغذاء لن يحقق ذلك. إن إيجاد شكل من الإعانة يساعد الناس بالفعل هو أمر حاسم، وليس مهمة بسيطة، ولكن يمكننا تحقيقها، كما سنرى:

(1) Comberg, *op.cit.*, pp.30, 63-64.

(2) See Andy Lamey's response to Antony Langlois's paper in the volume referred to in n. 17, above.

الأموال النقدية هي بذور غلة الرأسمالية، ومنحها سوف يقلل من النمو المستقبلي.

جايتانو سيبريانو Gaetano Cipriano اختزل رؤيتي بعد قراءته لأحد مقالاتي؛ لأنه باعتباره رأسماليًا مقاولًا رأى أنه بمقدوره أن يقدم رؤية نافعة. هذا الحفيد للمهاجرين لأمريكا، يمتلك ويُدير مؤسسة El Associates، وهي شركة في الهندسة والإنشاءات تتخذ مقرها الرئيس في سيدَر نولز Cedar Knolls بنيوجيرسي، ولها أصول تبلغ حوالي 80 مليون دولار. العبارة التي تُنسب إليه هي: «الأموال النقدية هي بذور غلة الرأسمالية». لقد أخبرني جايتانو قائلًا: إنه يوظف رأسماله بأقصى قدراته من أجل تعظيم الفوائد والتنمية المستدامة؛ ولذلك فإن تبرعي بالمزيد من هذا المال هو بمثابة «قطع لرقبتي». ولكنه لا ينفق المال بإسراف. فقد قال لي: «إنني لا أعيش في منزل فخم». «ليس لديّ منزل آخر». «أنا أقود سيارة من طراز فورد إكسبلورر موديل 2001 بلغ عداد سيرها 73,000 ميل. وأنا عضو في نادي إسكواش لطيف، ولديّ أربع بذلات وحذاءان سوداوان. وعندما أقوم بعطلات للترفيه، فإنها تكون عطلات قصيرة ومحلية. ليس لديّ قارب أو طائرة». وفي حين أنه يقدم الإحسان، فإنه يفعل ذلك «بدرجة من الحرص وبما يتوافق مع التنمية المستدامة». فلو كان ينبغي التبرُّع بالكثير جدًّا من المال، فإن هذا المال ينبغي أن يأتي من مبالغ يعيد الآن استثمارها في أعماله. فذلك التبرُّع سيقلّص بدوره من متحصلاته المالية، وربما من عدد الناس الذين يستطيع توظيفهم، ومن القدر الجيد الذي يمكن به دفع رواتبهم. وذلك التبرُّع بالمال سوف يترك له مقدارًا أقل للتبرع، إذا ما قرر -في حياته القادمة- أن يتبرّع بالمزيد من المال.

ولأسباب مشابهة، يمكننا أن نوافق على القول بأنه من الجيد أن وارين بافيت Warren Buffett لم يتبرّع بالمليون دولار الأول الذي كسبه. ولو أنّه فعل ذلك، لَمّا كان لديه استثمار لرأس المال الذي احتاج إليه لكي يطور أعماله، ولَمّا كان قادرًا أبدًا على أن يمنح المبلغ الذي تعهد بدفعه والذي تصل قيمته إلى 31 بليون دولار. ولو كُنتَ ماهرًا مثل بافيت في استثمار مالِكَ، فإنني أحثّك أيضًا على الحفاظ على هذا المال حتى فترة متأخرة من حياتك، وبعدئذ تبرّع بمعظمه مثلما فعل هو. ولكن الناس الذين لديهم قدرات أقل على الاستثمار الرائع قد يكون من الأفضل لهم التبرُّع بالمال بشكل عاجل.

لقد كان كلود روزنبرج Claude Rosenberg -الذي تُوفِّي سنة 2008- مؤسسًا ورئيسًا لشركة RCM Capital Management، وهي شركة تنظيمية لإدارة المال؛ وبذلك فإنه عرف شيئًا ما عن الاستثمار، ولكنه عرف أيضًا الكثير عن الإحسان. وهو قد أسس جماعة تُسمى «جماعة الغُشارية الجديدة» New Tithing[1]، وألَّف كتابًا بعنوان **«ثري وحكيم: كيف يمكنك ويمكن لأمريكا الحصول على أقصى ما يمكن من مقدار تبرعك»** *Wealthy and Wise: How You and America Can Get the Most Out of Your Giving*. وهو يبرهن على أن تبرعك الآن يكون غالبًا أكثر قيمة من استثمارك لمالِكَ وتبرعك به فيما بعد؛ لأن المشكلات الاجتماعية الأطول أمدًا تبقى بلا مراجعة، ومن ثم تزداد سوءًا. وبعبارة أخرى يمكن القول: تمامًا مثلما أن رأس المال يزداد حينما يُستثمَر، كذلك فإن التكاليف المترتبة على تثبيت المشكلات الاجتماعية تزداد. ووفقًا لرؤية روزنبرج، فإن المعدل الذي تزداد عنده تكلفة ازدياد تثبيت المشكلات الاجتماعية يكون «أكبر من حيث أسّه الحسابي» من معدل عائد رأس المال[2]. ودعمًا لهذا المعتقد أشار روزنبرج إلى تأثير متتابع للفقر والمشكلات الاجتماعية الأخرى، لا فحسب على شخص واحد، وإنما على الأجيال المستقبلية والمجتمع على اتساعه. هذا الادعاء واسع للغاية، ومن الصعب إثباته أو دحضه، ولكنه إذا كان يصدق على الفقر في الولايات المتحدة، فإنه من الأرجح أن يصدق على الفقر في البلدان النامية؛ وهذا يرجع في بعض منه إلى أنّه يكون من الأسهل الحصول على نسبة مرتفعة من العائد عندما نبدأ من أساس منخفض التكاليف. وبطبيعة الحال، فإن هذا يفترض أن هناك أشياء يمكن أن نفعلها في الدول النامية سيكون لها تأثيرٌ على تقليل الفقر.

ماذا يحدث لو أنك أخذتَ كل بنس قد تحصّلتَ عليه في أي وقت وتبرعتَ به لفقراء إفريقيا...؟ ما سنحصل عليه عندئذ هو أنه لن يكون هناك أي اقتصاد، ولا أي قدرة على تكوين ثروة جديدة أو مساعدة أي شخص.

هذا الاعتراض يثيره كولين ماكين Colin McGinn، وهو أستاذ في الفلسفة بجامعة ميامي[3]. وليس من الواضح إذا كان ما يقصده ماكين بالمخاطب «أنتَ» هو أنتَ، أي القارئ الفرد، أو الجماعة التي يشير إليها الأمريكي الجنوبي

(1) الغُشارية دائرة مدنية صغيرة في النظام الإنجليزي القديم تتألف من عشرة من ربات البيوت، تفرض دفع عشر الغلة أو المال كزكاة للكنيسة. [المترجم]

(2) Claude Rosenberg and Tim Stone, «A New Take on Thinking,» *Stanford Social Innovation Review*, Fall 2006, pp. 22-29.

(3) Colin McGinn, as quoted by Michael Specter in «The Dangerous Philosopher, «*The New Yorker*, September 6, 1999.

بعبارة «أنتم جميعًا». فلو أنك [أدرجت اسمك كفرد] وأخذت كل بنس تحصلتَ عليه في أي وقت وتبرعتَ به لفقراء إفريقيا؛ فإن ناتجنا القومي لن يرصد ذلك. وحتى إذا فعل ذلك كل قارئ لهذا الكتاب؛ فإن اقتصادنا بالكاد سوف يرصد ذلك (إلا إذا تجاوزَت مبيعات هذا الكتاب أوسع أحلامي). ولو أنَّ **كلّ فرد** في أمريكا فعل ذلك؛ فإن الاقتصاد القومي سوف يصبح مُفلِسًا. ولكن -في اللحظة الراهنة- ليس هناك أي سبب يدعو للقلق بشأن الاحتمال الأخير؛ فليس هناك أية أمارة على حدوثه، وأنا لا أدعو إلى ذلك.

لأنّ القليل جدًّا من الناس هم الذين يتبرعون بمبالغ مالية معتبرة؛ فإن الحاجة إلى التبرُّع بالمزيد تكون كبيرة؛ وكلما ازداد ما يتبرّع به كل فرد منا، ازداد عدد الحيوات التي يمكننا إنقاذها. ومع ذلك، فإذا تبرّع كل فرد بمبالغ أكبر بشكل معتبر مما يتبرّع به الآن؛ فإننا سنكون في وضع مختلف تمامًا. إن الهوّة الواسعة بين الأغنياء والفقراء تعني أنه لو كان كل فرد يقوم بالتبرع، فلن تكون هناك حاجة بهم لأن يأخذوا كل بنس تحصلوا عليه في أي وقت ويتبرعوا بذلك كله لإفريقيا. وكما سترى قبل نهاية هذا الكتاب أن المساهمة المتواضعة للغاية من جانب كل فرد يكون لديه ما يكفي لكي يعيش بشكل مريح، ويتناول الغذاء خارج المنزل بين حين وآخر، ويشتري مياه معبأة، هي مساهمة سوف تكفي لرفع معظم الناس الفقراء فقرًا مُدقِعًا فوق خط الفقر الذي يبلغ 1.25 دولار في اليوم. إذا ما تم منح هذه المساهمة المتواضعة، فلن نصبح في ذلك الوضع الذي يموت فيه 10 ملايين طفل سنويًّا بسبب الفقر. وهكذا فإنّه سواء كان عددٌ ضئيلٌ من الناس يتبرّع بالكثير، أو كان عددٌ كبيرٌ من الناس يتبرّع بالقليل، فإن إنهاء المدى الواسع للفقر المُدقِع لن يؤدّي إلى عجز اقتصادنا القوميّ. بل إنّ ذلك سيتيح مجالًا واسعًا لنشاط المقاولين وللثروة الفردية. وعلى المدى الطويل، فإنّ الاقتصاد العالمي سوف يرتقي بدلًا من أن يتضاءل، بإدخال 1.4 بليون من الناس في هذا الاقتصاد هُم الآن خارجه، وخلق أسواق جديدة وفرص جديدة للتجارة والاستثمار.

الناس بالفعل لديهم صلات خاصة بعائلاتهم، وبمجتمعاتهم، وبلدانهم. هذه مواصفات قياسية للإنسانية ولمعظم الناس، وعبر كل التاريخ البشري لم تُوجَد أي غضاضة في ذلك[1].

-Alan Rayan, philosopher and Warden of New College, Oxford

(1) Alan Ryan, as quoted by Michael Specter in «The Dangerous Philosopher,» *The New Yorker*, September 6, 1999.

حقًّا إن معظمنا لدينا اهتمام بعائلتنا وأصدقائنا أكثر من اهتمامنا بالغرباء عنّا. ولكن إلى أي مدى ينبغي أن يكون تفضيلنا للعائلة والأصدقاء بدلًا من تفضيلنا للغرباء؟ هذا أمر طبيعي، وليس هناك أية غضاضة عليه. ولكن إلى أي مدى ينبغي أن يكون تفضيلنا للعائلة والأصدقاء؟ لقد اعتقد بريندان Brendan -وهو طالب في مدرسة «جلين-فيو» العُليا- أنه بدلًا من تقديم الإعانة للفقراء، فإنه «يمكن إنفاق المال لمساعدة عائلتك وأصدقائك الذين يحتاجون إلى المال أيضًا». فإذا كانت العائلة والأصدقاء **يحتاجون** حقًّا إلى المال؛ فإنه فيما يتعلّق بأي شيء يكون بعيدًا عنك، من قبيل حالة احتياج أولئك الذين يعيشون بعيدًا في فقرٍ مُدقِع؛ سيكون من الشطط المنافي للمَيل الفطري للطبيعة البشرية الاعتراض على التبرّع بالمال لهؤلاء قبل التبرّع به للغرباء. ومن حُسن الحظ أنّ معظم الناس الذين ينتمون للطبقة الوسطى في الدول الغنية ليسوا مُضطرّين إلى هذا الخيار. فهم يمكن أن يعتنوا بعائلاتهم بطريقة كافية تمامًا بقدرٍ من المال أقلّ كثيرًا مما ينفقون، وبذلك يكون لديهم قدر فائض من المال يمكن استخدامه في مساعدة أولئك الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع. ومن المسلَّم به أن القول بأنّه ينبغي إيجاد توازن، هو مسألة صعبة. وسوف أعود إلى تلك المسألة فيما بعد في هذا الكتاب.

لقد أثار كيرنان Kiernan -وهو طالب آخر في مدرسة «جلين-فيو»- رأيًا شبيهًا برأي آلان رايان:

[التبرُّع للفقراء بما لسنا بحاجة إليه] سيجعل العالم أفضل، وسيجعله مكانًا أكثر مساواة. ولكن هذا المسلك أشبه بمسلك صبيّ صغير إذ يشتري سلة من الحلوى، فيحتفظ بقطعة واحدة لنفسه، ويمنح البقية. وهذا بالضبط هو ما لا يحدث.

القضية التي تثيرها كل هذه الملاحظات هي الصلة بين ما نكون عليه (غالبًا) كموجودات بشرية، وما **ينبغي** أن نفعله. يتبدّى ذلك عندما كتب الطالب بريندَن أوجرادي Brendan O'Grady -وهو طالب فلسفة في جامعة كوين بأونتاريو- رأيه على شبكة المعلومات حول هذه المسألة؛ وقد عقَّب عليه طالب فلسفة كندي آخر هو توماس سيمونز Thomas Simmons على النحو التالي:

> إنني بالتأكيد لا أريد للناس أن يموتوا، ولكني فقط أشعر أنني غير مرتبط بهم. وليس لديّ أدنى شكّ في أنني إذا قمت برحلة

إلى الأماكن التي يتضوّر فيها الناس جوعًا، فإنني عندئذ قد أفكّر بطريقة مختلفة؛ ولكن في ظل الوضع الحالي فإنهم على مسافة بعيدة عني للغاية. وأنا بعدم مساهمتي في هذه التبرعات، فإنني بذلك أُعلي من شأن الوفرة في حياتي الخاصة على إمداد آخرين كثيرين باحتياجاتهم الأساسية. وأنا أظنّ أنني بذلك أفعل الصواب. فهل أنا بفعلي هذا شخص لا أخلاقي؟ ربما[1].

عندما يشكك أوجرادي في ذلك الموقف، أوضح سيمونز موقفه قائلًا: «أنا لا أهدف إلى تقديم دفاع أخلاقي، وإنما بخلاف ذلك أهدف فقط إلى الكشف عن مشاعري الشخصية، أي أن أبيّن فقط كيف أشعر». إن التمييز بين وصف النحو الذي تكون عليه الأمور والقول بما ينبغي أن تكون عليه، هو تمييز ينطبق أيضًا على ما يقوله كيرنان وآلان ريان. وكون أننا نميل إلى تفضيل عائلاتنا ومجتمعاتنا وبلداننا قد يفسّر لنا إخفاقنا في إنقاذ حيوات الفقراء الذين يكونون خارج هذه الحدود؛ ولكنه لا يُبرّر هذا الإخفاق من منظور أخلاقيّ ما، بصرف النظر عن أن العديد من أجيال أسلافنا لم ترَ في ذلك أيّة غضاضة. ومع ذلك، فإن التفسير الجيد للسبب في أننا نتصرف على النحو الذي نفعله، يُعدُّ خطوة أولى مهمة نحو فهم المدى الذي يمكن أن يبلغه التغيير في تصرفنا.

(1) http://muzaandptatoes.co/2008/02/peter-singer-on-affluence.html.

الطبيعة البشرية

4- لماذا لا نتبرّع بالمزيد؟

سيكون العالم مكانًا أسهل كثيرًا إذا استطاع المرء إحداث تغيير اجتماعيٍّ من خلال إقامة برهان أخلاقي متسق منطقيًا. ولكن من الواضح أن الناس الذين يعتقدون في أنهم ينبغي أن يمنحوا المزيد لا يفعلون دائمًا ذلك. لقد تعلّمنا الكثير، في العقود الماضية، عن العوامل السيكولوجية التي تجعل الناس يتصرفون بطرق متنوعة. ولقد حان الوقت لتطبيق شيء من هذه المعرفة على قضيّتنا: لماذا لا يتبرّع الناس بأكثر مما يفعلون، وما الذي يمكن أن يجعلَهم يتبرعون بالمزيد.

إذا كانت الحياة اليومية لم تقنعك من قبل بأنّ هناك ميلًا إنسانيًا لتفضيل مصالحنا الخاصة، فإنّ علماء النفس قد أجروا تجارب لإثبات ذلك. وعلى سبيل المثال قام دانيال بارسون Daniel Barson وإليزابيث تومسون Elizabeth Thomson بتكليف المشاركين بمهام يُخصصونها لأنفسهم ولطالب آخر لم يكن حاضرًا. إحدى هذه المهام وُصِفَت بأنها شيقة نسبيًّا وتنطوي على فائدة مهمة، بينما وُصفت المهام الأخرى بأنّها مملة وليس فيها أية فائدة. وقد أُخبِر المشاركون أيضًا بأنّ: «معظم المشاركين يشعرون بأنّ مَنح شخصين فرصةً متساويةً -من خلال طس العملة النقدية على سبيل المثال- هو الأسلوب الأكثر عدالة في تخصيص المهام لهم وللمشارك الآخر. تم تجهيز عملة نقدية لهذا الغرض. لا أحد سوى المشارك في التجربة أمكنه أن يرى الكيفية التي بها تسقط العملة. وعند لقاء المشاركين بعد أداء المهمة، قال جميعهم بأنّ الاستجابة الأكثر أخلاقية لتخصيص المهام كانت تتمثل إما في طس العملة النقدية أو تخصيص المهمة الأكثر فائدة للمشارك الآخر. ومع ذلك، فإن حوالي نصف المشاركين اختاروا عدم طس العملة، ومنهم من لم يستخدم العملة، وأكثر من 80% منهم خصصوا لأنفسهم المهمة الأكثر فائدة. ولكن من اللافت للنظر بشكل أكبر هو أنه في 85% من مرات طس العملة، سقطت العملة على الجانب الذي يخصص المهمة الأكثر فائدة بالنسبة إلى الشخص الذي قام بطس العملة![1]

ومع ذلك، فإننا غالبًا ما نفعل أشياء ودودة وكريمة. إن الخدمات الطبية في الدول الأكثر تقدمًا تعتمد في إمدادها بالدماء على نزعة الإيثار لدى مواطنيها العاديين الذين يتبرعون بدمائهم للغرباء. إنهم يعطون من وقتهم

(1) C. Daniel Batson and Elizabeth Thomson, «Why Don't Moral People Act Morally? Motivational Considerations,» *Current Directions in Psychological Science* 10:2 (2001), pp. 54057.

ويذهبون لكي يخوضوا تجربة غرس إبرة في وريدهم -وهي تجربة مقلقة بالنسبة إلى الكثيرين- لا فائدة مِن ورائِها سوى فنجان قهوة أو شاي لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر. وهم حتى لن تكون لهم أية أسبقية إذا ما احتاجوا هم أنفسهم للدماء. وعندما يقول الناس دون أدنى تردد بأنهم سوف ينقذون الطفل الذي يغرق، فإنهم على الأرجح يقولون الحقيقة. وإذًا لماذا لا نُنقذ الأطفال في الدول النامية، إذا كانت تكلفة فعل ذلك متواضعةً؟ وبشكل يتجاوز المعركة البسيطة بين الأنانية والإيثار، فإنّ هناك عوامل سيكولوجية أخرى تُمارس فعلها هنا، وسوف أصف في هذا الفصل ستةً من أهم هذه العوامل.

الضحية التي يُمكن تحديد هُويَّتِها

الباحثون يسعون إلى اكتشاف تأثيرات المبالغ السخية التي تم منحها للمشاركين في تجربة سيكولوجية، ويتيحون لهم بعدئذ الخيار في أن يتبرعوا بشيء من مالهم من أجل مؤسسة «أنقذ الأطفال» Save the Children، وهي مؤسسة تساعد الأطفال الفقراء في الولايات المتحدة والدول النامية على السواء. تم تزويد إحدى المجموعتين في التجربة بمعلومات عامة عن الحاجة إلى التبرع، بما في ذلك بيانات من قبيل أن «نقص الغذاء في مالاوي يؤثر في أكثر من ثلاثة ملايين طفل». أما المجموعة الثانية، فقد عُرِض عليها صورة لفتاة مالاوية تبلغ سبع سنوات وتُدعى روكيا Rokia، وقيل لهذه المجموعة، إن روكيا فقيرة فقرًا لا مناص منه، وأن «حياتها سوف تتغير إلى الأفضل من خلال تبرعك لها».

المجموعة التي كانت تتلقى معلومات عن روكيا قدّمت تبرعًا أكبر بشكل معتبر عن المجموعة التي كانت تتلقّى معلومات عامة فقط. وبعد ذلك، تم تزويد مجموعة ثالثة بالمعلومات العامة وبالصورة والمعلومات المتعلقة بروكيا. وقد قدّمت تلك المجموعة تبرّعًا أكبر من العطاء الذي قدّمته المجموعة التي تلقت معلومات عامة **فقط**، وإن ظلّ أقل من تبرّع المجموعة التي تلقَّت **فقط** معلومات عن روكيا[1]. وواقع الأمر أنه حتى إضافة طفل ثانٍ محدد الهوية إلى

(1) D. A. Small, G. Loewethstein, and P. Slovic, «Sympathy and Callousness: The Impact of Deliberative Thought on Donations to Identifiable and Statistical Victims,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 102 (2007), pp. 143-53, Paul Slovic, «If I Look at the Mass I will Never Act: Psychic Numbering and Genocide,» *Judgment and Decision Making* 2:2 (2007), pp. 79-95.

وأنا أعزو الإحالات في هذه الفقرة إلى هذا المقال. والبحث بوجه عام يدعم ما ذهب إليه بيتر يونجر Peter Unger في كتابه:

المعلومات المتعلقة بروكيا -في الوقت الذي لم يتم فيه تقديم أية معلومات عامة- قد أدّى إلى معدل من التبرُّع أدنى من معدل التبرُّع في حالة ذِكر طفل واحد. وقد أبدى الخاضعون للتجربة مشاعر أكثر قوة حينما رُويَ لهم عن طفل واحد من المشاعر التي أبدوها حينما رُويَ لهم عن طفلين[1].

وهناك دراسة أخرى أفضت إلى نتيجة مماثلة. فقد أخبرت الدراسة مجموعة من الناس أن هناك طفلًا يحتاج إنقاذ حياته إلى علاج طبي يتكلّف 300,000 دولار. وأخبرت الدراسة مجموعة ثانية أن هناك ثمانية أطفال سيموتون ما لم يُقدَّم لهم علاجٌ يمكن توفيره لهم جميعًا بتكلفة قدرها 300,000 دولار. مرة أخرى نجد هنا أن المجموعة التي رُويَ لها عن حالة الطفل الواحد قدّمت تبرعًا أكبر[2].

هذا «التأثير الخاص بالضحية التي يمكن تحديد هويتها» يؤدي إلى «قاعدة الإنقاذ» التالية: إننا سوف ننفق من المال لإنقاذ ضحية محددة الهوية أكثر كثيرًا مما سوف ننفقه من أجل إنقاذ «حياة إحصائية». تأمل حالة جيسيكا ماكلور Jessica McClure التي كان عمرها ثمانيَة عشر شهرًا سنة 1987 عندما سقطت في بئرٍ جافة في مدينة ميدلاند بولاية تكساس. وبينما كان رجال الإنقاذ يعملون لمدة يومين ونصف اليوم، كانت شبكة CNN تبثّ صور الإنقاذ لملايين المشاهدين حول العالم. أرسل المتبرعون الكثير جدًّا من المال، حتى إنّ جيسيكا الآن تمتلك ما قيل إن قيمته تبلغ مليون دولار كوديعة ائتمانية[3]. وفي موضع آخر من العالَم، الذي لا تلتفت إليه وسائط المعلومات ولا يُساعده المال الذي تم التبرُّع به لجيسيكا، توفي حوالي 67,000 طفل لأسباب مرتبطة بالفقر الذي لا يمكن اجتنابه في غضون ذينك اليومين ونصف اليوم، وفقًا لتقرير منظمة «يونيسف» UNICEF. ومع ذلك، فقد كان من الواضح بالنسبة إلى كل

من القول (New York: Oxford University Press, 1996, pp. 28-29, 77-79) *Living High and Letting Die*
بأن حدوسنا يتم تحريفها من خلال التركيز على ضحية واحدة محددة الهوية، ونحن على الضد من ذلك نكون ميالين إلى
«التفكير عديم الجدوى» في الحالات التي يمكن لنا فيها -على أفضل تقدير- إنقاذ قليل من الآلاف العديدة من الضحايا.

(1) D. Västfjäll, E. Peters, and P. Slovic, «Representation, Affect, and Willingness-to-Donate to Children in Need,» Unpublished manuscript in preparation.

(2) See T. Kogut and I. Ritov, «An Identified Group, or Just a Single Individual?» *Journal of Behavioral Decision Making* 18 (2005), pp. 157-67; and T. Kogut and I. Ritov, «The Singularity of Identified Victims in Separate and Joint Evaluations,» *Organizational Behavior and Human Decision Process* 97 (2005), pp. 106-116.

(3) Mark Babineck, «Jessica' Family Stays Low-Key Ten Year After Water Well Drama,» *Tex News*, October 14, 1997, www.texnews.com/texas97/jess101497.html; Mike Celizic, «Where Is Jessica McClure Now? *Today*», MSNBC, June 11, 2007, www.msnbc.msn.com/id/19104012/.

شخص مهتم بالموضوع أن جيسيكا يجب إنقاذها بصرف النظر عن التكلفة. وبالمثل، فإننا لا نتخلّى عن عمال المناجم المحتجزين أو البحارة المفقودين، على الرغم من أنّنا يمكننا إنقاذ حيوات أكثر بتوظيف المال المنفق في مثل هذه المحاولات من الإنقاذ التي تعمل على جعل التقاطعات الخطرة آمنة. وعلى النحو ذاته، فإننا حينما نقوم بتوفير الرعاية الصحية، فإنّنا سوف نُنفق من المال محاولين إنقاذ مريض محدد -غالبًا من دون جدوى- أكثر جدًّا مما ننفقه لدعم المعايير الطبية الوقائية التي سوف تنقذ أناسًا عديدين من أن يُصبحوا مرضى[1].

الشخص الـذي يمكن تحديد هويته يؤثـر في مشاعرنا بطريقة لا تحدث من خلال المعلومات الأكثر تجريدًا. لكن هذه الظاهرة لا تتطلّب حتى تفاصيل جزئية عن الشخص. لقد طلب الباحثون من الناس أن يتبرعوا لمؤسسة «بيئة طبيعية للإنسان» Habitat for Humanity، من أجل توفير مَسكن لعائلة محتاجة، وقد أخبروهم من خلال الطلب إمّا بأنّ «العائلة تم اختيارها» وإمّا أن العائلة «سوف يتم اختيارها». وفي كل التفاصيل الأخـرى، كانت صياغة الطلب متماثلة في الحالتين. وفي كلتا الحالتين لم يتم إخبار المشاركين في الإجابة بأي معلومة عن المكان الذي توجد فيه هذه العائلة، ولا عن المكان الذي سوف تكون فيه، ولم يتم تزويدهم بأية معلومات أخرى عن العائلة. ومع ذلك، فإنّ المجموعة المشاركة في الاستبيان أظهرت أنّها تبرعت بمبلغ أكبر بشكل ضخم للعائلة التي تم اختيارها[2].

يعتقد بول سلوفيك Paul Slovic -وهو باحث رائد في هذا المجال- أنّ الشخص الذي يمكن تحديد هُويّته، أو حتى الذي يكون مُحدَّدًا مُسبقًا، يؤثّر فينا بشكلٍ بالغ لأنّنا نقوم بعمليتين متباينتين من أجل إدراك الواقع واتخاذ القرار بشأن ما نفعله: إمّا من خلال الجهاز الوجداني وإمّا الجهاز الخاص بالتفكير المُتدبّر[3]. الجهاز الوجداني يتخذ أساسه في استجاباتنا

(1) For discussion, see D. C. Hadorn, «The Oregon Priority-Setting Exercise: Cost-effectiveness and the Rule of Rescue, Revisited,' *Medical Decision Making* 16 (1996). Pp. 117-19; J. McKie and J. Richardson, «The Rule of Rescue,» *Social Science and Medicine* 56 (2003), pp. 2409-19.

(2) D. A. Small, and G. Loewenstein «Helping the Victim or Helping a Victim: Altruism and Identifiability,» *Journal of Risk and Uncertanity*, 26:1 (2003), pp. 5-16.

(3) Adapted from Paul Slovic, who has in turn adapted it from Seymour Epstein, «Integration of the Cognitive and the Psychodynamic Unconscious», *American Psychologist* 49 (1994), pp. 709-24. Slovic refers to the two systems as «experiential» and «analytic».

الانفعالية. إنَّه يعمل باستخدام الصور، سواء كانت واقعية أو مجازية، وباستخدام الحكايات، ويقوم بمعالجتها بسرعة لتوليد شعور حدسي بأنَّ شيئًا ما يكون صوابًا أو خطأً، جيّدًا أو سيئًا. ذلك الشعور يؤدي إلى فعل مباشر. أمَّا الجهاز الخاص بالتفكير المتدبّر فهو مُستمَدٌّ من قدراتنا على إعمال عقولنا بدلًا من مشاعرنا، وهو يتعامل مع الكلمات والأرقام والأفكار المجردة بدلًا من الصور والحكايات. وهذه العمليات هي عمليات مجردة، وهي تتطلّب منّا تقديرًا لأهمية المنطق والدليل. ونتيجةً لذلك، فإن جهاز التفكير المتدبر يستغرق وقتًا أطول قليلًا من الجهاز الوجداني، ولا ينشأ عنه ذلك النوع من السلوك المباشر.

الفرد الذي يكون في حالة احتياج يحرك مشاعرنا بقوة. وهذا يعني أن جهازنا الوجداني يقوم بعمله. لقد عبرت الأم تريزا Mother Teresa عن هذا حينما قالت: «إذا نظرت إلى الجماهير، لن أفعل شيئًا أبدًا. أمّا إذا نظرت إلى الشخص الواحد، فسوف أفعل»[1]. وإذا تريثنا قليلاً لنفكر في هذا القول، لعَلِمنا أن «الجماهير» تتألف من أفراد، لكل منها حاجات مُلِحَّة بالنسبة إلى كل منها مثلما هي بالنسبة «للفرد الواحد»، وعقلنا يقول لنا إنّه أفضل أن نسعى إلى مساعدة ذلك الفرد **زيادةً على** فرد إضافي من مساعدتنا لذلك الفرد الواحد، بل إنه أفضل أن نساعد هذين الفردين الاثنين **زيادة على** فرد ثالث، وهكذا. إننا نعرف أن جهازنا الخاص بالتفكير المتدبر على صواب، ومع ذلك فإن هذه المعرفة بالنسبة إلى الأم تريزا وكذلك بالنسبة إلى آخرين كثيرين، تفتقر إلى تأثير شيء ما يُحرّك مشاعرنا بقوة على النحو نفسه الذي يُحدِثه فينا احتياج شخص بمفرده.

وهناك دليل إضافي على تباين أساليب عمل هذين الجهازين يأتينا من تجارب أكثر تعقيدًا إلى حدٍّ ما، أجراها الفريق البحثي نفسه الذي أجرى التجارب التي تقارن استجابات الناس الذين قدمت لهم معلومات عن «روكيا» بأولئك الذين قُدّمت لهم معلوماتٌ أكثر عمومية. وفي هذه المرة كان الباحثون يفحصون إذا ما كان إثارة المشاعر لدى الذوات التي أُجري عليها البحث يؤدي بهم إلى أن يستجيبوا بطريقة مختلفة لنوعي المعلومات المقدّمة. ومرة أخرى، نجد أن كل المشاركين قد أكملوا استطلاعًا قياسيًّا، وبعدئذ تم اختيار مجموعة واحدة بطريقة عشوائية وإعطاؤها أسئلة محايدة من الناحية الشعورية (ألغاز حسابية على سبيل المثال)،

(1) Quoted, but without further attribution, in Paul Slovic, «If I look at the Mass I will never act: Psychic Numbing and Genocide,» *Judgment and Decision Making* 2:2 (2007), pp. 79-95.

بينما أُعطيَت المجموعة الأخرى أسئلة مصممة لكي تثير مشاعرهم (من قبيل: «عندما تسمع كلمة «رضيع» بماذا تشعر؟»). وإذًا فإن كل فرد قد مُنِح الفرصة لكي يتبرّع ببعض ما يتبرّع به في التجربة من أجل الإحسان، ولكن بالنسبة إلى نصف كل مجموعة كانت المعلومات المقدمة تشمل روكيا فقط، بينما النصف الآخر كانت المعلومات المقدمة لهم هي المعلومات الأكثر عمومية عن الناس المحتاجين. أولئك الذين أجابوا عن الأسئلة المثيرة للمشاعر وتلقوا معلومات عن روكيا، قد تبرعوا تقريبًا بضعف المبلغ الذي تبرّع به أولئك الذين تلقّوا المعلومات نفسها ولكنهم قد أجابوا عن الأسئلة المحايدة من الناحية الشعورية. ولكنّ المبلَغ الذي تبرّع به أولئك الذين تلقّوا المعلومات العامّة لم يتأثّر بشكل محسوس بالأسئلة التي أجابوا عنها. إنّ استجابتنا للصور والحكايات -ومن ثَمّ للضحايا التي يمكن تحديد هُويّتها- تكون معتمدةً على مشاعرنا، ولكن استجابتنا لوقائع أكثر تجريدًا -يتم توصيلها من خلال كلمات وأرقام- تبقى متماثلةً إلى حدٍّ كبير مهما كانت حالة مشاعرنا[1].

محدودية الأفق

منذ مائتين وخمسين سنة، دعا الفيلسوف وعالم الاقتصاد آدم سميث Adam Smith قُرّاءَه إلى تأمل مواقفهم إزاء الغرباء البعيدين عنهم، طالبًا منهم أن يتخيلوا أن «إمبراطورية الصين -بالآلاف التي لا تُحصى من سكانها- قد ابتلعها زلزال فجأةً». وبعدئذ طُلِب منهم أن يتأمّلوا كيف سيتلقّى الخبرَ «شخصٌ ما ينتمي إلى الإنسانية» ولا تربطه أية صلة خاصة بهذا الجزء من العالم. وأيًّا كان ما سيقوله ذلك الشخص، فإنه -فيما يزعم سميث- «سوف يتابع عمله ومتعته، ويخلد إلى الراحة والتسلية على النحو ذاته الذي اعتاده من السهولة وهدوء البال، كما لو أن هذه الحادثة لم تحدث مطلقًا»[2].

الزلزال المأساوي الذي ضرب إقليم سيشوان Sichuan بالصين سنة 2008 أظهر لنا بوضوح بالغ أن ملاحظة سميث لا تزال سارية. وعلى الرغم

(1) D. A. Smal, G. Loewenstein, and P. Slovic, Sympathy and Callousness. The Impact of Deliberative Thought on Donations to Identifiable and Statistical Victims,' *Organizational Behavior and Human Decision Process* 102 (2007), pp. 143-53.

(2) Adam Smith, *Theory of the Moral Sentiments*, III.i.45.

من أن الزلزال قتل 70,000 شخص، وخلّف 350,000 من الجرحى، وشرّد قرابة 5 ملايين شخص؛ فإن تأثيره عليّ كان وقتيًا تمامًا. القراءة عن الموتى ومشاهدة الخراب على شاشة التليفزيون أثار تعاطفي مع العائلات من الضحايا، ولكنني لم أتوقف عن العمل، ولم يجافني النوم أو أتوقف عن الاستمتاع بمتع الحياة العادية. وأنا أعرف أنه لا أحد فعل ذلك. إن ذهننا -أي جهازنا في التفكير المتدبّر- يتلقّى أخبار الكارثة، ولكن مشاعرنا من النادر أن تكدرها المآسي التي تحدث للغرباء في أماكن نائية ممن لا تربطنا بهم أية صلة خاصة. وحتى إذا اتجهنا إلى التبرُّع من أجل تخفيف الأزمة الطارئة؛ فإن مثل هذه الأخبار لا تغير بأية حال شيئًا أساسيًا من أساليب حياتنا.

قصارى جهدنا أنّ ما نتبرّع به لمساعدة الأجانب أقل كثيرًا مما نتبرّع به لمساعدة أولئك الذين يعيشون داخل بلدنا. التسونامي الذي ضرب جنوب شرق آسيا مباشرة بعد احتفال الكريسماس سنة 2004 قتل 200,000 شخص، وجعل الملايين بلا مأوى ومعوزين. وقد دفع هذا الأمريكيين إلى التبرُّع بمبلغ 1.54 بليون دولار من أجل جهود تخفيف الكارثة، وهو أكبر مبلغ تبرّع به الأمريكيون بعد أية كارثة طبيعية حدثت من قبل خارج الولايات المتحدة. ولكن هذا المبلغ كان أقل من ربع المال البالغ 6.5 بليون دولار الذي تبرّع به الأمريكيون في السنة التالية لمساعدة أولئك المتضررين من إعصار كاترينا الذي قتل 1,600 شخص، وخلّف عددًا من المشردين أقل كثيرًا مما خلّفه التسونامي. كما أن زلزالًا حدث في باكستان في أكتوبر سنة 2005 وقتل 73,000 شخص، اجتذب تبرعات من الأمريكيين بمبلغ ضئيل نسبيًا بقيمة 150 مليون دولار. (وهذا الزلزال هو الوحيد بين هذه الأحداث المأساوية الثلاثة الذي لم يتم ترويجه من خلال الفيديو، وبذلك لم يؤدِّ إلى تغطية تليفزيونية مؤثرة ومعادة مرارًا وتكرارًا. ولتضع في اعتبارك أن ضحايا الكوارث الأمريكية قد ساعدتهم الحكومة بالموارد بشكل أكبر إلى حد بعيد من الموارد التي قدمتها حكومات الدول التي ضربها التسونامي والزلزال[1].

وإن يكن عدم اكتراثنا النسبي بالأجانب أمرًا مقلقًا، فمن السهل فهم

(1) الأرقام الواردة في هذه الفقرة مستمدة من:
WWW.charitynavigator.com and from Steven Dubner, «How Pure Is Your Altruism?» *The New York Times*, May 13, 2008, http://freakonomics.blogs.nytimes.com/2008/05/13/how-pure-is-your-altruism/. Figures for the sums raised way slightly between these two sources.

السبب في أننا نكون على ذلك النحو. إن نوعنا البشري قد أمضى ملايين السنين من التطور باعتبارنا حيوانات ثديية اجتماعية لها نسل يحتاج إلى رعاية آبائه لسنوات عديدة. خلال معظم هذه الملايين من السنين، فإنَّ الآباء الذين لم يعتنوا بأطفالهم خلال هذه الفترة من اعتماديتهم على الآباء، كان من المستبعد أن ينقلوا جيناتهم[1]. ومن ثَمَّ، فإنَّ اهتمامَنا برفاهة الآخرين يميل إلى أن يكون محدودًا في نطاق أنسبائنا، وأولئك الذين نكون على صلات فعَّالة بهم، وربما أعضاء جماعتنا القَبَلية الصغيرة الخاصة.

وحتى عندما تشكَّلت الدول القومية، وبدأت الأخلاق القَبَلية تصبح مُقيَّدة بفعل متطلبات المجتمع الأكثر اتساعًا، فإن الحدس الذي ينبؤنا بأننا ينبغي أن نُساعد الآخرين عادةً ما يمتد فقط إلى مساعدة مواطنينا. في رواية **البيت الكئيب** *Bleack House* منح تشارلز ديكنز تأييده للنزعة محدودة الأفق، من خلال السخرية من «منظار الإحسان» لدى السيدة جيليباى Jellyby التي «لم تستطع أن ترى شيئًا أقرب من إفريقيا». لقد عملت بمشقة في مشروع سوف يعلم مواطني إقليم بوريوبولا -Borrioboola Gha الواقع على الضفة اليسرى للنيجر، ولكنَّ منزلها كان حافلًا بالفوضى وأطفالها مُهمَلين[2]. لقد كان من السهل على ديكنز أن يتندر على السيدة جيليباى؛ لأن مثل هذا الإحسان -في أيامه- كان مسلكًا يُساء توجيهه. ولقد كان من الصعب أن نعرف إذا ما كان الناس البعيدون محتاجين إلى مساعدتنا؛ فإذا كانوا محتاجين فقد كان حتى من الأكثر صعوبة أن نجد أساليب فعَّالة لمساعدتهم. وعلى أيَّة حال، فقد كان هناك كثير من الفقراء الإنجليز يعيشون في ظروف من النادر أن تكون أقلَّ يأسًا. وحينما نتنبه إلى الحدود التي يتوقَّف عندها تعاطفنا مع أولئك البعيدين عنا، فإن هذه الحالة كما يقول سميث «تبدو مدبَّرة بحكمة بفعل الطبيعة»، حيث إنَّ أولئك الذين يعيشون في مناطق بعيدة عنّا «لا يمكننا أن نخدمهم ولا أن نؤذيهم». ولو أننا انشغلنا بهم أكثر من ذلك، فإنَّ هذا «لن يجلب على أنفسنا سوى القلق، دون أن يجلب ذلك لهم فائدة بأية حال»[3].

(1) حيث إن الاستثمار البيولوجي لرجل ما في كل طفل يكون أقل كثيرًا من استثمار المرأة، وحيث إن الرجال يمكنهم -من الناحية النظرية- أن يكون لديهم أطفال أكثر إلى حد كبير؛ فإن بعض الآباء يمكن أن ينجحوا في نقل جيناتهم من دون اهتمام كبير برفاهة كل طفل. ولكن إلقاء نظرة على المجتمعات البشرية يبيّن لنا أن هذا هو الاستثناء أكثر من كونه القاعدة.

(2) Charles Dickens, *Bleak House*, chapter 4; the relevant section is reprinted in Peter and Renata Singer, ed., *The Moral of the Story* (Oxford, UK: Blackwell, 20050, pp. 63-69).

(3) Adam Smith, *Theory of Moral Sentiments*, III.i.50.

وفي يومنا هذا تُعدُّ هذه الكلمات مهجورة تمامًا مثل قلم الريشة الذي به كتبها سميث. وكما أظهرت لنا استجابتنا للتسونامي بشكل ناصع، فإنَّ الاتصالات الفورية وسُبُل النقل السريع تعني أننا **يمكن** أن نساعد أولئك الذين يعيشون في مناطق بعيدة عنا بأساليب كانت مستحيلة في عصر سميث. إضافةً إلى ذلك، فإن الفجوة بين مقاييس العيش في الدول المتقدمة وتلك التي تكون في الدول النامية، قد ازدادت بشكل هائل، بحيث إنَّ أولئك الذين يعيشون في دول صناعية لديهم مقدرة أكبر على مساعدة أولئك الذي يعيشون في مناطق بعيدة، ولديهم مبرر أكبر للتركيز على مساعدتهم: والمناطق البعيدة هنا هي المكان الذي يُوجد فيه الأغلبية الواسعة من الفقراء فقرًا مُدقِعًا.

انعدام الجدوى

في إحدى الدراسات تم إخبار الناس الذين أُجريت الدراسة عليهم بأن هناك آلافًا عديدة من اللاجئين مُعرَّضون للخطر بمخيم برواندا، وسئلوا عن مدى استعدادهم لإرسال إعانة سوف تنقذ حياة 1,500 منهم. وعند طرح هذا السؤال، عمد الباحثون إلى تنويع العدد الإجمالي للناس الذين قالوا عنهم إنهم في خطر، ولكنهم أبقوا على عدد الناس الذي سوف تؤدي الإعانة إلى إنقاذهم عند رقم 1,500. وقد تبيّن أن الناس كانوا أكثر استعدادًا لإرسال الإعانة التي أنقذت 1,500 من 3,000 شخص في خطر، من استعدادهم لإرسال الإعانة التي أنقذت 1,500 من 10,000 شخص في خطر. وبوجهٍ عام، فإنّه كُلما قلّت نسبة الناس الذين يكونون في خطر ممن يمكن إنقاذهم، قلّ عددُ الناس الذين يكونون على استعداد لإرسال إعانة[1]. ويبدو أننا نستجيب كما لو أن أي شيء سيترك معظم الناس بالمخيم معرَّضين للخطر هو شيء «بلا جدوى»، على الرغم من أنه من المؤكد أنه بالنسبة إلى الأشخاص البالغ عددهم 1,500 الذين ستنقذهم الإعانة، وبالنسبة إلى عائلاتهم وأصدقائهم، فإن الإنقاذ يمكن أن يكون أي شيء سوى أن يكون بلا جدوى، أو لا يُعتَّد به بالنسبة إلى العدد الإجمالي

(1) D. Fetherstronhaugh, P. Slovic, S.M. Johnson, and J. Friedrich, «Insensitivity of the Value of Human Life: A Study of Psychological Numbing, *Journal of Risk and Uncertainty* 14 (1977), pp. 283-300. The Root of this research go back to work by Daniel Kahnemann and Amos Tversky, «Prospect Theory: An Analysis of Decision under Risk,» *Econometrica* 47 (1979), 263-91

في المخيم. لقد خلص بول سلوفيك -المؤلف المشارك لهذه الدراسة- إلى أن «**نسبة** الحيوانات التي تم إنقاذها غالبًا ما يكون لها أهمية أكبر من **عدد** الحيوانات التي تم إنقاذها». والمعنى الضمني هنا هو أن الناس سوف يقدمون دعمًا لإنقاذ حياة 80% من 100 شخص مُعرَّضين للخطر أكبر من الدعم الذي يقدمونه لإنقاذ حياة 20% من 1000 شخص معرضين للخطر، وبعبارة أخرى سيقدّمون دعمًا أكبر من أجل إنقاذ حياة 80 شخصًا بدلًا من إنقاذ حياة 200 شخص، حتى حينما تكون تكلفة كل مجموعة متماثلة[1].

طلبة المدرسة العُليا الذين قدمناهم في الفصل السابق قالوا أشياءَ مِن قبيل «إن الأمر في سبيله إلى التقدم» و«لن يكون هناك أبدًا مالٌ كافٍ لمساعدة كل هؤلاء الناس». الكثيرون منا ينشغلون بما يسميه علماء النفس «التفكير الذي لا جدوى منه». فنحن نقول إن الإعانة للفقراء هي «قطرات في المحيط»، وهو قولٌ يعني ضمنًا أن هذه الإعانة لا تستحق التبرع؛ لأنه مهما ازداد قدرُ ما نفعله، فإن محيط الناس المحتاجين سيبدو شاسعًا مثلما كان من قبل.

توزُّع المسؤولية

كذلك فإنه ليس من المرجَّح على الإطلاق أن نساعد شخصًا ما إذا كانت مسؤولية المساعدة لا تقع برمّتها علينا. في قضية شهيرة هزّت الروح الأمريكية، هُوجِمت بوحشية حتى قُتِلت كيتي جينوفيز Kitty Genovese، وهي امرأة شابة تعيش في كوينز Queens بنيويورك، في الوقت الذي أفادت فيه التقارير وجود ثمانية وثلاثين شخصًا قد رأوا أو سمعوا ما يحدث ولكنهم لم يساعدوها. والمفاجأة التي تكشفت وهي أن الكثير جدًّا من الناس سمعوا صرخات جينوفيز، ولكنهم حتى لم يبادروا بالاتصال بالهاتف لاستدعاء الشرطة، وهي قضية قد أثارت جدلًا قوميًّا حول السؤال «ما نوع البشر الذي أصبحنا نمثله؟»[2]

---

(1) Paul Slovic, «If I Look at the Mass I Will Never Act: Psychic Numbing and Genocide,» op. cit.

(2) بعد فترة طويلة منذ أصبح اسم «كيتي جينوفيز» مضرب مثل في عدم مبالاة قاطني المدن الكبيرة بجيرانهم، أثار تحقيق أكثر دقة الشكوك حول التقارير الأولية، وحول عدد الناس الذين عرفوا بالفعل ما يحدث وكانت لديهم الفرصة في الإفادة عنه.

See Rachel Manning, Mark Levine, and Alan Collins, «The Kitty Genovese Murder and the Social Psychology of Helping,» *American Psychologist* 62:6 (2007), pp. 555-62. I am grateful to Chrissy Holland for this reference.

الجدل العام الذي أعقب مقتل كيتي جينوفيز قاد الباحثين جون دارلي John Darley وبيب لاتانيه Bib Latané إلى الكشف عن ظاهرة توزُّع المسؤولية. وقد دعيا الطلبة إلى المشاركة في بحث استطلاعي لقياس رأي الجمهور. ذهب الطلبة إلى مكتب معين، حيث التقوا هناك بامرأة شابة طلبت منهم أن يجلسوا، وأعطتهم بعض الاستبيانات لكي يملؤوها. وبعدئذ ذهبت إلى حجرة مجاورة لا يفصلها عن المكتب سوى ستارة. وبعد دقائق قليلة، سمع الطلبة جلبة توحي بأنها قفزت فوق كرسي لكي تحصل على شيء ما موجود على رفٍّ عالٍ، وأن الكرسي قد انقلب. وقد صرخت: «يا إلهي، قدمي...». «أنا... أنا... لا أستطيع أن... أحركها». «آه، رُسْغ قدمي. أنا... لا أستطيع... لا أستطيع... أبعِد... هذا الشيء... عني». استمر التأوه والصراخ حوالي دقيقة أخرى[1]. وقد بادر بتقديم المساعدة 70% من الطلبة الذين كانوا يجلسون وحدهم في الحجرة المجاورة ليقوموا بملء استبيانات رأي الجمهور. وعندما بدا أنَّ هناك شخصًا آخر كان أيضًا حاضرًا ويقوم باستكمال الاستبيان -وإن كان في الحقيقة جاسوسًا على الآخرين a stooge - وهذا الشخص لم يستجب لنداءات الاستغاثة؛ فإن 70% فقط بادروا بتقديم المساعدة. وحتى عندما كان هناك طالبان حقيقيان معًا داخل الحجرة، فإن نسبة من بادروا بتقديم المساعدة كانت أقل كثيرًا من نسبتهم حينما كان هناك طالب واحد فقط. إن توزُّع المسؤولية كان له تأثير مُثبِّط ملحوظ، أي يشبه «التأثير الذي يقع على الشخص المتفرّج على الحدث» bystander effect. وهناك تجارب أخرى انتهت إلى نتائج مماثلة[2].

لا أحد يحب أن يكون هو الشخص الوحيد الذي يقوم بعملية التنظيف بينما يقف كل شخص آخر من حوله متفرجًا. وعلى النحو ذاته، فإنّ استعدادنا لمساعدة الفقراء يمكن أن يتضاءل إذا كنا نعتقد أننا سوف نقوم بفعل ما هو أكثر من مشاركتنا المعقولة. إن الشخص الذي يعتدُّ بالتبرُّع بنسبة ملموسة من دخله أو دخلها الصافي disposable income، لا يستطيع أن يمنع نفسه من ملاحظة أن الآخرين لا يعتدُّون بذلك، بمن فيهم أولئك الذين يكون لديهم قدر أكبر من الدخل الصافي. تخيل

(1) Bib Latané and John Darley, *The Unresponsive Bystander* (New York: Appleton-Century-Crofts, 1970), p. 58. I am grateful to Judith Lichtenberg, «*Famine, Affluence and Psychology,*» in Jeffery Schaller, ed., *Peter Singer Under Fire* (Chicago: Open Court, forthcoming 2009), both for suggesting the relevance of this research and for his and other reference.

(2) Bib Latané and John Darley, *The Unresponsive Bystander*, chapters 6 and 7.

كتابتك لذلك الشيك الأول الذي تحرره بقيمة مالية كبيرة لصالح منظمة **«اليونيسف»** أو **منظمة «أوكسفام»**، وبعدئذ التقيت مصادفةً بجيرانك العائدين من إجازة شتوية في منطقة جزر الكاريبي، وقد بدوا في حالة من الانسجام ومكتسبين شمرة لون البشرة، وراحوا يخبرونك عن مغامراتهم العظيمة في الإبحار والغطس تحت الماء. فكيف سيكون شعورك؟

إن إحساسنا بالعدالة يكون قويًا للغاية، حتى إننا -لكي نمنع الآخرين من أن يحصلوا على قدر أكبر من حصتهم العادلة- نكون غالبًا على استعداد لأن نأخذ حصة أقلّ لأنفسنا. في «لعبة الإنذار الأخير»ultimatum game يتم إخبار اثنين من اللاعبين بأن أحدهما -وهو الشخص الذي سيقترح عرضًا- سوف يُعطى له مبلغ من المال -ولنفترض 10 دولارات- ويجب أن يقتسمه مع اللاعب الآخر، أي الشخص الذي يتلقى العرض؛ ولكن كيف سيتم تقسيم **المال** بناءً على رغبة المقترح، الذي يمكن أن يعرض تقديم الكثير أو القليل على حسب رغبته. وإذا رفض متلقي الاقتراح العرض المقدَّم، فلن يحصل أحد منهما على أي شيء. اللعبة تُلعَب مرة واحدة فقط، ولا يتم الكشف عن هوية اللاعبين، وبذلك فإن قرار كل منهما لن يتأثر بالتفكير في تسديد المبلغ إذا ما تقابلا مرة أخرى. وإذا ما تصرف اللاعبان وفقًا لمصلحة شخصية خالصة؛ فإن مُقدِّم الاقتراح سوف يُقدِّم عرضًا بأقل مبلغ ممكن وسوف يقبله مُتلقِّي الاقتراح؛ لأنه في النهاية يكون حتى المبلغ القليل أفضل من عدم وجود أي مبلغ على الإطلاق. ولكن في ثقافات أخرى عديدة، يقدم معظم المقترحين قسمةً متساويةً من المال. وهذا العرض يتم قبوله بشكل متباين. ومع ذلك، فأحيانًا ما يتصرف المقترحون على نحو ما يتوقع منهم علماء الاقتصاد، ويُقدِّمون عروضًا بقيمة أقل من 20%. وبعدئذ فإن معظم مَن يتلقون العرض يُخزون علماء الاقتصاد برفض العرض[1]. وحتى القرود سوف ترفض أن تَقبلَ مكافأة عن أداء مهمة ما، إذا ما رأت قردًا آخر يحصل على مكافأة أفضل عن أداء المهمة نفسها[2].

المتلقون للاقتراح الذين يرفضون العروض يظهرون لنا أنه حتى عند عقد صفقة مع الغرباء تمامًا الذين لن يتعاملوا أبدًا معهم مرة أخرى، فإنهم سيفضلون أن يعاقبوا الجور على أن يكسبوا المال. فلماذا يتصرف الناس

---

(1) هناك أدبيات أساسية عن لعبة الإنذار الأخير. ومن أجل مناقشة مفيدة لهذا الموضوع، انظر:
Martin Nowak, Karin Page, and Karl Sigmund, «Fairness Versus Reason in the Ultimatum Game,» *Science* 289 (2000), pp. 1773-75.

(2) S. F. Brosnan and F. B. M. de Waal, «Monkeys Reject Unequal Pay,» *Nature* 425 (September 18, 2003), pp. 297-99.

(والقرود) بأساليب تبدو على الضد من مصلحتهم؟ الإجابة الأكثر معقولية هي أن الحدوس الأخلاقية من قبيل العدالة قد نشأت لأنها عززت القدرة الإنتاجية لدى أولئك الذين كان لديهم تلك الحدوس، ولدى المجموعات الذين ينتمون إليها. فمن بين الحيوانات الاجتماعية، نجد أنّ أولئك الذين يشكّلون علاقات تعاونية يميلون إلى العمل بشكل أفضل من أولئك الذين لا يشكلون هذه العلاقات. وأنت بتقديمك لعرضٍ جيّد، إنما تُبَلِّغ بذلك إشارة بأنَّكَ من ذلك النوع من الأشخاص الذي سيكون شريكًا جيدًا في العمل التعاوني. وعلى العكس من ذلك، فإنك برفضك لعرضٍ جائرٍ، إنما تُبيّن أنَّكَ لن تُواصل الاستثمار في معاملة فجّة؛ وبذلك فإنك تردع الآخرين عن محاولة استغلالك لمصلحتهم. وهناك مزايا اجتماعية أيضًا لمثل هذه الحدوس. فالمجتمع الذي يتصرّف معظم الناس فيه بشكل عادل، سوف يتصرف بوجه عام بشكل أفضل من المجتمع الذي يسعى فيه دائمًا كل فرد لأن يحصل على مزايا غير عادلة؛ لأن الناس سيكونون قادرين بشكل أفضل على الثقة ببعضهم، وسوف يشكُّلون علاقات تعاونية.

المال

أليس من الأقل احتمالًا أن نُلبّي احتياجات الآخرين إذا كانت الوسيلة الوحيدة لتلبيتها هي إرسال المال؟ ونحن نعرف من قبل أنَّ الافتقار إلى فرد يمكن التعرّف على هُويّته يُطيل الأمد في إمكانية انحيازنا لصالح مساعدته. ولكن هل من المحتمل أنَّ كونَ المال هو غالبًا الوسيلة الوحيدة الملائمة لمساعدة الفقراء في المناطق النائية، يمكن أن يُقلّل أيضًا من استعدادنا لمساعدة أولئك الذين لا يمكننا الوصول إليهم؟

إذا كُنتَ قد قرأتَ يومًا لكارل ماركس Karl Marx، فلن تكون مُندهشًا من الفكرة القائلة بأنَّ استخدام المال يقوّض ما يمثل الأفضل والأنبل في العلاقات الإنسانية. ففي «**المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لسنة 1844**» *The Economic and Philosophical Manuscript of 1844* -وهي من أعمال فترة الشباب التي ظلّت غير منشورة ومجهولة على نطاق واسع حتى منتصف القرن العشرين- يصف ماركس المالَ باعتبارِهِ «العامل الكوني في الانفصال»؛ لأنّه يُحوّل الصفات والقوى الإنسانية إلى شيءٍ آخرَ. وكمثالٍ على ذلك، رأى أنَّ إنسانًا ما يُمكن أن يكونَ قبيحَ الشَّكل، ولكنَّه إذا كان لديه مالٌ فإنّه يمكن أن يشتري لنفسه «أجمل امرأة». ولقد رأى

ماركس أن المال يجعلنا مغتربين عن طبيعتنا الإنسانية وعن رفاقنا من الموجودات البشريّة.

ولو كان لدينا فقط حجية ماركس في هذه الرؤية، لكان بمقدورنا أن نستبعدها باعتبارها رؤية مدفوعة بتوجه أيديولوجي. ولكنَّ هناك تقريرًا في مجلة *Science* قدَّمته كاثلين ڤوس Kathleen Vohs ونيكول ميد Nicole Mead وميراندا جود Miranda Goode -اللائي يعملن في مجال التسويق وعلم النفس- ولا يتبدى لديهن أي وعي بأن ماركس كان لديه أي شيء ليقوله في هذا الموضوع، يوحي لنا بأن ماركس في هذه النقطة تحديدًا كان على شيء ما من الصواب.

أجـرت ڤـوس وزميلتاها سلسلة مـن الـتـجـارب الـتي اشتملت على شخصيات مهيأة للتفكير حول المال. وقد كلِّفن هذه الشخصيات بمهام تنطوي على عبارات غير ملغزة عن المال؛ أو وضعن على مقربة منهم ثروة من المال الافتراضي المستخدَم في لعبة المونوبولي Monopoly money، أو أكّدن أن الشخصيات المفحوصة رأت شاشة مؤقتة تعرض فئات متنوعة من المال. وهناك شخصيات أخرى -تم اختيارها عشوائيًا- والتي قامت بحل لغز العبارات التي لم تكن عن المال، لم ترَ المال الافتراضي المستخدَم في لعبة المونوبولي، ورأت شاشات مؤقتة مختلفة. في كل حالة من هاتين الحالتين، فإن أولئك الذين كانوا مؤهلين بطبيعتهم للتفكير حول المال -ولنسمّهم «جماعة المال»- تصرّفوا بأساليب كشفت عن تباعد أكبر عن الآخرين وعن قدر أكبر من الاكتفاء بذاتها. فجماعة المال:

- أخذوا وقتًا أطول لطلب المساعدة حينما يتورطون في مهمة صعبة، وقالوا إن المساعدة كانت متاحة لهم.
- تركوا مسافة أكبر بين الكراسي عندما طُلِب منهم أن يحرّكوا كرسيِّهم لكي يمكنهم التحدث مع مشارك آخر في التجربة.
- كانوا على الأرجح يختارون نشاط وقت الفراغ الذي يمكنهم الاستمتاع فيه وحدهم بدلًا من النشاط الذي يشتمل على الآخرين.
- كانوا أقل مساعدة للآخرين.
- حينما دُعُوا للتبرّع بالمال الذي مُنِح لهم لأجل المشاركة في التجربة، فإنهم تبرعوا بالقليل.

الباحثات صدمهن قدر الاختلاف الكبير الذي صنعته الإشعارات الضئيلة بالمال. وعلى سبيل المثال، حيثما اقترحت المجموعة الضابطة إنفاق اثنين وأربعين دقيقة في مساعدة شخص ما في مهمة معينة؛ فإن أولئك الذين كانوا مهيئين للتفكير حول المال تبرّعوا بإنفاق خمس وعشرين دقيقة فقط. وبالمثل، فعندما طُلبَ المساعدةَ شخصٌ ما يتظاهر بأنّه مشاركٌ في التجربة؛ فإنَّ جماعة المال أنفقتْ فقط نصف الوقت المقدَّر لمساعدته. وعندما طُلِب من جماعة المال أن تُقدِّم تبرعًا، فإنَّ هذه الجماعة مَنحتْ فقط قدرًا ضئيلًا فوق القَدر الذي قدَّمته المجموعة الضابطة[1].

لماذا يجعلنا المالُ أقلَّ استعدادًا للسعي إلى المساعدة أو تقديمها، ولأنْ نقترب من الآخرين؟ تقترح ڤوس وزميلتاها أنه عندما بدأت المجتمعات تستخدم المال، تضاءلت الحاجة إلى الاعتماد على العائلة والأصدقاء. وقد انتهين إلى القول بأنه «بذلك النحو، عزز المال النزعة الفردية، ولكن تضاءلت الدافعيات الجماعية، وهو تأثير لا يزال ظاهرًا في استجابات الناس في يومنا هذا». وقد اتخذ عالِمُ الاجتماع البريطاني ريتشارد تيتموس Richard Titmuss رؤيةً مُماثِلةً منذ قرابة أربعين سنة، ردًّا على تنامي الرأي الاقتصادي الذي تمدد بعد ذلك إلى حد السماح للدم أن يُشترى ويُباع لأغراض طبيّة. معظم علماء الاقتصاد اتّخذوا الرؤية القائلة بأنَّ أفضل طريقة للحصول على إمدادٍ كافٍ من أيّة سلعة هو السماح لقوانين التموين والسلع أن تُثبّت السعر. القانون الإنجليزي يمنع بيعَ الدم، ويعتمد على التبرُّعات الاختيارية الإيثارية، وبذلك فإنه يتعارض مع قوانين التموين والسلع. وقد دافع تيتموس في كتابه **هبة الصلة الاجتماعية** *The Gift Relationship* عن هذا النظام على أساس أنه يُقوّي روابط المجتمع. فإذا كان الدم حرفيًّا لا يُقدَّر بثمن؛ فإننا جميعًا يجب أن نعوِّل عليه، في حالة طوارئ طبية، وفي هِبات إنقاذ حياة الغرباء. وأي شخص -بصرف النظر عن كونه غنيًّا أو فقيرًا- يمكن أن يرد دَينه للمجتمع بتقديم هبة الحياة للغرباء المحتاجين. وما إن تسمح للدم أن يُشترى ويُباع، فإنه يصبح سلعة، ولا تكون هناك حاجة إلى الإيثار؛ لأنَّه إذا لم تكن هناك تبرعات إيثارية كافية، يمكن للدم عندئذ أن يُشترى.

(1) Kathleen Vohs, Nicole Mead, and Miranda Goode, «The Psychological Consequences of Money,» *Science* 314 (2006), pp. 1154-56.

علم النفس، والتطور، وفلسفة الأخلاق

بالنسبة إلى الكثيرين، تصل الحدوس التي ناقشناها في هذا الفصل إلى إجابة معقولة، يتم تجميعها تحت فكرة عامة هي «ليس هذا ينتمي إلى طبيعتنا»، أي إلى براهين عن الضرورة الأخلاقية للتبرّع للفقراء البعيدين عنّا. وللوهلةِ الأولى، يبدو أنه من الصواب أن نُساعد الضحيّة التي نراها على تلك التي لا نراها. ومع ذلك، فإنّنا إذا فكّرنا في الأمر مُجددًا سنجد أن هذا الحدس لا يصمد أمام الفحص. لنفترض أننا في قاربٍ في أثناء عاصفة ونرى اثنين من اليخوت منقلبَين. ويمكننا إما أن نُنقذ شخصًا واحدًا متشبثًا بيختٍ منقلب، أو ننقذ خمسة أشخاص لا يُمكننا أن نراهم، ولكننا نعلم أنهم عالِقون داخلَ اليختِ الآخر. وسيكون لدينا وقتٌ للتوجّه إلى واحدٍ فقط مِن هَذين اليختين قبل أن يرتَطِم بقوّة بالصخور؛ وعلى الأرجح تمامًا أنَّ أيَّ شخصٍ مُتشبثٍ باليخت سوف يغرق إن لم نَتوجَّه إليه. يمكننا أن نتعرّف على هوية الشخص الذي يبدو وحيدًا؛ فنحن نعرف اسمه والنحو الذي يبدو عليه مظهرُه، رغم أنّنا لا نعرف شيئًا عنه بخلاف ذلك وليس لدينا أيُّ ارتباطٍ به. ونحن لا نعرف أيَّ شيءٍ عن هُويّة العالقين داخل اليخت الآخر سوى أنَّ هناك خمسة أشخاص عالقين. وإذا لم يَكن لدينا أي مُبرّر في أن نعتقد في أن الضحية الواحدة التي يُمكن أن نتعرّف على هُويّتها تكون أكثر استحقاقًا بأية حال للإنقاذ من الأشخاص الخمسة الذين لا يُمكن التعرّف على هُويّتهم؛ فإننا بالتأكيد ينبغي أن نُنقذ العددَ الأكبرَ من الأشخاص. علاوةً على ذلك، فإننا إذا وضعنا أنفسَنا في موقف الأشخاص المحتاجين للإنقاذ، ولكن من دون أن تكون هناك معرفة بِهُويّتنا من بين هؤلاء الأشخاص الستة؛ فإننا سوف نتمنّى عندئذ أن يَتوجَّه المنقِذون إلى اليختِ المنقلِب في المياه بأشخاصه الخمسة؛ لأنَّ هذا سوف يمنحنا أفضلَ فرصة لأن ننجو.

الأمر نفسه يصدُق على كلّ عاملٍ من العوامل السيكولوجية الخمسة التي فحصناها. إنَّ مشاعرنا محدودةَ الأفقِ هي تقييد لاستعدادنا للتصرّف بناءً على مقدرتنا المالية والتكنولوجية معًا؛ لكي نقدم تبرّعًا لأولئكَ الذين يكونون وراء حدود دولتنا، وبذلك نفعل الكثير من الخير بشكلٍ أكبر مما يُمكن أن نفعله لو كان إحساننا يتوقّف عند تلك الحدود. إن بيل جيتس Bill Gates -سيّد التكنولوجيا الكوكبية- قد استمد اللزوميات الضرورية للأخلاق من حقيقة كوننا عالَمًا واحدًا. إنَّ نزعته الخيرية تُركّز في المقام الأوّل

على فعل الخير الأسمى في العالَم كَكُل. عندما سُئل في حوارٍ أجراه أحد الصحفيين للنشر بمجلة **فوربس** *Forbes* عن النصيحة التي يودُّ أن يُقدِّمها لرئيس الولايات المتحدة القادم لتحسين التنافسية والابتكار الأمريكيَّيْن، ردَّ جيتس على الفور قائلًا: «إنني أميل إلى مزيد من التفكير في تحسين العالم كَكُل في مقابلِ الأوضاع النسبية. وإلّا لأمكنك القول: انتبهوا! إن الحرب العالمية الثانية كانت عظيمة لأن الولايات المتحدة كانت في أقوى وضعٍ نسبيٍّ لها عند انتهاء هذه الحرب»[1].

بل إن ما لا يُمكن الدفاع عنه أكثر من ضيق الأفق إنما هو مشاعر عدم الجدوى التي تؤدّي بنا إلى التركيز على عدد الناس الذين لا يُمكننا مساعدتُهم، بدلًا من التركيز على عدد الناس الذين يُمكن أن نساعدهم. إنَّ موقف البعض إزاء البرهان على تقديم الإعانة استنادًا إلى مقولة «قطرات في المحيط»، هو موقفٌ يغفل أمرًا واقعيًا هو أن معونتي سوف تساعد حالات معيّنة من الأفراد والعائلات، بل القرى، وأنّ الخير الذي أسديه إليهم لا يقلّل منه أن هناك الكثير جدًّا من الناس المحتاجين الذين لا أستطيع أن أقدّم لهم المساعدة.

وآخرون يجدون جاذبية حدسية في القول بتوزُّع المسؤولية. وبذلك فإنهم يعتقدون بأنني لديّ التزامٌ بمساعدة الطفل الغارق أقوى من التزامي بتقديم العون للفقراء؛ لأنني أكون الشخصَ الوحيدَ في وضعٍ يتيح له إنقاذَ الطفل، بينما هناك بليون من الناس يكونون في وضعٍ يُتيح لهم إنقاذَ 10 ملايين طفلٍ يموتون سنويًا لأسبابٍ مرتبطة بالفقر. ولكن حتى مع أن هناك بليونًا من الأشخاص الآخرين **يمكنهم** مساعدة الأطفال الذين سوف يساعدهم تبرُّعُكَ، فما الفرق الذي يحدثه هذا لو أنَّكَ تَعْلم أنَّهم لن يفعلوا هذا، أو أنّه على أيّة حال ليس هناك عددٌ كافٍ منهم سوف يفعلون ذلك بالنسبة إلى أولئك الأطفال البالغ عددهم 10 ملايين ممن يُرَاد إنقاذهم؟

أنماط السلوك التي ساعدَت أسلافنا على البقاء وعلى أن يتناسلوا، قد تكون -في ظروف حياتنا المختلفة اليوم للغاية- بلا فائدة بالنسبة إلينا أو إلى أخلافنا. ومع ذلك، فحتى إذا كان بعض الحدس المتطور أو أسلوب التصرف لا يزال مؤديًا لبقائنا وتناسُلنا؛ فإن هذا لن يجعله -كما تدبَّر ذلك داروين- صحيحًا. التطور ليس له توجّه أخلاقي. فالفهم التطوري للطبيعة البشرية يمكن أن يفسّر لنا الحدوس المختلفة التي تكون لدينا عندما نكون إزاء فردٍ

(1) Elizabeth Corcoran, «Ruthless Philanthropy,» www.Forbes.com, June 23, 2008.

بدلًا من جمهورٍ من الناس، أو حينما نكون إزاءَ ناسٍ قريبينَ منا أكثر مما نكون إزاء أولئكَ البعيدين عنا، ولكنه لا يُبرّر تلك المشاعر.

ولكن- بطبيعة الحال- الانتهاء إلى أنَّ حاجات الآخرين ينبغي أن نعتدَّ بها بقدر ما نعتدُّ بحاجاتنا، ليس يماثل الشعور بها، وهذا هو لب المشكلة الذي يفسّر لنا السبب في أننا لا نُلبّي حاجات الناس الأفقر في العالم على النحو الذي سوف نستجيب به لحاجة شخص ما إلى الإنقاذ يكون أمامنا تمامًا[1]. المتشككون يرتابون في أن العقل يكون له أي تأثير على إذا ما كنا نتصرّف بطريقة أخلاقية. فالمسألة كلها تتعلق بما نحتاج أو نرغب -كما يقولون- فيما نشعر بأنه جيّد أو منفّر بالنسبة إلينا. فهم ينكرون الفهم أو البرهان -وبكلمة واحدة ينكرون ذلك النوع من الشيء الذي يكتبه الفلاسفة، والذي منه يتألف هذا الكتاب في معظمه- أقول: ينكرون أن هذا الفهم والبرهان يمكن أن يقود أي شخص إلى الفعل. وهاك دليلًا بسيطًا في مواجهة ذلك الموقف: في المقال المنشور بالعدد نفسه من صحيفة *New York Times* عن الفقر العالمي ومدرسة جلين-ڤيو العليا، التي قرأها الطلبة، قمت بتضمين أرقام الهواتف التي يمكن للقراء أن يتّصلوا بها من أجل التبرُّع لمنظمة اليونيسف أو أوكسفام في أمريكا. وقد أخبرتني هاتان المنظمتان فيما بعد أنهما في الشهر التالي على ظهور المقال قد جلبت من خلال هذه الخطوط الهاتفية مبلغًا قدره 600,000 دولار زيادةً على ما كانتا تتلقّيانه عادةً. الراهن أن هذا المبلغ ليس ضخمًا، إذا وضعنا في الاعتبار مقدارَ عددِ الناس الذين قرأوا صحيفة *New York Times* في أيام الأحد. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أن المقال أقنع عددًا مهمًا من الناس بالتبرع. بعض أولئك المتبرعين قد استمروا في تبرعهم. وبعد نشر هذا المقال بسنوات عديدة، قيل لي إنَّ هناك امرأة جاءت إلى مكتب أوكسفام في بوسطن، وقد أخرجت من حقيبتها نسخة محفوظة لديها بحالة جيدة، وقالت للموظفين إنها كانت تنتوي أن تتبرّع للمنظمة منذ أن قرأَت هذا المقال. ومنذ ذلك الحين أصبحت إحدى كبار المتبرّعين. إن معرفتي بالتأثير الكبير لهذا النّوع من العمل قد كان لها مبرّر قويّ في كتابة هذا الكتاب.

لننظر الآن في موقف بعض أولئك الذين لا يستجيبون لإغراءات العطاء، ونتساءل عما يمكن أن نفعله لتشجيع الآخرين على الاستجابة على النحو ذاته.

---

(1) من أجل مناقشة أكمل لمناقشة ملاءمة علم النفس لدينا بفلسفة الأخلاق، انظر:
Peter Singer, *The Expanding Circle: Ethics and Sociology* (New York: Farrat, Straus & Giroux, 1981).

5 - خلق ثقافة للتبرع

منذ ثلاثين سنة، تلقَّى كريس إلينجر Chris Ellinger مكالمةً هاتفية غيَّرت حياته. كانت المكالمة من سمسار للأوراق المالية يُسْدي إليه نصيحةً بشأن محفظة مستنداته المالية. بَدَت المكالمةُ غريبةً؛ لأنَّ كريس كان لديه القليل جدًّا من المال. وقد تبيَّن أنَّ سمسار الأوراق المالية قد سعى لأن يعلَم -حتى قبل المكالمة- أن جدة كريس قد تَركَتْ له 250.000 دولار. ولكن ما الذي ينبغي فعله بهذا المال؟ كان كريس آنذاك يعيش مع جماعة من الناس يعملون من أجل العدالة الاجتماعية في فيلادلفيا، وبذلك فإنه كان واعيًا تمامًا بأنه كان محظوظًا أكثر من الآخرين. وقد تساءل كريس: لماذا ينبغي أن يكون ثريًّا في الوقت يكون فيه الكثيرون جدًّا فقراء؟ وسرعان ما بدأ في التبرُّع بمبلغ يتراوح بين ثلث ونصف دخله من استثماراته الجديدة. وقد فَكَّر في منح أكثر من ذلك بكثير، ولكنه كان أيضًا خائفًا من منح «الكثير جدًّا»، رغم أنه كانت لديه فكرة غامضة فقط عما يمكن أن يعنيه هذا. هل يعني ذلك أنه سيتبرَّع بما هو أكثر مما كان يُعدُّ معقولًا؟ أكثر مما كان يُعدُّ مسلكًا حصيفًا؟ أكثر مما يتبرَّع به معظم الناس؟ وقد سأل أعضاء آخرين في عائلته عما يتبرعون به من مال، ولكن يبدو أنه لا أحد منهم كان يودُّ الحديث في هذا الأمر.

وبعد ثماني سنوات، كان كريس حاضرًا في مؤتمر حول الإحسان حينما تكلَّمت امرأة وسألَتْ عمَّا إذا كان هناك أي شخص في القاعة قد نظر بجدية في التبرُّع بنسبة كبيرة من ثروته. قليل من الناس- بمن فيهم كريس- قد رفعوا أيديهم. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى بدأ أربعة منهم في الاجتماع للتحدث، لا فحسب عن دخلهم، وإنما عن معظم رأس مالهم. ومن خلال تشجيع كلٍّ منهم للآخر، بدأوا حتى في بالتبرُّع بأكثر مما كانوا يتبرعون به في الماضي. ثلاثة منهم منحوا أكثر من نصف ثرواتهم. وهكذا بدأوا في تشكيل «رابطة الـ 50%» التي ضمت في سنة 2008 أكثر من مائة عضو: بعضهم أثرياء وبعضهم متواضعو الحال. ولكي يكونوا مؤهَّلين للعضوية، يجب أن يكونوا قد تبرعوا بنصف ثرواتهم على الأقل، أو تبرعوا بنصف دخلهم عن كل سنة من السنوات الثلاث السابقة.

«رابطة الـ 50%» تُظهر لنا أن المساندة الحقيقية من الأصدقاء المتشابهين في العقلية، سوف تجعل بعض الناس يفعلون أكثر مما نعتقد في أنه

ممكن، بل أكثر مما كانوا هم أنفسهم يعتقدون أنهم يمكنهم التبرُّع به. وإن كنا لا نتوقَّع ما هو أكثر من أقلية ضئيلة تمنح مقدار نصف ثروتها أو دخلها، فمن المُجدي أن نسأل عما يمكن فعله لأجل خلق ثقافة للتبرّع يُمكن أن تُقارِع العناصر المتنوعة من علم النفس الإنساني التي -كما رأينا في الفصل السابق- تجعلنا أقلّ استعدادًا لمساعدة الفقراء البعيدين.

طرح المسألة علانيةً

إذا كان إحساسنا بالعدالة يجعلنا أقلّ استعدادًا للتبرّع حينما لا يفعل الآخرون بالمثل؛ فإنَّ العكس يصدق أيضًا: فنحن نكون أكثر استعدادًا لفعل الشيء الصحيح إذا كنا نعتقد أن الآخرين كانوا يفعلونه من قبل[1]. وعلى وجهٍ أكثر تحديدًا يمكن القول بأنّنا نميل إلى أن نفعل ما يفعله الآخرون في «جماعتنا المرجعية»، وهم أولئك الذين نتوحد معهم[2]. وتُظهر لنا الدراسات أن مقدار ما يسهم به الناس في فعل الإحسان مرتبط بمعرفتهم بمقدار ما يتبرّع به الآخرون. عالما النفس جين شانج Jen Shang وراتشيل كروسون Rachel Croson استخدما حملةً تمويلية مقدمة من محطة إذاعة عامة أمريكية لقياس إذا ما كان المبلَغ الذي تبرّع به المتحدثون عبر الهاتف قد اختلف عندما ذكر الشخص الذي يَرُدُّ على هذه المكالمة الهاتفية بأنه قد تبرّع بمبلغ محدد. وقد وجدا أن ذكر رقم مبلغ قريب من الحد الأقصى من المبلغ الذي منحه المتحدثون عبر الهاتف بوجه عام -وهو على وجه الدقة بنسبة تسعين في المائة- قد ترتّب عليه تبرّع المتحدثين بقدرٍ أكبر بشكل جوهري من المبلغ الذي تبرّعَتْ به المجموعة الضابطة التي لم يتم تزويدها بهذه المعلومة. وقد دام هذا التأثير بشكلٍ مدهش: فالمتبرعون الذين

(1) See Bib Latané and John Darley, «Group Inhibition of Bystander Intervention,» 10 (1968), pp. 215-221; John Darley and Bib Latané, «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility,» *Journal of Personality and Social Psychology* 8 (1968), pp. 377-83; Bib latané and J. Rodin. «A lady in Distress: Inhibiting Effects of Friends and Strangers on Bystander Intervention,» *Journal of Experimental Social Psychology* 8 (1968), pp. 189-202, John Darley and Bib Latané, *The Unresponsive Bystander: Why Don't He Help?* (New York: Appleton-Century-Grofts, 1970)>

(2) Lee Ross and Richard E. Nisbett, *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology* (Philadelphia: Temple University press, 1991), especially pp. 27-46; Robert Gialdini, *Influence: Science and Practice* (4th ed. Boston: Allyn and Bacon, 2001). See also Judith Lichtenberg, «Absence and the Unfond Heart: Why People Are Less Giving Than They Might Be,» in Deen Chatterjee, ed., *The Ethics of Assistance: Morality and Distans Needy* (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2004).

أُخبِروا بمساهمةِ مُتبرّع آخر تتعدّى مُعدّل التبرُّع، قد ازداد استعدادُهم بمقدار ضعفين لأن يجددوا عضويته في السنة التالية. وأولئك الذين تلقوا هذه المعلومة عبر البريد قد استجابوا على النحو ذاته تقريبًا[1].

لقد أمَرَنا المسيحُ بألّا ننفخ في البوق عندما نعطي الفقراء، «مثلما يفعل المُراؤون في معابد اليهود وفي الشوارع، كي يمكن أن يبجلهم الناس». وقد نصحَنا بدلًا من ذلك بأننا ينبغي أن نعطي الناس في سرّية بحيث لا تعرف حتى يُسرانا ما تفعله يُمنانا. فعندئذ فقط سيكون جزاؤنا في السماء، بدلًا من الأرض»[2]. وفي واقع الأمر، فإن الكثيرين منا يعتقدون في أنه إذا كان الناس مدفوعين فقط بالرغبة في «أن يكونوا مبجّلين»، أو من أجل تحسينِ سمعتِهم باعتبارِهم كُرماء، فإنهم لا يكونون **كرماء** حقًّا، ولن يكونوا كرماءَ حينما لا يكون هناك أي شخص ينظر إليهم. وبالمثل، فإنه في يومنا هذا عندما يعطي الناس مبالغ كبيرة من المال مع كثير من النفخ في البوق، فإننا نشك في أن دافعهم الحقيقي من أجل الحصول على المكانة الاجتماعية من خلال الإحسان، ومن أجل لفت الانتباه لنرى كم هم أغنياء وكرماء. ولكن هل هناك أهمية لهذا الأمر؟ أليس ذهاب المال إلى وجه من وجوه الخير يُعدُّ أكثرَ أهمية من أن يُعطى بدوافع «خالصة»؟ وإذا كان هؤلاء بنفخهم البوق عندما يعطون، يشجّعون بذلك الآخرين على العطاء، فإن هذا يظل وضعًا أفضل.

لم يكن المسيح هو الشخص الوحيد الذي يمتدح المتبرعين مجهولي الاسم. فالمفكر اليهودي في القرن الثاني عشر موسى بن ميمون Miamonides قد أوصى «بسُلّم الإحسان» الشهير الذي رتّب فيه أساليب مختلفة من منح الصدقات. كان من المهم بالنسبة إلى موسى بن ميمون ألّا يشعر متلقّي الصدقة بأنه مَدين إلى المتبرع، أو تُذِلّه الحاجة علنًا لأن يقبل الإحسان. ومن ثَمّ، فإنّ العطاء سواء كان المتبرّع معروفًا للمتلقي أو كان المتلقي معروفًا للمتبرع، يأتي في مرتبة أدنى من العطاء المجهول اسم صاحبه، ومن دون أن يعرف المتلقّي العطية التي تُوهَب له. غير أن إيتاء الصدقات

(1) Jen Shang and Rachel Croson, «Field Experiments in Charitable Contribution: The Impact of Social Influence on the Voluntary Provision of Public Goods,» *The Economic Journal*, forthcoming Renewing members gave 43 percent more when they were given the appropriate information, and new members 29 percent more> For the mail survey, see Rachel Croson and Jen Shang, «The Impact of Downward Social Information on Contribution,» *Experimental Economics* 11 (2008), pp. 221-33.

(2) Mathew 6:1.

كان آنذاك محليًّا: فالمتبرّع والمتلقّي كانا يعيشان في المجتمع عينه، وربما كانوا يلتقون في مفترقات الطرق يوميًّا. ولكن في عصر الإحسان الكوكبي، حيث إن مخاطرة أن يصبح المتلقي مُحمَّلًا بعبء الشعور بالمديونية لمتبرّع معيّن تصبح أمرًا أقل أهمية، ولكن كلفة هذا الأمر تُرجَّح من خلال أهمية تطوير ثقافة في التبرع.

من المُسلَّم به أن الرغبة في وضع المرء لاسمه على شيء ما، قد تصل إلى حد التطرف، كما لاحظ تشارلز إيشروود Charles Isherwood -ناقد فن المسرح في صحيفة *New York Times*- حينما حضر العرض الافتتاحي في البيت الجديد لـ**«شركة مسرح شكسبير»** في واشنطن، العاصمة. هذا المبنى يُسمَّى **«قاعة سيدني هارمان»** *Sidney Harman Hall*، ولكن التسمية لا تقف عند هذا الحد:

> ها أنت تدخل من خلال بَهو آرلن وروبرت كوجود Arlene and Robert Kogod. ومن هناك قد تختار النزول إلى منسوب الأوركسترا باتخاذ الدَرَج الغربي العظيم لمؤسسة موريس وجويندولن كافريتز Morris and Gwendolyn Cafriz، أو الدَرج الشرقي العظيم للصندوق التمويلي لفيليب جرام Philip L. Graham ... وإن كنت ستصل إلى هناك ولديك من الوقت ما يكفي لتناول شراب قبل رفع الستار، فيمكنك أن تتسكّع بالقرب من الشرفة الغربية لأوركسترا جيمس وإيستي آدلر James and Esthy Adler، أو بالقرب من الشرفة الشرقية لأوركسترا الخطوط الجوية الأمريكية الأقل رنينًا. ولا تنس أن تُودِع ملابسك الخارجية الثقيلة عند قاعة «معطف كاسيدي وزملائه» Cassidy & Associates Coat Room، قبل دخولك إلى مسرح كارول بتلر Carol Butler theatre Stage لمشاهدة العرض[1].

ينوح إيشروود على أن هذا «الجرافيتي الخيري» يتعارض مع «روح تجرد الذات بشكل مثالي» في فعل التبرُّع بهدف الخير العام. (ويمكن بطبيعة الحال أن يتساءل المرء عن السبب في أن الناس الذين يكون لديهم روح تجرد الذات بشكل مثالي يودون منح الملايين من أجل مسرح عظيم جديد

---

(1) Charles Isherwood, «The Graffiti of the Philanthropic Class,» *The New York Times*, December 2, 2007.

في عاصمة إحدى دول العالم الأكثر ثراءً على الإطلاق، ولكن هذا سيكون فكرًا فاسدًا بالنسبة إلى ناقد المسرح). وعلى أية حال، فحيث إننا نعرف أن الناس سوف تتبرّع بالمزيد إذا كانوا يعتقدون أن الآخرين يتبرعون بالمزيد؛ فإننا لا ينبغي أن نتأسّى كثيرًا على الدوافع التي تُوجِّه تبرُّعهم. وبخلاف ذلك، فإننا ينبغي أن نشجعهم لكي يكونوا أكثر كرمًا فيما يتعلق بحجم التبرعات. أولئك الذين يعلنون أنهم يتبرعون بنسبة معتبرة مما يكسبونه من مال، يمكنهم أن يزيدوا بذلك من احتمالية أن يفعل الآخرون بالمثل. وإذا تحدث أولئك الآخرون أيضًا عما يتبرعون به، فإن تأثير ذلك على المدى الطويل سوف يكون صدى صوته ضخمًا، وسوف يرتفع مبلغ التبرُّع على مدى عقد أو عقدين.

ذلك هو نوع التغيير الذي أراد أن يُحدِثه كريس إلينجر Chris Ellinger حينما دشن مع زوجته آن Anne «رابطة الـ 50%». فهُما، مع أعضاء آخرين، أرادوا أن يُظهروا تَبرُّعَهم علانيةً؛ لكي يوعزوا للآخرين ولغيرهم من الأشخاص المُحتمَلين بالمبلغ «المعتاد» و«المعقول» الذي يمكن التبرُّع به. ولأجل تمديد نطاق هذا الهدف، فإن موقعهم على شبكة المعلومات ينشر قصص الأعضاء. وها هي بعض القصص التي اخترناها بشكل عشوائيّ إلى حد ما من موقعهم على شبكة المعلومات:

- آني بينيت Bennett Annie أخذت منذ سنة 28,000 دولار من رأس مال تجارتها البسيطة، وتبرعت بمبلغ 30,000 دولار من أرباحها لصالح منظمة «أمريكا لمنع الإساءة للأطفال».
- توم هِساي Tom Hsieh وزوجته بري Bree أخذا على نفسيهما التزامًا بأن يعيشا على أقل من متوسط الدخل الأمريكي بالدولار، والذي يبلغ 46,000 دولار سنويًّا. وفي سنة 2006 عاشا مع طفلتهما البالغة سنةً واحدة على مبلغ 38,000 دولار. وحيث إن هِساي، الذي يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، يكسب أكثر من ذلك المبلغ، فقد كان يتبرّع بالمبلغ الزائد غالبًا إلى المؤسسة المسيحية التي تساعد الفقراء في الدول النامية. ويقول هِساي إن تبرُّعه سواء أنقذ أم لم ينقذ حياة الآخرين، فإنه قد أنقذه هو؛ ولذلك يقول: «كان يمكن ببساطة أن أعيش حياة مملة وبلا أهمية. ولكني الآن قد أُنعِم عليَّ بحياة تقوم على الخدمة الكَنَسية ولها معنى».
- عبر الثلاث عشرة سنة الأخيرة تبرّع هال توسيج Hall Taussig وزوجته بكل أرباح تجارتهما تقريبًا التي بلغت 3 ملايين دولار. والآن

يكتب توسيج قائلًا: «الحياة بسعادة على شيكات **أمننا الاجتماعي** يجعلنا نتراخى في التبرُّع بالمزيد».وعندما امتدحه الناس لكرمه، قال لهم:«بصراحة، هذا هو أسلوبي في نيل مباهج الحياة».

- عندما كان تشاك كولينز Chuck Collins في الخامسة والعشرين من عمره، وهو حفيد الجزّار أوسكار ماير Oscar Mayer، قام بالتبرُّع بميراثه إلى مؤسسات تعمل على تعزيز التغير الاجتماعي. كان هذا منذ أكثر من عشرين سنة خلت. ويعتقد كولينز مؤسس منظمة تُسمَّى «الثروة المسؤولة» أن الثروة الموروثة هي شيء سيئ بالنسبة إلى الأطفال وإلى المجتمع. ومنظمة «الثروة المسؤولة» كانت رائدة في إقناع الكونجرس الأمريكي بعدم إلغاء الضريبة العقارية.

- لقد كان من الممكن لتوم وايت Tom White أن يكون منتميًا إلى فئة الناس بالغي الثراء؛ لأن والده أسس مبنًى تجاريًا ناجحًا للغاية. لقد بنى توم المبنى في نطاق أضخم المباني في بوسطن. ولكن في سنة 1983 التقى بول فارمر Paul Farmer، وكان آنذاك لا يزال طالبًا في «مدرسة هارفارد الطبية»، وقد شرع من قبل في إقامة عيادة طبية في هايتي Haiti. وقد حفّزه تكريس فارمر لنفسه من أجل الفقراء على التبرُّع بـ«ملايين الدولارات» لمنظمة فارمر -التي تُسمَّى «المساهمون في الصحة»- لكي يساعدها على توفير الرعاية الطبية للأطفال الريفيين في هايتي وبيرو. فهو يرى أنه «من الإثم الاحتفاظ بالملايين حينما تعلم أن هناك أناسًا يتضورون من الجوع».

- ما زال جون هنتنج John Hunting ثريًا وفقًا لمعظم معايير الناس، رغم أنه قد تبرّع بنسبة 50% على الأقل من دخله خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، وتبرّع بنسبة 100% من دخله خلال السنوات العشر الأخيرة. فقد شارك أبوه في تأسيس شركة «الأثاث الفولاذي» Steelcase، وهي أكبر مُصنِّع في العالم لمستلزمات المكاتب. وعندما أصبحت الشركة ذائعة الصيت في سنة 1998، وجد هنتنج نفسه يمتلك أصولًا مالية بقيمة 130 مليون دولار. وقد شرع في تكوين مؤسسة -باسم Fund Beldon- تهدف إلى إيجاد عالم صحي مستدام التنمية، ومنح الشركة مبلغ 100 مليون دولار. وهو يخطط للتبرّع ببقية ميراثه بحلول سنة 2020 [1].

(1) www.boldergiving.org.

تجميل مظهر المحتاج

للاستفادة من استعدادنا الأكبر لمساعدة الفقراء الذين يمكن التعرف على هُويَّتهم، عملت جماعة فوستر البريطانية لـ«مشروع الرعاية الأبوية البديلة» Foster Parents Plan[1] على ربط الأطفال الفقراء في الدول النامية بجماعة «فوستر للرعاية الأبوية» في الأمم الثرية التي تُرسِل المالَ للطفل من أجل الغذاء والكساء والتعليم. وأعضاء هذ الجماعة بدورهم يتلقون رسائل من «طفلهم». هذا التوجه أدّى إلى تحاشي خمسة من ستة من العوائق السيكولوجية لمساعدة الفقراء الذين ذكرناهم فيما سبق. وبالإضافة إلى أنَّ أعضاء جماعة «فوستر للرعاية الأبوية» كانوا يساعدون طفلًا يمكن التعرف على هويته، فإنهم عرفوا أيضًا أن مساعدتهم لم تكن عديمة الجدوى؛ لأنهم تلقّوا رسالة من الطفل يخبرهم فيها عن مدى الفرق الذي أحدثته هذه المساعدة في حياته، ولكن هذا لم يجعلهم مرتبكين فيما يتعلّق بحاجة الأطفال الآخرين المحتاجين الذين لم يكونوا قادرين على مساعدتهم. فمسؤوليتهم تجاه «طفلهم» كانت واضحة تمامًا: فهم إذا أوقفوا التبرُّع، فإنَّ الطفل قد يعيش بلا غذاء أو كساء أو تعليم؛ لأنّه ليس هناك أي ضمان بأن يكون هناك شخص آخر يُمكن أن يتدخّل من أجل مساعدة ذلك الطفل المعين. إحساسهم بالعدالة مُرضٍ، لأنهم كانوا يدعمون طفلًا واحدًا فقط، وهذا بوجه عام لا يُشكّل عبئًا مرهقًا، وكانوا يعرفون أن هناك أناسًا آخرين عديدين كانوا يفعلون الأمر نفسه. وعلى الرغم من أن الطفل كان يعيش في إقليم بعيد، فإن كونهم يمثلون مشروع «فوستر للرعاية الأبوية» للطفل، فقد جعلوا هذا الطفل جزءًا من أسرتهم، وساهموا بذلك في اجتياز عائق ضيق الأفق. والعائق الوحيد الذي لم يمكن اجتيازه كان هو أن الأسلوب الوحيد لمشروع فوستر في الرّعاية الأبوية الذي يمكن به مساعدة الطفل قد تمثّل في التبرُّع بالمال.

هذا يبدو قريبًا قدرَ المستطاع من التنسيق المثالي للاستفادة من مشاعر الناس الأثرياء بحيث يمكن أن يساعدوا الفقراء في البلدان البعيدة. ولكن هذا يحدث بتكلفة؛ لأنّ التبرُّع بالمال لأفراد من الأطفال لا يكون أسلوبًا

(1) مشروع يهدف إلى إيواء الأطفال الذين لا يمكنهم العيش مع آبائهم الأصليين بتوفير الرعاية الصحية والأسرية لهم من خلال العيش مع عائلات جديدة وفقًا لخطة مسبقة تتيح التبني القانوني لهؤلاء الأطفال إلى أن تنتهي المشكلات المعقدة التي أودت بهم إلى تعذر العيش في ظروف أسرهم الأصلية سواء بسبب الفقر أو لأسباب اجتماعية أخرى. وهذا النشاط الأساسي في رعاية الأطفال أصبح يمتد إلى وجوه أخرى عديدة، ومنها الدعم المالي لهم.[المترجم]

مؤثرًا بوضوح في مساعدة الفقراء. فهو لا يساعد العائلات على إعانة أنفسهم، وهو يمكن أن يؤدي إلى الحسد والخصام إذا ما حصل بعض الأطفال على المال ولم يحصل عليه آخرون. إن المشكلات من قبيل نقص مياه الشرب النظيفة وتحسين المرافق الصحية والرعاية الصحية، يمكن العكوف عليها فقط من مشروعات تُقام على مستوى المجتمع بدلًا من الأسرة. هذا ما حققه «مشروع فوستر في الرعاية الأبوية» تأكيدًا لموثوقيته. ولقد أعاد تسمية نفسه «بالمشروع الدولي»، وتحوّل إلى اتجاهٍ يقوم بشكلٍ أكبر على أساس مجتمعي. وهو يبذل قصارى جهده في اللجوء إلى جاذبية فكرة الطفل الذي يمكن التعرف على هُويَّته، بدعوة المتبرعين المحتملين «لرعاية طفل» بمبلغ يتراوح بين 12 و 17 جنيهًا إسترلينيًا (أي: بين 24 و34 دولارًا) في الشهر، ويمكن للرعاة أن يكتبوا الرسائل ويتلقّونها، وأن يزوروا طفلهم الكفيل، وأن يُرسلوا إليه «هدايا صغيرة». ولكن الرعاة المحتملين يُقال لهم أيضًا: «إن مالَكَ لا يذهب إلى الطفل الفرد الذي ترعاه. بحيث يمكن للمشروع أن يكون له استخدام فعَّال للتمويلات، فالمال يُستخدَم في صندوق مالي يتلقى مساهمات من رعاة آخرين لدعم البرامج في إفادة المجتمعات في كل مكان»[1].

النوع الصحيح من التنبيه

فَهم السلوك البشري جعَلَ من الممكن لبعض الدول أن تحقق زيادات مؤثرة في معدل التبرُّع بالأعضاء. هل يمكن تطبيق ذلك على التبرُّع للفقراء أيضًا؟ في ألمانيا 12% فقط من السكان مُسجَّلون لأن يصبحوا متبرّعين بالأعضاء إذا كان هذا التبرُّع مترتبًا على حادثة يترتب عليها الإعلان عن موت المخ لديهم. وفي النمسا، نجد الرقم المناظر مُدهِشًا بنسبة تبلغ 99.98%. إنَّ الألمان والنمساويين ليسوا مختلفين كثيرًا في الخلفية الثقافية، فلماذا إذًا يكون النمساويون أكثر استعدادًا بشكل أكبر كثيرًا للتبرُّع بأعضائهم؟ فمن الأرجح ألّا يكونوا كذلك. هذا الاختلاف يمكن تفسيره على أساس أنك في ألمانيا يجب أن تضع اسمَك على نظام التسجيل لكي تُصبح متبرعًا بالأعضاء محتملًا، أمّا في النمسا فأنت تكون متبرعًا بالأعضاء محتملًا، ما لم تعترض على ذلك. هذا النمط نفسه ينطبق عبر أوروبا كلها. في البلدان التي يُوجَد فيها

(1) Plan International, «Sponsor a Child: Frequently Asked Questions,» www.plan-international.org/sponsorshipform/sponso faq/, accessed January 16, 2008.

نظام «قبول الاشتراك في التسجيل» opt in تكون **أعلى** نسبة للمتبرعين المسجَّلين -حتى بعد حملات العلاقات العامة- هي 27.5%. وفي سبعة أقطار يُوجَد فيها نظام رفض الاشتراك في التسجيل opt out تكون **أدنى** نسبة للمتبرعين المحتملين هي 85.9%[1]. وتمامًا مثلما أننا نميل إلى أن نترك بلا تغيير النُظم المسجَّلة على الكومبيوتر كما وضعها مَصنع الكومبيوتر، كذلك فإن الأنواع الأخرى من «نظم التشغيل التلقائية» defaults يمكن أن تُحدِث اختلافًا كبيرًا على سلوكنا، ويمكن في حالة التبرُّع بالأعضاء أن تنقذ حياة الآلاف من الناس.

وهناك موجة جديدة من الاهتمام بالكشف عن الكيفية التي يتم بها تشكيل الاختيار بحيث يمكن للناس أن يتخذوا قرارات أفضلَ. ريتشارد تالر Richard Thaler وكاس سانشتين Cass Sunstein -وهما أستاذان في الاقتصاد والقانون- شكَّلا فريقًا للكتابة عن «**التنبيه بالنخز: تحسين القرارات بشأن الصحة والثروة والسعادة**» *Nudge: Improving Decisions About Health, Wealth and Happiness*، وهو كتاب يدعو إلى استخدام نُظُم التشغيل التلقائية لكي تُنبّهنا بحيث نتّخذ اختيارات أفضل[2]. وحتى عندما نختار في إطار مصالحنا، فإننا غالبًا ما نختار بشكل غير حكيم. فعندما يكون لدى الموظفين اختيار المشاركة في منظومة لمدخرات التقاعد؛ فإن الكثيرين لا يفعلون ذلك، رغم المزايا المالية لفعل ذلك. وإذا كان ربُّ عملِهم بدلًا من ذلك قد أدرَجَهم تلقائيًا في المنظومة، وأعطاهم حقَّ الاختيار في الخروج من المنظومة؛ فإنَّ نسبة المشاركة في المنظومة سوف تقفز بشكلٍ مؤثِّر[3]. والدرس المستفاد هو أنَّ الأمر لا يتطلَّب الكثير من التنبيه لتجاوز حالة اللامبالاة التي تعترض طريق فعلنا لما نعرف أنه سيكون أفضل بالنسبة إلينا. إنَّ النوع الصحيح من التنبيه بالنخز -سواء جاء من الحكومة والمؤسسات والمنظمات التطوعية، أو حتى من أنفسنا- يُمكن أيضًا أن يساعدنا على فعل ما نعرف أننا ينبغي أن نفعله في واقع الأمر.

---

(1) Eric Johnson and Daniel Goldstein, «Do Defaults Save Lives?» *Science* 302 (November 2003), pp. 1338-39), I owe this reference to Eldar Shafir, whose comments on this topic was very helpful.

(2) Richard Thaler and Cass Sunstein,*Nudge: Improving Decision about Health, Wealth and Happiness* (New Haven, CT: Yale University Press, 2008).

(3) Brigitte Madrian and Dennis Shea, «The Power of Suggestion: Inertia in 40 (k), Participation and Savings Behavior»; *Quarterly Journal of Economics* 116-4 (2001), pp. 1149-87.

بنك بير ستيرنز Bear Stearns[1] الذي يتاجر في الاستثمارات والسندات البنكية -قبل بيعه لبنك مورجان تشيس JPMorgan Chase خلال أزمة الرهن العقاري في سنة 2008- قد استوثق من أن قياداته لم تمنعها أية حالة من اللامبالاة أو الأنانية عن فعل الأمر الصحيح. إحدى المبادئ الموجِّهة التي تم وضعها على موقعه على شبكة المعلومات كانت التأكيد على الالتزام بالإحسان، على أساس من الإيمان بأن الالتزام الشخصي بالإحسان هو دعامة أساسية للمواطنة الصالحة وتعمل على تربية فرد أكثر كمالًا. لم يكن هذا نافذة للزينة. المديرون الإداريون الكبار -وهم تقريبًا ألف من الموظفين الذين يتقاضون أعلى الرواتب- قد طُلِب منهم التبرُّع بنسبة 4% على الأقل من رواتبهم ومكافآتهم السنوية لمنظمات غير هادفة للربح، وكان عليهم أن يسلّموا كشوف ضرائب أرباحهم للتأكّد من أنهم فعلوا ذلك. تبرّع المديرون من أجل الإحسان بأكثرَ من 45 مليونَ دولارٍ سنة 2006. وقال جيمس جاين James Gayne -رئيس الشركة في ذلك الوقت- إنَّ هذه القاعدة هي جزء من ثقافة الشركة، وإنَّ معظم الناس وجدوا أن التبرُّع من أجل الإحسان هو أمر «باعث على الرضا بشكل يفوق الوصف». هذه الرؤية قد تردد صداها بفضل ميشيل سيجالا Michele Segalla -وهي مدير إداري كبير في ذلك الوقت- وجدث أنَّ تلك السياسة «تجعلك تفعل ما تريد أن تفعله بشق السبل». وقد بيَّنت سيجالا أيضًا أن الناس في بنك بير ستيرنز قد تحدثوا عن التبرُّع أكثر مما تحدَّث عنه أولئك الذين يعملون في شركة مالية أخرى سبق لهم العمل فيها. ففي هذه الشركات كان من غير اللائق إثارة هذا الموضوع؛ لأنك لم تكن تعرف أبدًا إن كان زملاؤك من العاملين قد قدموا تبرعًا من قبل. ولكن في بنك بير ستيرنز قد أرسلوا لبعضهم مُذكّراتٍ عن أغراضهم الخيرية، مُنشئين شبكةً معلوماتيةً جعلَت تبرّعَهم أكثرَ تأثيرًا[2].

في مثالٍ على الكيفية التي تُسهم بها ثقافة التبرُّع في التغيير -فقط بعد أربعة أيام على ظهور مقال عن سياسة بنك بير ستيرنز في التبرعات الخيرية الإلزامية في صحيفة New York Times نجد أنَّ جولدمان ساكس Goldman Sachs -الذي لا يُبارى في هذا الصدد- قد أعلن أن هذه الثقافة

(1) بنك شهير يمثل شركة ضخمة في الاستثمارات والسندات المالية البنكية، وقد أفلس هذا البنك في أزمة الرهن العقاري سنة 2008، وبيع البنك لبنك مورجان تشيز برغم القرض الذي قدمه البنك الفيدرالي بنيويورك، فقد بيع البنك نظير 10 دولارات للسهم بعد أن كانت قيمته تزيد على 133 دولارًا. [المترجم]

(2) Louise Story, «A Big Salary With a Big Stipulation: Share It,» *The New York Times*, November 12, 2007.

كانت تُنشئ صندوقًا ماليًا خيريًا يُسمَّى جولدمان ساكس، وأن المشاركين في هذا التمويل قد وافقوا على التبرُّع بجزء من إيراداتهم إلى هذا الصندوق. لم يتم تحديد رقم معين، ولكن جولدمان ساكس أعلن أيضًا أن الصندوق كان يرفع حدود هذا التبرُّع من خلال برنامج تبرّع سنوي من مبلغ 10,000 دولار إلى 20,000 دولار. هذا البرنامج يتلاءم مع المنح الخيرية التي يُقدّمها الموظفون المؤهَّلون للانتخاب، وليس مع المساهمين المشاركين في الصندوق. وهناك الكثير من المؤسسات الأخرى تسمح للموظفين أو تُشجّعهم على الإسهام بوقتهم أو مالهم في أغراضٍ خيريّة. سلسلة متاجر «سوق الأغذية بالجُملة» Whole Foods Market تتبرّع بنسبة 5% كحد أدنى من أرباحها للمنظّمات غير الهادفة للربح، وتمنح الموظفين وقت تفرغ -يصل إلى 20 ساعة سنويًا- لكي يقوموا بالخدمة المجتمعية التطوعية. لقد أنشأت جوجل ذراعها الخيرية المبتَكرة الخاصّة بها، وهي أنَّ منظمة .Google org تتعهّد بتخصيص 1% من أرباحها وأسهمها للمشروعات الجديدة التي يمكن أن تساعد العالم. ومن بين المشروعات التي تدعمها: الطاقة النظيفة، وإعلام الناس في البلدان الفقيرة عن الخدمات الحكومية المتاحة لهم، وإيجاد وسائل للتنبؤ بالجفاف قبل أن يؤدي إلى المجاعة، والتنبؤ بنوع الأمراض المتفشيّة التي تؤدّي إلى أن تصبح أوبئةً. وموظفو جوجل يمكن أن يُكرّسوا 20% من وقتهم للعمل في مشروعات منظمة جوجل[1].

وإذا استقطعت الشركات الكبرى والجامعات وأصحاب الأعمال الآخرين نسبة 1% من مرتّب كل موظف، وتبرعت بالمال للمنظمات التي تكافح الفقر العالمي، ما لم يرفض الموظف الاشتراك في المشروع؛ فإن هذا سوف ينبه الموظفين لكي يكونوا أكثر كرمًا، وسوف يَغِلّ مزيدًا من العائدات المالية بالبلايين لمقاومة الفقر. وقد يتطلّب الأمر بعضًا من إجراء التجارب لإيجاد مستوى «نظام التشغيل التلقائي» الذي سوف يغل مبلغًا أكبر. وإذا كان كثيرًا من الموظفين قد وجدوا صعوبة في النسبة البالغة 1%، فإنَّ الأمر يستحقُّ أن نُحاول تحديدَ نسبةٍ أقلّ من ذلك. إنَّ مقياس النسبة يُمكن تدريجه، مع مستوى آخر من نظام التشغيل التلقائي بالنسبة لأصحاب الإيرادات الأعلى. والنقطة المهمة هنا هي الحفاظ على أن يبقى مستوى التشغيل التلقائي تحت المستوى الذي عنده سوف يودُّ معظم الناس عدم

(1) Katie Hafner, «Philanthropy Google Way: Not the Usual,» *The New York Times*, September 14 (2006), Harriet Rubin, «Google Offers a Map for Its Philanthropy,» *The New York Times*, January 18, 2008.

الاشتراك في نظام التسجيل، بحيث يصبح قبول نظام التشغيل التلقائي شيئًا ما يُمكن أن يفعله كل شخص تقريبًا. وبرغم أنَّ هذه الفكرة قد تبدو غريبة الآن، فإنَّ تبنِّي قليل من الشركات والمؤسسات لها يمكن أن يؤدّي إلى انتشارها.

الاعتراض على معيار المصلحة الشخصية

عندما تجعل الشّركات التبرُّعَ سلوكًا اعتياديًا، وعندما يتحدّث الناس الكرماء عن مقدار المبلغ الذي منحوه، فإنّهم بذلك يفعلون ما هو أكثر من تشجيع الآخرين على أن يفعلوا بالمثل. كما أنّهم بذلك يتحدّون افتراضًا شائعًا يتعلّق بسلوكنا الذي يتغلغل في الثقافة الغربية، وخاصةً في الثقافة الأمريكية، وهو: معيار المصلحة الشخصية.

آلكسيس توكفيل[1] Alexis Tocqueville -ذلك الملاحظ حادّ النظر للذات الأمريكية خلال سنوات تشكل الولايات المتحدة- لاحظَ هذا المعيار حتى في ذلك الوقت؛ إذ كتب سنة 1835: «الأمريكيون يستمتعون بتفسير كل فعل تقريبًا من أفعال حياتهم على أساسٍ من مبدأ المصلحة الشخصية». وقد رأى أنهم بذلك يُقلّلون من شأن إحسانهم الخاص؛ لأن الأمريكيين في نظره -هم مثل كل فرد آخر- تُحرّكهم الدوافع الطبيعية الوقتية في مساعدة الآخرين. ولكنه وجد أن الأمريكيين، على الضد من الأوروبيين، من النادر أن يكونوا مهيئين لتقبّل مثل هذا النوع من المشاعر[2].

على الرغم من الشعبية المتزايدة للإحسان، فإنه في بعض المناطق لا يزال من غير المقبول النظر إليها باعتبارها إيثارًا للغير، وليس إيثارًا بين الأمريكيين فحسب. هيو دافيدسون Hugh Davidson -البريطاني الأصل- كان رئيسًا لشركة بلايتكس Playtex في كندا وأوروبا، وألّف كتبًا عديدة رائجة

---

(1) سياسي ورحالة ومؤرخ فرنسي، وُلد سنة 1805 وتوفي سنة 1859. بعد تجواله في الولايات المتحدة خلال سنتي 1831 و 1832، كتب مؤلفه الشهير بعنوان «الديموقراطية في أمريكا» سنة 1835 الذي يعد مرجعًا مهمًا في دراسة الأوضاع الأمريكية. [المترجم]

(2) Alexis Tocqueville, *Democracy in America*, ed. J. P. Mayer, trans. G. Lawrence (Garden City, N.Y.: Anchor, 1996), p. 546- I owe the reference in this section to Dale Miller, «The Norm of Self-interest,» *American Psychologist* 54 (1999), pp. 1053-60. See also Dale Miller and Rebecca Ratner, «The Disparity Between the Actual and Assumed Power of Self-interest,» *Journal of Personality and Social Psychology* 74 (1998), pp. 53-62, and Rebecca Ratner and Dale Miller, «The Norm of Self-interest and its Effect on Social Action», *Journal of Personality and Social Psychology* 81 (2001), pp. 5-16.

عن التسويق وإدارة الأعمال. وعلى الرغم من أنه أسس مؤسسته الخيرية الخاصة، فإنّه يقول: «لو أنّك كُنتَ شخصًا فاعلًا للخير، فإنّك لا تُخبر أصدقاءك بأنّك تُنفق المال في عمل الخير. فسوف تبدو عندئذ غبيًا لعينًا»[1]. وكما يُوحي ذلك، فإنّ الكثيرين منا يعتقدون، لا فحسب في أنّ الناس **يكونون** بوجه عام مدفوعين بالمصلحة الشخصية، وإنما يعتقدون أيضًا في أنهم **ينبغي** أن يكونوا كذلك، وإن لم يكن بالضرورة بالمعنى الأخلاقي «لما ينبغي»، وإنما بمعنى أنهم سوف يكونون حمقى أو لا عقلاء، إن لم يكونوا أصحاب مصلحة شخصية.

وعلى العكس من ذلك، فعندما يبدو أن الناس يعملون ضد مصالحهم الخاصة، فإننا نكون ميّالين للشك في مسلكهم؛ خاصةً إذا كان مسلكهم مُتدَبرًا بعناية (باعتباره مضادًّا لشيء ما اندفاعي من قبيل القفز فوق قضبان قطار الأنفاق من أجل إنقاذ شخص ما من أن يصدمه قطار قادم). فعندما تدعم شخصيات شهيرة مثل آنجلينا جولي Angelina Jolie أو مادونا Madonna المنظمات التي تُساعد الفقراء؛ فإننا نبحث في مسلكهم عن أسبابٍ أنانية مستترة. ونحن سرعان ما نوافق على القول بأنهم يفعلون ذلك فقط من أجل الشعبية. ولا يُمكن إنكار أن السلوك المتجرد من المصلحة يثير لدينا حالة من عدم الارتياح. وربّما يكون هذا هو السبب في أننا نبتسم بشيء من التسامح عندما نرى مسلك مَن يمنحون قدرًا كبيرًا من المال مقابل حقِّهم في أن تُسمّى بأسمائهم صالة للحفلات الموسيقية أو جناح في متحف للفن: فهذا يُعدُّ مقياسًا لنا على أن المتبرّع ليس متجرّدًا من المصلحة؛ وبذلك فإنه لا ينال من فروضنا عن الدافعية الإنسانية.

هناك دراسات عديدة بحثت في مدى توقعنا لأن يكون سلوك أناس آخرين مدفوعًا بالمصلحة الشخصية. وعلى سبيل المثال: في إحدى الدراسات أُخبِر الطلبةُ عن عرض مبلغ مالي لانتقاد البحث في مرض معين يصيب النّساءَ فقط. وعندما طُلِب منهم أن يُقدّروا نسبة الرجال ونسبة النساء الذين سوف يرفضون العرض، فإنّهم بالغوا كثيرًا في تقدير النسبة التي ستتأثّر فيها الاتجاهات بنوع الجنس. وبالمثل، فإنهم اعتبروا أنه من المفترض أنّ كُلّ المدخنين سيعترضون على زيادة الضريبة على السجائر وعلى القيود المفروضة على التدخين في الأماكن العامة، وأنّه من المفترض أن

(1) David Thomas, «Anonymous Altruists,» *The Telegraph* (UK) *Magazine*, October 27, 2007.

يرتضي كل المدخنين هذه الإجراءات. واقع الأمر أن اتجاهات الناس لم تكن مرتبطة بشكل وثيق بمصلحتهم -أو بافتقارهم إلى المصلحة- في التدخين كما توقّع الطلبة. وعلى حدّ توصيف عالم النفس دال ميللر Dale Miller في مسألة السياسة الجماهيرية public policy: «إن التأثيرات الفعلية الضئيلة للمصلحة الشخصية تظهر بوضوح بارز في مقابل التأثيرات الجوهرية المفترضة للمصلحة الشخصية». وفضلًا عن ذلك، فإن اتجاهات الطلبة الخاصة نحو هذه المسائل كانت غالبًا على الضد من مصالحهم. وعلى سبيل المثال، فإن المشاركين في الدراسة كانوا على الأرجح يعارضون انتقاد البحث في مرض النساء، بينما يتوقعون في الوقت ذاته أن معظم الناس سوف يدعمونه. وهذا أدى بميلر إلى اكتشاف لغز ما، هو: «كيف يمكن تفسير أن الناس يعتنقون نظرية المصلحة الذاتية في الوقت الذي تُقدّم لنا فيه الحياة اليومية دليلًا ضئيلًا عليها؟».[1]

بدأ ميلر بحثه الذي يتوخى الإجابة عن هذا السؤال بتجربة أجراها عالم الاقتصاد روبرت فرانك Robert Frank. عند بدء ونهاية فصل دراسي، سأل فرانك طلبته عما إذا كانوا سيقومون برد مظروف مفقود يحتوي على مبلغ 100 دولار. الطلبة الذين درسوا في ذلك الفصل الدراسي مقررًا في علم الاقتصاد قد تنصلوا من رد المظروف. أما الطلبة الذين درسوا مُقررًا في علم التشريح فلم يفعلوا ذلك[2]. وربما اكتسب طلبة علم الاقتصاد انطباعًا بأن كل فرد يكون مدفوعًا بمصلحة شخصية. (يبرهن علماء الاقتصاد على أن المدخنين يتقبلون زيادات الضرائب على السجائر لأنهم يريدون الإقلاع عن التدخين ويأملون في أن تجعل الضرائب ذلك الإقلاع أكثر سهولة بالنسبة إليهم). ولكنك لستَ بحاجة لدراسة علم الاقتصاد لكي تتأثر بمعيار المصلحة الشخصية. كل شخص في مجتمع متقدم يتلقّى وابلًا من الرسائل عن كيفية توفير أمواله، أو كيفية الحصول على مزيد من المال، أو كيف يبدو مظهره على نحو أفضل، أو كيف يمكنه الحصول على المنزلة الاجتماعية المرموقة. وهذا كله يعزز الافتراض القائل بأن هذه أمور يسعى إليها كل شخص، وأنها بالفعل تُعدّ مهمة.

معيار المصلحة الشخصية قويّ للغاية لدرجة أن نسخة منه تسرى حتى على المنظمات غير الهادفة للربح التي تعتمد على نزعة إيثار الغير [أو الغيرية]

(1) Dale Miller, «The Norm of Self-interest,» *American Psychologist* 54 (1999), pp. 1053-60.

(2) Robert Frank, T. Gilovich, and D. Regan, «Does Studying Economics Inhibit Cooperation?» *Journal of Economics Perspectives* 7 (1993), pp. 159-71.

altruism لدى المتطوعين. عالمتا النفس ربيكا راتنر Rebecca Ratner وجينيفر كلارك Jennifer Clarke طلبتا من المتطوعين لمنظمة «طلبة رافضين للقيادة في حالة سُكر» أن يقرؤوا الطلّبين المقدّمَين من طالبتين ترغبتان في التطوع للمنظمة. الطلبان اختلفا فقط في أنّ إحدى المتقدمتين بالطلب قالت إن أختها قد لقت حتفها بسبب القيادة في حالة سُكر، بينما قالت الأخرى إنها قضية مهمة للغاية. كان المتطوعون أكثر تشجيعًا وتعضيدًا للمتقدمة التي تُوفِّيت أختها، من تشجيعهم وتعضيدهم للمتقدمة الأخرى. وقد اقترحتا راتنر وكلارك أن هذا يرجع إلى أنهم فهموا مشروعية «مصلحتها الشخصية» في القضية. وهم قد نظروا بعين الريبة إلى المتقدمة التي كان لديها دافعية غيرية أكثر عمومية. غير أنه في هذه الحالة -مثلما في حالات أخرى غيرها- يبدو أن الارتياب في أولئك الذين تكون لديهم دوافع غيرية ظاهرة يكون ارتيابًا مُعوِّقًا. فمن غير المرجح أن تحقق هذه المنظمة الأهداف المرجوّة إذا كان دعمها محدودًا في نطاق العدد الضئيل نسبيًّا من الناس الذين عانوا مأساة شخصية بفعل سائق في حالة سُكر[1].

وعلى العكس مما يعتقده كثير منا، فإنّ هناك قدرًا هائلًا من السلوك الغيري الذي يهتم بالآخرين في الحياة اليومية (حتى إذا لم يكن القدر الكافي منه موجهًا نحو الناس الأكثر فقرًا في العالم، على نحو ما بيّنا في الفصل السابق). ومع ذلك، فإن عالم الاجتماع روبرت وُثناو Robert Wuthnow وجد أنه حتى الناس الذين تصرفوا بطريقة غيرية كانوا ميالين إلى تقديم تفسيرات تقوم على مصلحة شخصية -أحيانًا مستهجنة تمامًا- لما قد فعلوه. فهم تطوعوا للعمل من أجل أسباب جيدة، وقالوا لأنّ ذلك «قد منحني شيئًا ما لأفعله» أو «جعلني أخرج من المنزل». وكانوا يُحجمون عن القول: «لقد أردتُ المساعدة».

الأدبيات مليئة بأسماء من قبيل موليير تارتوف Molière's Tartuffe الذي تظاهر بأنه مدفوع بنزعة غيرية، بينما هو في واقع الأمر كان يبحث عمّا يخصّه. وهناك كلمة تصف مثل هؤلاء الناس، وهي: المُراؤون hypocrites. ولكن هناك نماذج قليلة من الناس يكونون غيريين حقًّا ولكنهم يتظاهرون بأنهم مهتمون بمصلحتهم الشخصية، وليست هناك كلمة واحدة -بقدر ما أعلم- تكفي لوصفهم. يقدم لنا وُثناو مثالًا لافتًا

(1) Rebecca Ratner and Jennifer Clarke, «Negativity Conveyed to Social Actors Who Lack a Personal Connection to the Cause,» unpublished Manuscript.

للنظر على هذا النمط في كتابه **أفعال الشفقة** *Acts of Compassion*.
نحن لا نعلم كيف يتحصل جاك كيسي Jack Casey على دخل ما، ولكن قيل لنا إنه يعمل على الأقل خمس عشرة ساعة أسبوعيًا في العمل التطوعي. فهو عضو بالقسم المحلي للمطافئ وفرقة الإنقاذ، وهو يقوم بتدريس مقررات لأطفال المدارس عن الإسعافات الأولية وقواعد السلامة خارج المنزل. وفي إحدى عمليات الإنقاذ، سبح عبر بحيرة جليدية وأنقذ حياة امرأة. ومع ذلك، فإن كيسي ما زال يقول إن مصلحته الخاصة تأتي أولًا. وقد قال: «في مهمة الإنقاذ أكون أنا الرقم الأول، أما الفريق الذي أعمل معه في الإنقاذ فيأتي في المرتبة الثانية، ويأتي المريض في المرتبة الثالثة». ويقول كيسي إنه عندما يسمع الناس يقولون إنهم يريدون الالتحاق بفرقة الإنقاذ من أجل مساعدة الآخرين، فإنه يعلم أن هذا ليس هو الحقيقة: «ففي عمق الأمر البعيد، كل الناس لديهم أسبابهم الأنانية؛ فهم حقًّا يفعلون هذا الأمر من أجل أنفسهم». يُرجِع وُثناو موقف كيسي إلى أنه يأبى أن يُنظَر إليه باعتباره «قلبًا ينفطر» أو «شخصًا يتظاهر بالفضيلة» أو «فاعلًا للخير». وهذا التأبي يأتي -بدوره- من معايير اجتماعية مضادة لأن يكون المرء «محسنًا للغاية» ومضادة لإيماننا بأن «الرعاية بأساليب ما منحرفة عن المألوف، تُعدُّ استثناءً أكثر من كونها قاعدة». ومع ذلك، فإن الكثير جدًّا من الأمريكيين -كما يُبيّن وثناو- يشتركون في عمل تطوعي ما لا يكون منحرفًا عن حس إحصائي ما. فهو يكون منحرفًا فقط من حيث المعيار السائد عن المصلحة الشخصية[1].

هناك كثرة بالغة من الأدلة الأخرى من حولنا تفيد بأنّ الناس يتصرّفون بسبب الدوافع أكثر مما يتصرفون بسبب المصلحة الشخصية. فهم يتركون إكراميات مالية عندما يتناولون العشاء في المطاعم التي لن يعودوا إليها أبدًا، وحتى في المدن التي لا يتوقعون أن يزوروها أبدًا مرة أخرى. وهم يتبرعون بالدم للغرباء، برغم أنه ليس من المحتمل أن يزيد ذلك إمكانية أن يحصلوا على الدم إذا ما احتاجوا إليه يومًا ما. وهم يصوّتون في الانتخابات حتى عندما تكون الفرصة في أن يقلب صوتهم الموازين فرصةً ضئيلة للغاية. وكل هذا يوحي بأن معيار المصلحة الشخصية هو إيمان أيديولوجي، يكون عصيًا على الدحض من خلال السلوك الذي نواجهه في الحياة اليومية. ومع ذلك، فإننا نكون عبيدًا للفكرة القائلة بأنه «من المعتاد» أن نكون

(1) Robert Wuthnow, *Acts of Compassion* (Princton, N.): Princeton University Press, 1990), pp.16,72, 77.

مهتمين بمصلحتنا الشخصية. وحيث إننا نكون حريصين على أن نتلاءم مع كل شخص آخر، فإننا نروى قصصًا عن أفعالنا في الشفقة التي تجعلنا نبدو لهم بمظهر مختلف. ونتيجة لذلك، فإن معيار المصلحة الشخصية يبدو مؤكدًا، وبذلك يواصل الناس سلوكهم. المعيار هو تعزيز الذات، ولكنه ضار من الناحية الاجتماعية؛ لأننا إذا كنا نعتقد أنه لا أحد آخر يتصرف بطريقة غيرية، فمن الأقل احتمالًا أن نتصرف نحن أنفسنا بطريقة غيرية؛ فالمعيار هنا يصبح بمثابة نبوءة تُحقّق نفسها.

عندما كان يتجول في لندن الفيلسوف توماس هوبز Thomas Hobbes -فيلسوف القرن السابع عشر الذي اعتقد اعتقادًا ذاع صيته في أن كل أفعالنا تقوم على مصلحة شخصية- ألقى بعُملة معدنية لشحاذ. رفيقه -الذي كان متحمسًا للتصيد لهذا الرجل العظيم- قال له إنه بذلك الفعل قد دحض الآن نظريته الخاصة. فقد أجاب هوبز بأنّ الأمر ليس كذلك، فقال: إنه منح المال لأنه قد سرَّه أن يرى الفقير سعيدًا. وهكذا فإن هوبز تجنب دحض نظريته من خلال توسيع فكرة المصلحة الشخصية بحيث تتوافق مع قدر كبير من الكرم والشفقة. وهذا يذكّرنا بأن هناك على الجانبين معنى واسعًا ومعنى ضيقًا للمصلحة الشخصية. إن الجدل الدائر منذ وقت طويل حول إذا كانت الموجودات البشرية قادرة على تحقيق غيرية أصيلة، هو جدل -من الناحية العملية- أقل أهمية من السؤال عن الكيفية التي نفهم بها مصالحنا الخاصة. هل سنفهم هذه المصالح بمعناها الضيق، ونركّز على اكتساب الثروة والقوة لأنفسنا؟ هل نعتقد أن مصالحنا يتم الوفاء بها من خلال أسلوب حياة يُظهِر نجاحنا الاقتصادي من خلال استهلاكنا المتفاخر لبنود من الأشياء غالية الثمن قدر الإمكان؟ أم أننا سنضع من بين مصالحنا الإشباعات التي تأتينا من خلال مساعدة الآخرين؟ إنّ أعضاء «رابطة الـ 50%» وجدوا أن تبرعاتهم قد منحت الحياة معنى وامتلاءً، بل «بهجة»، ومن دون ذلك لكانت حياتهم أقل جدارة. فهل يجعل ذلك تبرعهم ذا مصلحة شخصية؟ لو كان الأمر هكذا، فإنّنا سنكون بحاجة إلى مزيد من الناس ذي المصلحة الخاصة على تلك الشاكلة؟

الحقائق المتعلّقة بالإعانة

6 - كم يتكلف إنقاذ حياة، وكيف تتحقق من الجمعيات الأهلية التي يمكن أن تؤدي هذه المهمة على أفضل نحو؟

البرهان على أننا ينبغي أن نفعل المزيد من أجل إنقاذ حياة الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع، يَفترض مسبقًا أن نكون قادرين على ذلك الفعل، وبتكلفة معتدلة. ولكن هل نستطيع؟ وإن كُنّا نستطيع، فما المنظمات التي ينبغي أن نتبرّع لها؟ لقد شرع هولدن كارنوفسكي Holden Karnofsky وإيلي هاسِنفيلد Elie Hassenfield في التصدّي لهذه التساؤلات منذ سنوات قليلة. كانا في منتصف العشرينيات في سنة 2006، وكانت عوائد صندوق التأمين ضد المخاطر الذي تدفعه لهما ولاية كونيكتيكت نظير عملهما بالصندوق، أكبر بكثير مما يُمكنهما إنفاقُه بشكلٍ معقول. وقد أرادا أن يتبرّعا ببعض أموالهما للعمل الخيري، ولكنهما سرعان ما وجدا أن التبرُّع ليس بالأمر السهل. لم يرغب كرانوفسكي وهاسنفيلد -الموظفان الناجحان- أن يستثمرا أموالهما في شركة ما، ما لم يحصلا أولًا على معلومات تفصيلية عن مبادئها الأساسية. وهما الآن يريدان أن يفاضلا بالمثل بناء على معرفة جيدة بين المؤسسات الخيرية التي أسهما فيها. بمساعدة ستة من أصدقائهم بدآ يطلبان من المنظمات المعلومات التي تُبرهن على تأثير عملها. وقد تلقيا ردًّا على طلبهما، كما يقول أحد الزملاء: «كثرة من المواد الإعلامية التسويقية التي تبدو لطيفة -كما تعلم- من قبيل: صور لأغنام تبدو سعيدة ولأطفال يبدون سعداء، ولكنها بخلاف ذلك لا نفع فيها إلى حد كبير». ومن ثم، فقد بدآ في الاتصال بالمؤسسات الخيرية مباشرةً، وتوجيه أسئلة تفصيلية لها عما فعلت بأموالها، وعن الدليل على أن هذه الأموال كانت تُحقِق ما كان مقصودًا أن تُحقِّقَه. وقد بدا من الصعب بشكلٍ لافتٍ للنظر الحصول على إجابة مباشرة. إحدى الهيئات الممثلة غير الهادفة للربح اتهمتهما بمحاولة سرقة المعلومات الخاصة بملكيتها. وهيئة أخرى أجابت بأن المعلومات التي يسعون للحصول عليه تُعدُّ سرية.

اكتشاف المؤسسات الأهلية التي تُحدِث بالفعل فرقًا

ربما تكون قد سمعت عن الأسئلة التي تُثَار حول استخدام المنظمات الخيرية المتنوعة للأموال -وبوجه خاص عن الأموال التي تجمعها- وكيف تذهب بالفعل لمساعدة الناس المستهدَف مساعدتهم، بدلًا من أن تذهب إلى تغطية التكلفة الإدارية لمكتب المقر. «موقع ملّاح الإحسان على شبكة المعلومات» Website Charity Navigator يركّز الانتباه على هذه المشكلة من خلال نشر قائمة بعشر من المنظمات الخيرية التي لديها أعلى معدل من التكاليف الإدارية بالنسبة للإيرادات. وبينما أكتب هذا الكتاب، اعتلت هذه القائمة منظمة تبلغ تكاليفها الإدارية نسبة 77% من الأموال التي تجمعها. ولسوء الحظ، فإن عدم الكفاءة أو الاحتيال الصريح للمنظمات الخيرية غالبًا ما يضرّ بالتبرّعات لجماعات أكثر فاعلية. وقد لا تريد كذلك أن تقدم المائة دولار التي لديك حتى إذا كانت هناك فرصة لأن تكون ثلاثة وعشرون فقط منها سيتم استخدامها بشكل فعّال.

«موقع ملّاح الإحسان» -الذي بدأ سنة 2001- يزعم أنه الموقع الأكبر والأكثر استخدامًا على نطاق واسع في أمريكا الذي يقوم بتقييم المنظمات الخيرية. فهو يقوم بتجميع معلومات مفيدة، تشتمل على النسب المئوية من الإيرادات التي تنفقها هذه المنظمات على الشؤون الإدارية. هذه الأرقام تبيّن لنا أن منظمات الإغاثة الكبرى تُبقِي تكاليفها الخاصة بالنواحي الإدارية وجمع الأموال في حدود أقل من 20% من مجمل دخلها، وأحيانًا أقل كثيرًا من ذلك. ومع ذلك فإن تقييمات «موقع ملاح الإحسان» لا تجيب عن الأسئلة الأساسية لكارنوفسكي وهاسينفيلد: كيف تعرف أن منظمة الإحسان تساعد الناس المستهدف إعانتهم؟ أحد الأسباب في أن الأرقام لا تَروي بالضرورة القصّةَ كاملةً هو أنّ هذه الأرقام تكون مستمدّةً من الاستمارات التي تملؤها المنظمات بنفسها وتُرسلها إلى سُلطات الضرائب. فلا أحد يفحص الاستمارات، وتجزئة الميزانية بين تكاليف الإدارة وتكاليف البرنامج يمكن معالجة بياناتها بقليل من الكفاءة المحاسبية. وعلى سبيل المثال: الموظفون العاملون في المكتب الرئاسي لمنظمة ما قد يقومون بعمل إداري ما في برنامج إغاثي مثلما يقومون أيضًا بمهام مكتبية روتينة إضافية. وفي تلك الحالة فإن وقتهم قد يكون مخصصًا بشكل كبير لبرنامج الإعانة، بحيث إن نسبة كبيرة من مرتباتهم تكون بياناتها مجدولة باعتبارها جزءًا من ميزانية الإعانة، بدلًا من اعتبارها جزءًا من التكاليف الخاصة بالعمل

المكتبي. ومع ذلك، فإن هناك مشكلة أكثر أهمية تتعلق بالتركيز على مقدار إيرادات الدخل الذي تنفقه المنظمة الخيرية على الشؤون الإدارية، وهي أن هذا الرقم لا يخبرك بشيء على الإطلاق عن مدى تأثير هذه المنظمة. والواقع أن المجهود الذي تبذله المنظمة لكي تُبقي التكلفة الإدارية أقل، يمكن أن يجعل المنظمة أقل فاعلية. وعلى سبيل المثال: إذا قامت وكالة لمنظمة ما تعمل على تقليل الفقر العالمي بفصل الموظفين من ذوي المعرفة الخبيرة بالبلدان التي يعملون فيها، فإن الوكالة ستكون لديها تكاليف إدارية متدنية، وقد يبدو بذلك أنها تتحصل على نسبة أعلى من الأموال التي تتلقاها من أجل الناس المحتاجين. ولكنها بعد استبعادها لخبرائها من جدول المرتبات، فإنها على الأرجح تمامًا أن تُوقِف تمويل المشروعات التي تفشل. وهي قد لا تتبين حتى المشروع الذي يمكن أن يفشل من بين مشروعاتها؛ لأن تقييم المشروعات والتعلم من الأخطاء يتطلب هيئة من الموظفين من ذوي الكفاءة العالية، وأن تدفع لهم حوافز تُضاف إلى التكاليف الإدارية.

لقد كان كارنوفسكي وهاسينفيلد مندهشين من أن منظمات الإحسان لم تكن مهيئة للإجابة عن الأسئلة التي تتجاوز مثل هذه المؤشرات على الكفاءة التي قد تكون سطحية والتي من المحتمل أن تكون مضلِّلة. وفي آخر الأمر، أدركا شيئًا ما بدا بالنسبة إليهما بالغ الغرابة: فالسبب في أنهما ما كانا يتحصلان على المعلومات التي يريدان من المنظمات الخيرية، هو أنَّ هذه المنظمات نفسها ليس لديها هذه المعلومات. وفي معظم الحالات، لم تكن المنظمات الخيرية، ولا أيٌّ من الوكالات المستقلة، تقوم بالتقييم الصارم عن مدى الفاعلية التي افترضتها خلفية إدارة الاستثمار لدى كارنوفسكي وهاسينفيلد باعتبارها الأساس الضروري الذي بناءً عليه يتخذ المتبرعون الكبار قراراتهم بشأن التبرع. وإذا لم تكن المعلومات موجودة؛ فإن كلًّا من الأفراد المتبرعين والمؤسسات الكبرى كانوا يتبرعون إذًا بمبالغ ضخمة ولديهم فكرة ضئيلة عن مدى تأثير تبرعاتهم. فكيف أمكن إنفاق مئات البلايين من الدولارات من دون دليل ما على أن المال سوف يُستثمر في فعل الخير؟

وبعد تحديد المشكلة، قرر كارنوفسكي وهاسينفيلد أن يفعلا شيئًا بشأنها. وقد أسّسا سنة 2007 منظمة «العطاء الحسن» Give Well، وهي منظمة غير هادفة للربح مكرَّسة لتحسين شفافية المنظمات الخيرية وفاعليتها. وقد خطَّطا في البداية لإدارة المنظمة في أوقات فراغهم. ولكن

سرعان ما بدا واضحًا أن المهمة تتطلب تفرّغًا كاملًا؛ وهكذا فإنهما بعد أن جمعا في السنة التالية 300,000 دولار من زملائهم العاملين، تركا عملهما في صندوق التأمين ضد المخاطر، وبدآ في العمل لصالح منظمة «العطاء الحسن» ورابطتها الأساسية المانحة، وهي «التمويل الشفاف». وقد قاما بدعوة المنظمات الخيرية إلى التقدّم للحصول على منح بمبلغ 25,000 دولار لصالح خمس فئات إنسانية واسعة، مع استيفاء بيان يُطالب هذه المنظمات الخيرية أن تقدم المعلومات التي تبرهن على أنها تحرز تقدمًا قابلًا للقياس فيما يتعلق بتحقيق أهدافها، ويبين تكلفة إنجازاتها. وبذلك النحو، فإنّ المال الذي تجمعه منظمة «العطاء الحسن» يكون فعّالًا بطريقتين مختلفتين. جزءٌ مهم من هذا المال -أي المِنَح التي تبلغ 25,000 دولار- يذهب إلى المنظمّة الخيريّة الأكثر فاعلية في كلّ فئةٍ من الفئات الخمس، وبذلك يتمُّ دعمُ عملها. وفي الوقت ذاته، فإنَّ وجود المِنَح يُشجّع المنظمات الخيرية على بذل مزيدٍ من الجهد من أجل تقييم فاعلية ما تفعله. ومن بين الفئات الخمس، فإن الفئة الأكثر ارتباطًا باهتمامنا هي «إنقاذ حياة الناس في إفريقيا». وحيث إن إفريقيا لديها ثلث فقراء العالم فقرًا مُدقِعًا، بالإضافة إلى أعلى المعدلات العالمية لوفيات الأطفال وأقصر متوسطات الأعمار؛ فإن مساعي منظمة «العطاء الحسن» هي فقط الإفادة بالمعرفة التي نحتاجها للإجابة عن الأسئلة التي أثارها البرهان الذي طرحه هذا الكتاب: هل من الصحيح أن التبرُّع الأكثر تواضعًا نسبيًا إلى وكالة من وكالات الغوث، يمكن أن يُنقِذ حياةً ما؟ وإذا كان هذا صحيحًا، فما الوكالات التي تقوم بذلك على أفضل نحو؟

ما الذي يتكلفه حقًّا إنقاذ حياة ما؟

من أجل إنقاذ الحياة على نطاق واسع، فإنّه من الصعب في هذا الشأن مقارعة بعض الحملات التي تُدشّنها «منظمة الصحة العالمية» World Health Organization (WHO)، وهي ذراعٌ للأمم المتّحدة تأسست سنة 1948 من أجل إدارة الشؤون الصحية العالمية. وكان من بين أهم منجزاتها: ريادتها في معركتها من أجل إنهاء مرض الجدري الذي قَتلَ ما بين 300 إلى 500 مليون شخص خلال القرن العشرين[1]. ففي سنة

(1) David Koplow, *Smallpox: The Fight to Eliminate a Global Scourge* (Berkeley, CA: University of California Press, 2003).

1967 -وهي السنة التي بدأت فيها منظمة الصحة العالمية جهدًا منظّمًا لمحو مرض الجدري smallpox- كان هذا المرض لا يزال يقتل 2 مليون شخص في السنة. وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة، زال المرض، وتم عزله في اثنين من المعامل الطبية عالية الأمان. كما أن منظمة الصحة العالمية قد لعبت دورًا بارزًا في مكافحة مرض العمى النهري river blindness[1]، وهو طفيل يصيب العين والجلد، وقد أصاب 18 مليون إفريقي، ونتج عنه إصابة حوالي 300,000 بالعمى. وقد حال هذا البرنامج حتى يومنا هذا دون إصابة 600 ألف شخص بالعمى، وأتاح إمكانية إعادة تأهيل بقاع شاسعة من الأرض التي فرّ منها الناس لاجتناب هذا المرض. ومن المأمول أن يكون العلاج بحلول سنة 2010 متاحًا لكل شخص يصيبه هذا المرض، وأن يكفّ هذا المرض عن أن يكون مشكلة صحية شائعة. كما أنّ حملات التحصين التي قامت بها منظمة الصحة العالمية ضد مرض الحصبة measles في جنوب إفريقيا قد ساعد على تقليل خسائر الأرواح من 60,000 طفل في سنة 1996 إلى 117 طفلًا في سنة 2000[2].

هذه الحملات التي قامت بها منظمة الصحة العالمية أنقذت حياة الناس، وحالت دون الإصابة بالعمى. ولكن بأي قدر من الكفاءة استخدمت هذه الحملات مصادرها التمويلية، أي كم تكلفت نظير إنقاذ حياة الشخص الواحد؟ وإلى أن نقترب أكثر من الإجابة عن هذا السؤال، فإنه سيكون من الصعب أن نقرر كيف يمكن استخدام أموالنا بأكبر قدر من الكفاءة. فالمنظمات عادةً ما تنشر أرقامًا توحي بأنّ حياة الناس يمكن إنقاذها نظير مبلغ ضئيل جدًّا من المال. وعلى سبيل المثال تُقدّر منظمة الصحة العالمية أن الكثير من بين 3 مليون شخص ممن يموتون سنويًا بسبب الإسهال ومضاعفاته، يمكن إنقاذ حياتهم من خلال وصفة طبية بالغة البساطة لعلاج الإسهال عن طريق الفم: مقدار كبير من الملح الُمذاب مع حفنة من السكر في إبريق من الماء النظيف. هذا الدواء المنقذ للحياة يُمكن تركيبه نظير سنتات قليلة، فقط إذا كان للناس معرفة به[3]. وفي تقدير

(1) مرض ينشأ عن نوع من الطفيليات الخيطية للتوية كلابية الذنب، والتي تُوجَد في شكل عُقيدات تنشأ تحت الجلد ويتم استئصالها بالجراحة. ومع ذلك، فقد ظهرت فيما بعد أدوية حديثة لعلاج هذا المرض [المترجم]

(2) Center for Global Development, «Millions Saved: Proven Success in Global Health,» 2007 edition, www.cgdev.org/doc/millions/Millions_Saved_ 07.pdf, based on Ruth Levine and the What Works Working Group with Molly Kinder, *Millions Saved: Proven Success in Global Health*, 2nd ed. (Boston: Jones and Bartlett, 2007).

(3) Andrea Gilden, «A simple Solution,» *Time*, October 8, 2006. See also The Rehydration Project, http://rehydrate.org/facts.

منظمة «اليونيسف» أنَّ مئات الآلاف من الأطفال الذين ما زالوا يموتون بسبب الحصبة كل سنة يُمكن إنقاذُهم بتطعيم يتكلَّف دولارًا واحدًا لكل جرعة[1]. كما أن هناك منظمة «لا شيء سوى الشِباك» Nothing But Nets، وهي منظمة من ابتكار الكاتب الأمريكي المتخصص في الرياضة ريك ريلي Rick Reilly، ودعمتها «الرابطة القومية لكرة السلة» National Basketball Association، تقوم بتوفير ستائر الفراش الشبكية الواقية من الناموس من أجل حماية الأطفال في إفريقيا من الملاريا التي تقتل مليونًا منهم كل سنة. وتذكر منظمة «لا شيء سوى الشباك» في نشراتها أن ستارة شبكية بسعر 10 دولارات يمكن أن تنقذ حياة ما: «لو أنَّك منحتَ 100 دولار لمنظمة «لا شيء سوى الشباك»، فإنك بذلك تكون قد أنقذت حياة 10 أشخاص»[2].

لو أمكننا قبول هذه الأرقام؛ فإن مهمة منظمة «العطاء الحسن» لن تكون صعبة. فكل ما عليها فعله لكي تعرف المنظمة التي يمكن أن تنقذ حياة الناس في إفريقيا بأقل تكلفة هو أن تختار الرقم الأدنى. ولكن في حين أن هذه الأرقام المتدنية تُعدُّ بلا شكّ جزءًا مهمًا من جهود المنظمات الخيرية من أجل اجتذاب المتبرعين؛ فإن هذه الأرقام -للأسف- ليست مقياسًا دقيقًا للتكلفة الحقيقية لإنقاذ حياة ما.

خذ على سبيل المثال ستائر الفراش الشبكية. فهي -لو استُخدِمت على النحو الصحيح- تمنع الناس من التعرّض لِلَدغ البعوض في أثناء نومهم؛ وبذلك فإنها ستقلل من خطر الإصابة بالملاريا. ولكن ليس كل ستارة شبكية تنقذ حياة ما: فمعظم الأطفال الذين يحصلون على ستارة شبكية كانوا سيبقون على قيد الحياة من دونها. جيفري زاكس يحاول قياس تأثير الستائر الشبكية بدقة أكبر، واضعًا هذا في اعتباره، ويستنتج أنه مقابل كل مائة ستارة شبكية يتم توصيلها، سوف ينجو طفل واحد في السنة (وفي تقدير زاكس أن الستارة الشبكية الواحدة تتحمل الاستعمال في المتوسط مدة خمس سنوات). وإذا كان هذا صحيحًا؛ فإنه يترتب على ذلك أن تكلفة 10 دولارات نظير الستارة الشبكية التي يتم توصيلها، تعني أن 1,000 دولار سوف تنقذ حياة طفل واحد في السنة لمدة خمس سنوات؛ وبذلك فإن التكلفة تكون 200 دولار لكل حياة يتم إنقاذها (وهذا التقدير لا يضع في

(1) UNICEF, «Immunization Plus: The Big Picture,» www.unicef.org/immunization/index_bigpicture.html.

(2) www.nothingbutnets.net. Accessed June 12, 2008.

الحُسبان منع الحالات المُنهكة صحيًّا وإن لم تكن مميتة). ولكن حتى إذا افترضنا أن هذه الأرقام صحيحة، فإنه تبقى هناك فجوة فيها؛ فهي تُقدّم لنا تكلفة توصيل ستارة الفراش الشبكية الواحدة، ونحن نعرف من خلالها كم عدد ستائر الفراش الشبكية «المستخدمة» سوف ينقذ حياة ما؛ ولكننا لا نعرف كم عدد ستائر الفراش الشبكية التي يتم توصيلها يكون مستخدمًا بالفعل. وهكذا، فإن الرقم البالغ 200 دولار لا يُعوَّل عليه بشكل كامل؛ وهذا يجعل من الصعب علينا قياس إذا ما كان الإمداد بستائر الفراش الشبكية هو توظيف لتبرعاتنا بشكل أفضل أو أسوأ من المقاييس الأخرى لإنقاذ الحياة.

لقد وجد كارنوفسكي وهاسنفيلد فجوات مماثلة في المعلومات المتعلقة بتأثير تطعيم الأطفال ضد الحصبة. فليس كل طفل يتم تطعيمه كان سيصاب بالحصبة، ومعظم من يصابون بها يتماثلون للشفاء؛ وهكذا فإننا لكي نعرف تكلفة كل حياة يتم إنقاذها، يجب أن نُضاعف تكلفة التطعيم بالضرب في عدد الأطفال الذين يلزم إعطاؤه لهم لكي نصل إلى طفل كان سيموت من دونه. ومداواة الإسهال بمحلول مائي عن طريق الفم قد يتكلف فقط سنتات قليلة، ولكنه يتكلّف مالًا لأجل توصيله إلى كل بيت وكل قرية بحيث يكون متاحًا عندما يحتاج إليه طفل ما، ولأجل تعليم الأُسر كيفية استعماله. وقد بينت إحدى الدراسات أن تكلفة إنقاذ حياة ما من خلال تزويد الناس بمعرفة عن مرض الإسهال وكيفية مداواته يمكن أن تكون ضئيلةً بمقدار 14 دولارًا في المناطق التي يكون فيها المرض هو الأكثر شيوعًا، ولكنه يتكلف 500 دولار في المناطق التي يكون فيها الإسهال أقل انتشارًا[1]. وإذ يضع عالم الاقتصاد وليام إيسترلي William Easterly كل هذه العوامل في الحسبان، فإنه يرى أن برامج منظمة الصحة العالمية لتخفيض الإصابات بأمراض الملاريا والإسهال والجهاز التنفسي والحصبة تتكلف 300 دولار لكل حياة يتم إنقاذها[2].

في سنة 2007، نشرت منظمة «العطاء الحسن» نتائج فحصها

(1) John Peabody, Mario Taguiwalo, David Robalino, and Julio Frenk, «Improving the Quality of Care in Developing Countries,» in Dean Jamison et al., eds. *Disease Priorities in Developing Countries*, 2nd ed. (New York: Oxford University Press, 2006), p. 1304. Available online as part of Health Systems, a publication of the Disease Control Priorities Project, International Bank for Reconstruction and Development/ The World Bank, files.dcp2.org/pdf/expressbooks/healths.pdf.

(2) William Easterly, *The White Man's Burden* (New York: The Penguin Press, 2006), p. 252.

للمنظمات الخيرية التي تعمل على إنقاذ حياة الناس وتحسين الصحة في إفريقيا. ولقد غطّى الفحص تسعًا وخمسين منظمة فقط من المنظمات التي تقدّمت بطلب الحصول على منحة من منظمة «العطاء الحسن»؛ وقد قدّمت خمس عشرة منها فقط معلومات سديدة. أمّا بقية المنظمات فقد وصفت أنشطتها، وقدمت حكايات أو مقالات صحفية عن مشروعات معينة، ولكنها لم تقدم دليلًا مفصّلًا يُبيّن عدد الناس الذين استفادوا وكيف استفادوا من أنشطة المؤسسة، وما الذي تتكلفه تلك الأنشطة.

منظمة «العطاء الحسن» أعطت أعلى درجة تقييم لمنظمة مقرّها في واشنطن العاصمة تُسمّى «الدولية لخدمات السكان» Population Services International (PSI)، وهي منظمة ترى أن مهمتها هي تسخير حيوية القطاع الخاص لينكب على المشكلات الصحية للفقراء في البلدان النامية. تبيع هذه المنظمة الواقيات الذكرية وستائر الفراش الشبكية ومُعالِجات تنقية المياه، وعلاجات للملاريا والإسهال، وتعلم الناس أساليب استخدامها. وهي تبيع المواد بتكلفتها الزهيدة لأن الدليل يُبيّن لنا أن الأرجح هو أن يستخدمها الناس على النحو الصحيح إذا كانوا قد دفعوا ثمنًا لها. وفي سنة 2005 باعت هذه المنظمة 8.2 مليون ستارة فراش شبكية بتكلفة 56 مليون دولار. وباستخدام منظمة «العطاء الحسن» تقديرًا إحصائيًا أكثر تحفظًا من تقدير جيفري زاكس عن عدد الأطفال الذين ينامون تحت ستارة فراش شبكية ويسمح بإمكانية استخدام هذه الستائر الشبكية بنسبة 50% إلى 80% من الوقت، فإن المنظمة تتبرّع بمبلغ يتراوح بين 623 دولارًا إلى 2,367 دولارًا كتكلفة لكل حياة يتم إنقاذها بالوقاية من الملاريا. التقدير الإحصائي الخاص بالمنظمة هو 820 دولارًا، وهو رقم يقع بين أعلى وأدنى تقدير للمنظمة، ولكنه يظل أكبر بمقدار أربعة أضعاف من تقدير زاكس.

بالنسبة إلى كبرى الأنشطة الأخرى «للمنظمة الدولية لخدمة السكان»، وهي الإعلان عن الواقيات الذكرية وتوزيعها، فإن منظمة «العطاء الحسن» قَدَّرت إحصائيًا أن الوقاية من كل إصابة بفيروس نقص المناعة المكتسب HIV تتكلّف ما بين 200 دولار و700 دولار. (وفي البلدان الفقيرة حيث تكون الأدوية الكابحة للفيروسات غير متاحة، فمن الأرجح إلى حد كبير أن يكون فيروس نقص المناعة قاتلًا).

برنامج «المنظمة الدولية لخدمة السكان» لأجل إنقاذ أرواح من الإسهال يُمثّل جزءًا صغيرًا نسبيًا من ميزانيتها، ولذلك فإن منظمة «العطاء

الحسن» لم تدرسه بشكل تام مثلما درست الأجزاء الأخرى من إجراءات «المنظمة الدولية لخدمة السكان»، ولكن ربما يكون هذا الجزء هو الأكبر من حيث فاعلية التكلفة. توزع «المنظمة الدولية لخدمة السكان» منتجات يُمكن إذابتُها لكي تكون صالحةً للشرب ولكي تمنع الإسهال. وهي توزّع أيضًا محاليل علاجية للتناول عن طريق الفم. التقدير الإحصائي التقريبي لمنظمة «العطاء الحسن» هو أنَّ هذا البرنامج يتكلّف 250 دولارًا نظير كل حياة يتم إنقاذها. وحيث إنَّ هذا البرنامج يمثل جانبًا صغيرًا من أنشطة «المنظمة الدولية لخدمة السكان»، فإنَّ منظمة «العطاء الحسن»- مع ذلك- تقوم بالتقدير الإحصائي لهذا النشاط في إطار هذه المنظمة ككل: فهي تُنقذ حياةَ الناس بتكلفة تتراوح بين 650 دولارًا و1,000 دولار لكل حياة يتم إنقاذها. إضافة إلى ذلك، فهي تمنع إصابات الملاريا غير المميتة، والأمراض غير المميتة المنتقلة عبر الجنس، وحالات الحمل غير المرغوب فيها، وإصابات الإسهال غير المميتة.

المنظمتان الأخريان الأكثر تأثيرًا في تقدير منظمة «العطاء الحسن» هما منظمتا المساهمين في الصحة وفي الجراحة التجميلية. وقد عرّجنا من قبل على منظمة «المساهمين في الصحة» Partner in Health التي شارك في تأسيسها بول فارمر Paul Farmer ودعمها توم وايت Tom White، وهو عضو في «رابطة الـ 50%». ومنذ بداياتها المتواضعة في هايتي ثم في بيرو، تم توسعة نشاطها الآن بحيث يمتد إلى رواندا وليسوتو Lesotho وروسيا، وهي توفر الرعاية الصحية المجانية لبعض مِن أفقر الناس في العالم. وعلى الرغم من أن تكلفة كل حياة يتم إنقاذها بتوفير خدمات الرعاية الصحية في المناطق الريفية المتصحرة تعد تكلفة مرتفعة نسبيًا -تقدر بمبلغ 3,500 دولار- فإن «المساهمين في الصحة» يوفّرون فوائد صحية أخرى عديدة بالإضافة إلى ما يُقدّمونه من خدمات.

منظمة «الجراحة التجميلية» Interplast لا تُنقذ حياة الناس، ولكن منظمة «العطاء الحسن» وضعتها ضمن هذه الفئة المتقدمة في الترتيب لأنها تُحوّل حياة الناس بطريقة بالغة التأثير. منظمة «الجراحة التجميلية» تصلح التشوهات مثل: الشفة الأرنبية وتشوهات الحَنَك، وتساعد ضحايا الحروق بحيث يمكنهم المشي أو استخدام أيديهم مجددًا. وهي تنظم رحلات لفرق جراحية، وتستخدم متطوعين من الجراحين والمدرَّبين طبيًّا من الولايات المتحدة، وأسست مراكز محلية للتدريب والدعم في

البلدان الفقيرة. والإجراءات المتبعة غالبًا ما تكون بسيطة نسبيًّا، وتكون روتينية في الدول الغنية؛ ولكن بالنسبة إلى الفقراء في العالم النامي يكون الحصول على جَرَّاح أمرًا مستحيلًا غالبًا. منظمة «العطاء الحسن» تقدر إحصائيًّا أن ما تنفقه منظمة «الجراحة التجميلية» في الجراحة التجميلية الواحدة يتراوح بين 500 دولار و 1500 دولار. إجراءات تغيير الحياة توجد في أي مكان، بل إن المراكز الجراحية توجد بشكل أكبر من ذلك في البلدان الفقيرة، حيث غالبًا ما تكون العنصرية التي تُمارس ضد الناس المشوَّهين أكثر قسوة إلى حد كبير منها في البلدان الغنية. ووفقًا لمنظمة «الجراحة التجميلية»، هناك فقط 3% من الأطفال المقعدين يذهبون إلى المدرسة. كذلك فإنَّ الحصول على العمل من الأرجح أن يكون أكثر صعوبة إلى حد كبير، والناس الذين لديهم تشوهات قاسية -خاصة النساء- من الأرجح أن يكونوا أقل قدرة على أن يتزوجوا، وهو ما يزيد إلى حدٍّ كبير من احتمالية عيش النساء في فقر[1]. وبالإضافة إلى فحص المنظمات الخيرية التي تعمل بطريقة مباشرة على تحسين الصحة في إفريقيا، قامت منظمة «العطاء الحسن» بفحص مستقل للمنظمات التي تساعد الفقراء على تحسين دخلهم والمستوى العام لمعيشتهم. وهنا نجد مرة أخرى أن المنظمات الكبرى لم تزود كارنوفسكي وهاسينفيلد بالمعلومات التي يحتاجانها، ولذلك فإنهما قد قلَّصا دائرة تركيزهم على نوع واحد من التدخلات التي يُوجد دليل جيد ما على فوائدها: التمويل متناهي الصغر microfinance.

قصة التمويل متناهي الصغر تبدأ سنة 1976 عندما كان محمد يونُس رئيسًا لقسم الاقتصاد في جامعة تشيتاجونج Chittagong في بنجلاديش. بحثُه عن الفقر في الريف قاده إلى قرية جوبرا Jobra المجاورة، حيث وجد أنَّ النساء كي يشترين الخيزران الذي يحتجن في صناعتهن للأثاث، كُنَّ يَضطرِرنَ إلى الاقتراض من أحد المُرابين الذي كان يفرض معدلات عالية من الفوائد بحيث لم يتمكَّنَّ أبدًا من أن يجدنَ طريقًا خارج مسار الفقر. أخذ يونس ما يعادل 27 دولارًا من جيبه الخاص وأقرضه لمجموعة من نساء القرية يبلغ عددهن اثنتين وأربعين امرأةً. وبشكل لا يُصدَّق، كان هذا المبلغ الضئيل -وهو 64 سنتًا للفرد- كافيًا لكي يضعهن على مسار الاستقلال عن المرابين، وفي النهاية يرددن القرض ويجدن طريقًا خارج مسار الفقر.

شجَّع هذا النجاح يونس على إقناع بنك حكومي بإقراض المال لأجل

(1) www.interplast.org/programs.

مشروع تجريبي سوف يُقدّم قروضًا صغيرة للفلاحين. خلال السنوات الست التالية، قدم المشروع التجريبي آلافًا من القروض، عادةً لمجموعة من النساء. عرفت النساء أنهن إذا لم يقمن بسداد القرض، فإنّ الأخريات في المجموعة لن يصبحن قادرات على الاقتراض، وبذلك فإنه بحكم الواقع العملي كان يتم سداد كل القروض. وهذا الأمر قلب الحكمة الاقتصادية التي كانت مقبولة حتى ذلك الحين، وهي أن إقراض الفقراء ينطوي على مخاطرات عالية، وبالتالي يكون قابلًا للتطبيق فقط إذا كان هناك معدل مرتفع من الفوائد المفروضة على القرض.

في سنة 1982، عندما بدا واضحًا أن التصوّر كان ناجحًا، أسس يونس بنك جرامين Grameen Bank، أو بنك القرية Village Bank، لتقديم القروض في كل أنحاء بنجلاديش. والآن يوجد لدى «بنك جرامين» أكثر من 7 ملايين عميل في بنجلاديش، وقدم قروضًا بقيمة 6 بلايين دولار، وبمعدل تسديد للقروض يصل إلى 97%. والأكثر أهمية هو أن يونس قد أبدع نموذجًا للحساب الائتماني متناهي الصغر، والذي بعد أن أصبح معروفًا قامت باتباعه آلاف من المؤسسات في جميع أنحاء العالم.

ولكن هل تقلل القروض بالفعل من الفقر؟ اذهب إلى موقع مؤسسة القروض متناهية الصغر، وسوف تجد روايات الناس الذين وظّفوا القروض الضئيلة في بناء أعمال ناجحة. «مؤسسة جرامين» Grameen Foundation -وهي مؤسسة خيرية استلهمت أفكار يونس التي تمارس تأثيرها في ثمانية وعشرين بلدًا- تروي قصة ماري كلير Marie-Claire، وهي امرأة من رواندا تربي أربعة أطفال بمفردها. وبحصولها على قرض بمبلغ 40 دولارًا كانت قادرة على أن تفتتح مطعمًا وتكسب من المال ما يكفي لدفع الرسوم الدراسية لأطفالها. كما أن أُرورا ماتياس Aurora Matias كانت تتكسّب معاشًا زهيدًا من بيع شرائح من الخبز وكسرات من الصابون لجيرانها الذين كانوا أفقر من أن يقدروا على شراء رغيف كامل أو قالب صابون. كان بإمكانها بيع المزيد، ولكنها لم يكن لديها المال الكافي لشراء المزيد من البضاعة. وبحصولها على قرض صغير من منظمة «فرصة دولية» Opportunity International -وهي منظمة أخرى للتمويل متناهي الصغر- مكّنتها من أن تشتري بالجُملة، وتبيع أكثر، وتجني أرباحًا أعلى. والآن نمت تجارتها بشكل أكبر أتاح لها توظيف عُمّال، وأصبح لأسرتها بيت أفضل.

هذه القصص ملهمة، ولكن كارنوفسكي وهاسنفيلد قد أرادا أن يعرفا إلى أي حدٍّ تُعدُّ هذه الحالات ممثلة للناس الذين يتلقّون حسابًا ائتمانيًا متناهي الصغر. وقد قرآ بعض الأبحاث التي تُبيّن أنَّ أولئك الذين يحصلون على قروض يصبحون عادةً أفضل حالًا؛ ولكنهما ما زالا بحاجة لأن يقتنعا بأن القروض كانت مسؤولة عن هذا التحسّن. فربما يكون الأمر هو أن الناس الذين يكون لديهم روح المبادرة الكافية في الحصول على القروض سيكونون أفضل حالًا بأيٍّ شكلٍ من الأشكال. وبعد ذلك قرأ كارنوفسكي وهاسنفيلد دراسة أقنع فيها الباحثون منظمة للتمويل متناهي الصغر في جنوب إفريقيا بأن تختار عشوائيًا بعض المتقدمين لنيل القروض الذين فشلوا بشق الأنفس في الوفاء بمعايير تلقّي القرض. وقد جعل ذلك من الممكن مقارنة أولئك الذين تم اختيارهم عشوائيًا لتلقي القروض بأولئك الذين فشلوا بشق الأنفس في الوفاء بالمعايير، ولكنهم لم يتم اختيارهم في الموافقة التالية. وجدت الدراسة أنّه ما بين الشهور الست، والاثني عشر شهرًا التالية قد حصلوا على الأرجح على وظائف، وأن 6% على أقل ترجيح عانوا من مجاعة قاسية بين أفراد أسرهم، وأن 7% على أقل ترجيح قد تم تصنيفهم باعتبارهم قد افتقروا. وحيث إن المجموعتين قد تم اختيارهما عشوائيًا؛ فإنه يبدو أن القرض أحدث فرقًا. وبشكلٍ عَرَضي فإنَّ فوائد القروض أصبحت بدورها تُدر نفعًا على المُقرِض[1].

حتى إذا كانت القروض الصغيرة لا تصنع دائمًا مقاولي أعمال ناجحين، فإنها بالفعل تساعد الفقراء على مواجهة الطوارئ المالية. وهي أحيانًا تجعل من الممكن لهم أن ينالوا قوت يومهم بشكل كافٍ طيلة السنة. فعندما يمرَض شخص ما، فإن الأسرة قد تجمع المال لتدفع تكلفة زيارة الطبيب بأن تبيع بقرةً أو معزةً، أو حتى جزءًا من أرضها. القروض الصغيرة تجعل من الممكن بالنسبة إليهم أن يتجنبوا بيع الأصول الأكثر قيمة وأن يغرقوا بذلك في الفقر.

انتهى كارنوفسكي وهاسنفيلد إلى أنَّ التمويل متناهي الصغر يساعد بالفعل الفقراء. وكون أن الناس يحصلون على قروض، يعرفون أنه سيكون عليهم تسديدها، هو أمرٌ يُعدُّ في حد ذاته دليلًا على أن مؤسسات التمويل متناهي الصغر توفّر خدمة يحتاج إليها الفقراء؛ ومن ثَمّ فإنّه في ظل غياب

(1) Dean Karlan and Jonathan Zinman, «Expanding Credit Access: Using Randomized Supply Decisions to Estimate the Impacts,» Center for Economic Policy Research Discussion Paper DP 6180 (2007), available at www.cepr.org/pubs/dps/DP6180.asp.

معرفة جيدة عادلة عن وسائل أخرى لمساعدة الفقراء تعمل على زيادة دخلهم وتحسين مستوى معيشتهم، قامت منظمة «العطاء الحسن» بمنح جائزتها التي تبلغ 25,000 دولار إلى منظمة «الفرصة الدولية». وقد اختارت منظمة «العطاء الحسن» منظمة «الفرصة الدولية» من بين المنظمات الأخرى للتمويل متناهي الصغر؛ لأنها قد لفت انتباهها بقوة أن معدل تسديد القروض التي منحتها منظمة «الفرصة الدولية» للجماعات قد بلغ 98%، وأن هناك برنامجًا مخصوصًا أدارته المنظمة في موزمبيق حيث يعيش معظم عملائها في فقرٍ مُدقِع[1].

عندما بدأت منظمة «العطاء الحسن» بدعوة منظمات الغوث إلى تقديم معلومات عن طبيعة أعمالها، كان لدى المنظمات الكبرى حافزٌ ضئيلٌ لفعل ذلك؛ لأن منحة منظمة «العطاء الحسن» البالغ قدرها 25,000 دولار يصعب أنْ تستحقَ وقتَ الموظفين الذي يكرّسونه للعمل في منظمات تبلغ ميزانياتها العديد من ملايين الـدولارات. ولكن إذا ما أُشيع -وهو ما ينبغي- نموذج تقييم منظمة «العطاء الحسن» للمنظمات الخيرية التي حصلت على أعلى ترتيب، فإن هذا سوف يؤدّي على المدى الطويل إلى تدفق التبرعات على هذه المنظمات. كما أن المنظمات الخيرية الأخرى -بدورها- سوف تركّز على إظهار فاعليتها من أجل تحسين ترتيبها لدى منظمة «العطاء الحسن». وبالقدر نفسه من الأهمية، فحيث إنّ الناس يصبحون أكثر ثقةً في فاعلية الكُلفة التي يتحمّلونها لصالح المنظمات الخيرية، فسوف يكونون أكثر استعدادًا للتبرع.

إثبات الفاعلية

بفترة طويلة سابقة على تساؤل كارنوفسكي وهاسنفيلد عن المنظمات التي سوف توظّف على أفضل نحو التبرعات التي تأتيها، كان إستر دافلو Esther Dufflo وآبيجيت بانيرجي Abhijit Banerjee الأستاذان بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا Massachusetts of Technology قد أسّسا «معمل جميل لمواجهة الفقر» Jameel Poverty Action Lab على أساس أنه يمكننا -بل ينبغي لنا- أن نستخدم المناهج العلمية لنتبيّن ما هي مشاريع الإعانة التي تكون فعالة. وقد اتخذا كمعيار ذهبي

(1) Give Well Research Report, Global Poverty (Focus on Africa), 2008, www.givewll.net/cause2.

للدقة العلمية اللجوء إلى الاختبار المنضبط على مجموعة عشوائية بهدف قياس فاعلية الأدوية الجديدة. في هذا الاختبار تم تخصيص نصف المرضى عشوائيًا لتناول الدواء الجديد، بينما النصف الآخر تم إعطاؤهم دواءً آخر بدلًا من الدواء الجديد. عملية الاختيار العشوائي تضمن أن المجموعتين ليستا مختلفتين بأي شكل من الأشكال يمكن أن يؤثر على مسار مرضهم أو على تأثير الدواء. ولقد رأينا منذ قليل مثالًا على هذه المناهج -وهو دراسة تأثير القروض التي منحتها منظمة التمويل متناهي الصغر في جنوب إفريقيا- وهي تلك الدراسة التي أجراها أعضاء «معمل مواجهة الفقر».

الاختبارات المنضبطة منهجيًا قد اعتمدها «البرنامج الدولي المكسيكي للتعليم والتغذية الصحية» Mexico's Programa Nacional de Educatión, Salud y Alimentación -المعروف اختصارًا باسم «بروجريسا» PROGRESSA- وهو برنامج يقدم محفّزات للأمهات لكي يشاركن في برامج التعليم الصحي، وإبقاء أطفالهن في المدارس، والذهاب بأطفالهن للعيادات الصحية للتزود بالمكملات الغذائية والفحص الطبي[1]. النتائج الإيجابية المستخلصة من الاختبارات الضابطة قد ساعدت برنامج «بروجريسا» في الحصول على تمويل أكبر من أجل التوسع في المكسيك، وجعلت البلدان الأخرى تتبنى مقاييس مماثلة. وبفضل الاختبارت الضابطة، فإننا نعرف أن توفير الأدوية لأجل قتل الديدان الطفيلية لدى الأطفال الكينيين يؤدي إلى تحسين التعلُّم، وأن تعليم استخدام الواقيات الذكرية يُقلّل من احتمالية أن يُصاب الناس بمرض «الإيدز»، وأن تزويد النساء في الهند بكيس عدس رخيص يعني أن المزيد منهن سيجعلن أطفالهن محصّنين[2].

لماذا إذًا لا نختبر كل برامج الفقر على هذا النحو؟ أحد الأسباب هو تكلفة إجراء الاختبارات. ولقد وجدت منظمة «أوكسفام بأمريكا» Oxfam America أن الاختبار العشوائي المنضبط منهجيًا لأحد برامجها الائتمانية متناهية الصغر في غرب إفريقيا، سوف يتكلف تقريبًا قدر تكلفة المشروع نفسه. فالمال سوف يُستقطع من الميزانية المخصصة للمشروع، مما يترتب عليه أن حساب الائتمان متناهي الصغر يمكن أن يمتدّ فقط إلى نصف

(1) هذه الدراسة والدراسات الأخرى الواردة كإحالات هامشية بشكل غير منفصل، مأخوذة من:
William Easterly, *The White Man's Burden*, pp. 372-75.

(2) John Hilsenrath, «Economists Are Putting Theories to Scientific Test,» *The Wall Street Journal*, December 28, 2006.

القرى الكثيرة التي كان يمكن بخلاف ذلك أن يمتد إليها. ولذلك فإن منظمة «أوكسفام» لم تشرع في الاختبار الموجَّه عشوائيًّا. وهذا قرار يمكن تفهمه؛ ولكنه قد يؤدي -على المدى الطويل- إلى أن تُجنِّب المنظمات بعض المال من ميزانيتها وتُخصّصه للدراسات عن فاعلية برامجها. فمن الأفضل مساعدة النصف فقط من جملة الناس، ولكن بشرط أن تكون متأكدًا من أنك حقًّا تساعدهم، بدلًا من المخاطرة بألا تساعد أحدًا منهم، خاصةً إذا كان هناك مشروع يمكن توسعته بحيث يصل إلى الكثير جدًّا من الناس.

وفي مقابل ذلك، فإن بعض مشروعات الإعانة قد تجلب منافع لا يمكن قياسها كميًّا. تؤمن منظمة «أوكسفام» بمبدأ «بناء المقدرة»، أي بمساعدة الفقراء على تنمية قدراتهم لكي يصبحوا مكتفين ذاتيًّا بأشكال عديدة، وبمساعدة المجتمعات على خلق نُظم هيكلية سوف تساعد الناس على العمل معًا من أجل مقاومة الغم والهروب من الفقر. في سنة 2003 قمت بزيارة أحد هذه المشروعات في مدينة بُونا Pune بالهند. منظمة «أوكسفام بأستراليا» كانت تساعد جامعي القمامة والنفايات، تلك النساء اللاتي يكسبن قوت يومهن من خلال غربلة النفايات الملقاة في الطرقات، لا فحسب بالتقاط الأسمال البالية، وإنما أيضًا بالتقاط أي شيء آخر يمكن إعادة تدويره. وعندما ذهبنا إلى مَكّب النفايات لنرى هؤلاء النساء في أثناء عملهن، أرغمت الرائحة النتنة الطاغية بعضًا من مجموعتنا على اللجوء إلى السيارة، حيث مكثوا بها مع غلق نوافذها طيلة الزيارة. ومع ذلك، فإن جامعات القمامة والنفايات قد تبدّين بشكل لافت للنظر في مظهر مضاد للقذارة؛ لأنهن بشكل ما قد حرصن على أن يبقى الساري الملوّن الذي يرتدينه نظيفًا وزاهيًا بينما كنَّ يستخلصن المعادن والزجاج والبلاستيك، بل حتى الأكياس البلاستيكة. كُن يحصلن فقط على روبية واحدة -أي: حوالي 3 سنتات- نظير الكيلوجرام الواحد -أو أكثر من رطلين- مما يجمعن من البلاستيك. وبقدر ما يبدو هذا سيئًا، فإنه كان تحسينًا في الأسعار عما كان من قبل حينما كانت جامعات القمامة والنفايات -المنتميات إلى طبقة الداليت Dalit التي كانت منبوذة في السابق- معزولات ومحتقرات باعتبارهن من أحقر الطبقات الدنيا، ويتم استغلالهن اقتصاديًّا، ويتعرضن للتحرش الجنسي من جانب التجار الذين يبعن لهم ما يجمعن من النفايات.

كانت منظمة «أوكسفام» موضوعًا لبحث لاكسمي ناريان Laxmi

Narayan، وهي محاضرة في جامعة بونا. وقد أشرفت على برنامج واسع الأفق خصصته لجامعي القمامة والنفايات، ولكنها أدركت أنهم كانوا بحاجة إلى مزيد من المساعدة العملية قبل أن يركزوا انتباههم في تعلم القراءة والكتابة. وبمساعدة من منظمة «أوكسفام»، تمكّنت النساء على أن يشكلن بأنفسهن «الرابطة المسجّلة لجامعات القمامة» Registered Association of Ragpickers التي مكنتهن من المطالبة بتقدير أسعار أفضل، وحمتهن من المتحرشين. وقد حدث تقدم باهر كبير عندما أقنعت «مجلس بلدية بُونا» Pune Municipal Council بإصدار بطاقات هوية خاصّة بجامعات القمامة تسمح لهنّ بدخول العمارات السكنيّة. وكان يُطلّب من المقيمين أن يفصلوا النفايات القابلة للتدوير؛ ونتيجة لذلك أمكن لكثير من جامعات القمامة أن يعملن الآن في بيئة نظيفة وآمنة، ويجمعن النفايات القابلة للتدوير مباشرة من المنازل.

بدأت الرابطة تضطلع بمهام أخرى، من قبيل: إدارة مشروع للتوفير وتسهيلات ائتمانية متناهية الصغر. يتم تحصيل فوائد عمّا يتم جمعه من مدخرات، تُستخدَم في توفير المِنَح الدراسية والرسوم المدرسية لأطفال العضوات في الرابطة. وفيما سبق، كان الأطفال الصغار يعملون مع أمهاتهم في مَكّب نفايات المدينة، ولكني لم أرَ أيَّ واحد منهم في أثناء زيارتي. وقد قيل لي إنَّ معظم جامعات القمامة أدركنَ الآن أنَّ أطفالهنَّ بذهابهم إلى المدرسة ربما تُتاح لهم فرصٌ أفضل لم تُتح لهنَّ أنفسهن.

قَبل أن أغادر بُونا، حَضرتُ اجتماعًا لجامعات القمامة انعقد في غرفةٍ بمنطقة ضيّقة وإن كانت منسّقة، وهي المنطقة التي عِشنَ فيها. لم أستطع فهم أي شيء مما قيل، ولكن الجو العام للّقاء كان يُعبِّر عن مشاركة واسعة وحيوية. بعد الاجتماع أخبرتْني ناريان أنَّ النساء عبّرنَ عن تقديرهن لدعم منظمة «أوكسفام» لهنّ، ولكنها قالت إنَّ الوقت قد حان لينتهي دورها. حقق المشروع أهدافه، وقد أصبحت الآن «الرابطة المسجلة لجامعات القمامة» قادرةً على دعم نفسها[1]. وهذا بالتأكيد يُثبت أن المشروع كان إنجازًا ناجحًا.

هناك مثالٌ آخر على الإعانة يصعب تقييمه بالطريقة الموجّهة على أساس

(1) For further details see «India: Ragpickers Take Control,» Oxfam News (Australia) September 2003, www.oxfam.org,au/oxfamnews/september_2003/india.html; Snehal Sonawane, «Rescuing Ragpickers,» *The Times of India,* August 31, 2007, timesofindia.indiatimes.com/articleshow/2324932.cms.

من الاختيار العشوائي، وهو إنجاز منظمة «أوكسفام» في موزمبيق الذي يقوم على دعم النساء اللاتي يسعيْنَ إلى تحسين حقوقهن القانونية. تُعدُّ موزمبيق التي يبلغ عدد سكانها 18 مليونًا أحد أفقر بلدان العالم، وتتعرض النساء بوجه خاص لخطر العيش في فقرٍ مُدقِع. وحتى سنة 2003، كان يُمكن للفتيات أن يتزوجن في سنٍّ صغيرة عند الرابعة عشرة من عُمرهنّ؛ ولأنَّ الزواج يجلب المال والهدايا لأسرة العروس، فإنَّ الكثير من الفتيات المنتميات لأسرٍ فقيرة قد تزوَّجنَ في سنّ صغيرةٍ للغاية. والقانون وضع النساء المتزوجات تحت سيطرة أزواجهن. وعلى سبيل المثال: تحتاج الزوجة إلى موافقة زوجها لكي تلتحق بعمل مدفوع الأجر. وإذا مات زوج امرأة ما، يؤول منزلُ وأرضُ الزوجيْنِ لعائلة الزّوج. والنساء المطلّقات ليس لديهنّ حقٌّ في المطالبة بملكيّة العقار، وكُنَّ يُتركْنَ -مثل العزباوات- صفر اليدين، وغالبًا ما تنتهي بهن الحال إلى الشّحاذة. «القانون القديم أزادَ فقرَ النّساء»، كما قالت ماريا أورلاندا Maria Orlanda العضوة في «رابطة محاميات النساء بموزمبيق». «لقد اعتمدن على أزواجهنّ في الأصول المالية، ولم يكن لديهنَّ أي سبيل لجمع ثروة من أي نوع»[1].

في فترة التسعينيات، نظَّمَت النساء في موزمبيق تحالفًا لإنهاء هذه المظالم. وقد وفَّرت منظمةُ «أوكسفام» لهنَّ دعمًا وتدريبًا فنيين في مهارات الدفاع عن حقوقهنَّ، وساعدَت منظماتٌ في أنحاء مختلفة من البلد على أن تلتقي وتعمل معًا. ومن أجل المساعدة في رفع الوعي العام بالحاجة إلى التغيير، دعمت أيضًا منظمة «أوكسفام» حملةً إعلاميّةً، لا تشمل فحسب التليفزيون والراديو والصحف، وإنما تشمل أيضًا مسرح الشارع من أجل كثيرٍ من الموزمبيقيين الذين لا يقرؤون، وليس لديهم من سبيل إلى الراديو والتليفزيون. نالت الحملةُ دعمًا من قطاعات عديدة في المجتمع والحكومة. وفي سنة 2003 أجاز البرلمان قانونًا جديدًا للأسرة، رافعًا السنّ القانونيّة للزواج إلى ثماني عشرة سنة، وسامحًا للنساء بترؤّس الأُسَر (وفيما سبق كان الرجل فحسب هو مَن يُمكنه رئاسة الأسرة)، ومانحًا النساءَ الحقوقَ في ملكيّة الزوجين بعد انقضاء سنة واحدةٍ من العيش معًا في إطار الزواج العرفي[2]. واصلَت مُنظمةُ «أوكسفام» دعمَها للتحالف باعتباره يُحاول

(1) Chris Hufstader, «Balancing Culture, New Law, in Mozambique,» Oxfam America, Febraury 24, 2006, www.oxfamamerica.org/whatwedo/where_we_work/southern_africa/news_publication/feature_Story.2006-02-24.0346532995.

(2) Oxfam International, «Mozambique's Family Law Passes!» www.oxfam.org/en/programs/development/safrica/moz_law.htm.

تعريف النّساء بحقوقهنّ الجديدة وضمان سَرَيان القانون. وهنا أيضًا نجد أنّه من المستحيل أن نقيس كميًّا تأثير عمل منظمة «أوكسفام»، ولكن يبدو أنّ المشروع قد أسهم في تحسين حياة الملايين من النساء مِمَّن يَعشن في فقرٍ مُدقِع، ومن دون الحقوق الأساسية التي نُسلِّم بها.

مزيد من الأشياء الجيدة التي يُمكن فعلها بثمن رخيص

هناك الكثير جدًّا من أشكال الإعانة التي يُمكننا أن نحكم بشكل مقبول بارتفاع تكلفة فاعليتها، حتى من دون دراسات رسمية. وهاك قليل من الأمثلة الإضافية.

دافيد موراوِتس David Morawetz رجلٌ من أستراليا، كان في الخمسين من عمره حينما مات أبوه تاركًا له مالًا قرّر هو أنّه ليس بحاجة إليه. أقام مؤسسة، وراح يتطلّع إلى مشروعات يُمكن أن يُموّلها. وقد عرف من منظمة «أوكسفام بأستراليا» أنّ هناك قرًى عديدة في تيجراي -وهو إقليم قاحل في إثيوبيا- يكون أقرب مصدر للمياه إليها على بعد أكثر من ساعة مشيًا. على النساء والفتيات أن يمشينَ لمدّة ساعة أو ساعتين لجلب المياه من أقرب نهرٍ لأجلِ الشُّرب والطبخ والغسل. الحيوانات أيضًا تستخدم النهر؛ ولذلك فإنّ الماء ينبغي غَلْيُه ليكونَ صالحًا للشرب. ولأنّ غَلْي الماء يَستهلكُ الوقودَ الشّحيح؛ فإن القرويين يشربون أحيانًا الماءَ غيرَ الصّالح للشرب؛ وهكذا يموت بعضهم -غالبًا الأطفال- من جرّاء ذلك.

وفي حين أنّ بعض القرويين في الإقليم لديهم آبار تُزوّدهم بالماء الآمن الصالح للشرب مباشرة في القرية ذاتها، فإنّ مُعظمهم لا يُمكنهم تدبير العدّة اللازمة لخرق الصّخر الصّلد الذي يقع فوق المياه. تبرّعَ موراوِتس بمبلغ 10,000 دولار لجلب عدة لثقب الصخور إلى قرية واحدة يبلغ عددُ سكّانها ألفَ شخصٍ. تلك القرية لديها الآن بِئرها الخاصة مزوّدة بمضخة يدويّة بسيطة من دون حاجة لموتور أو وقود، ومن السّهل صيانتها. لم يعد على نساء وفتيات القرية أن يمضينَ ساعتين أو ثلاثًا يوميًا لأجل جلبِ الماء. يُمكن للنساء الآن أن تستغلّ هذا الوقتَ المتوفّر لأجل أنشطة أخرى، والفتيات لديهن المزيد من الوقت لأجل التعلُّم. وعندما زار موراوِتس قيل له: «قبل أن أصبح لدينا بئر، كان من المألوف أن يموتَ أطفالُنا. وهم الآن لا يموتون». ومن خلال إدارة لجنة للبئر تتألّف من ستّةٍ من القُرويين -ثلاثة

من الرجال وثلاث من النساء- ينبغي أن تُوفّر البئر المياه الصاحة للشرب مدى الحياة، بتكلفةٍ مقدارها 10 دولارات لدورة حياة كل شخص.

وقد تبرّعَ أيضًا موراوِتس لمنظمة «فرع نيبال للزمالة الطلابية عبر أنحاء العالم»، وهي منظمة خيرية دولية لريادة الشباب متخصصة في تدريب الشباب على العمل في مشاريع تسعى لتحسين حياة الريفيّين. كثير من المتطوعين في هذه المنظمة هم شبابٌ متعلمون من إفريقيا وآسيا. وهاك بعضٌ من المشروعات التي دعمها موراوِتس في نيبال:

- توفير فلاتر الزرنيخ لإزالة المستويات العالية للوجود الطبيعي للزرنيخ من مياه الشرب. والتكلفة للأسرة الواحدة هي: 3.33 دولار.
- إتاحة الحصول على مواقد الطَّهي الكهربائية التي تستطيع أن تطبخ وجبةَ طعامٍ خلال نِصفِ المدّة التي تستغرقها المواقد التقليدية، وهو ما يتيح للفتيات وقتًا للذهاب إلى المدرسة. كما أن مواقد الطهي الكهربائية تستهلك فقط نصف الطاقة المستهلكة من خلال الخشب المشتعل، موفرةً بذلك الوقود وتقلل من انبعاثات الغاز في الغلاف الجوي، ومزوَّدةً بمداخن لتصريف الدخان؛ وبذلك تقلل من الإصابة بأمراض الربو والعيون. وتكلفة هذا لكل أسرة هي: 20 دولارًا.
- إعانة القاطنين لمنطقة كاثماندو Kathmandu الفقيرة على أن يبنوا مراحيضَ في بيوتهم. فيما سبق كان الناس يقضون حاجتهم في المجارير التي تجري بين منازلهم. وعندما تم بناء المراحيض في المنازل، أُغلِقَت المجارير. وتكلفة هذا لكل منزل هي: 22 دولارًا.

في سنة 1989 قادت ماجدة كينج Magda King بعثة لكل النساء إلى قمة جبل تشو-أويو ChoOyu التي يبلغ ارتفاعها 26,906 أقدام (أي: حوالي 8,201 متر)، والتي هي القمة السادسة الأعلى في العالم، وهي تقع على حدود سلسلة جبال التبت في نيبال. وقد بلغت القمة بنفسها، وبذلك أصبحت أول امرأة إسبانية تتسلّق القمة على ارتفاع 8,000 متر. ومنذ ذلك الحين قامت بالتسلق في خمس قارات، وأصبحت السابعة من بين أربعة عشر شخصًا في العالم ممن وصلوا إلى ارتفاع ثمانية ألف متر. مغامرات تسلّق الجبال جعلَت كينج تمرّ بكثير من القرى النائية التي يعيش فيها الناس في فقر. ولأنّها أرادَت أن تمنح شيئًا ما لنيبال ولأهالي شيربا

Sherpa[1] الذين ساعدوها على التسلُّق؛ فقد سافرَت عبر الولايات المتحدة لتقدم أحاديث وشرائح عرض للصور وجمع التبرعات. في منطقة نائية من نيبال، بعيدة عن مسارات عبور السياح، أمضت ثلاثة أشهر في العمل مع الناس المحليّين من أجل بناء مدرسة. ومع أنها أخبرت أحد المحاورين الصحفيين قائلة: «إننا نبني مدرسة عند نهاية الطريق»، فالواقع أن منطقة يارماسينج Yarmasing كانت أكثر عزلةً من ذلك؛ فهي تبعد ساعتين من المشي الشاق عن أي طريق يمكن أن تستخدمه سيارة. وعند العودة إلى الوطن، أنشأت السيدة كينج مع زوجها منظمة «ناملو الدولية» Namlo International التي تُركّز على التعليم باعتباره وسيلة لمساعدة الناس في المجتمعات الريفية المقفرة على الخلاص من الفقر. (والناملو هو حمّالة الرأس التي تجعل من الممكن للأهالي النيباليين أن يحملوا أحمالًا ثقيلة لمسافات طويلة). المجتمع بأسره يجب أن يُقرر أنه بحاجة إلى مدرسة ويجب بعدئذ أن يتشاركوا في بنائها، مع جهدٍ خارجيٍّ يتم الاستعانة به فقط لتنفيذ أي عمل يتطلب مهارات لا يمتلكها القرويون. يساعد الناملو على جلب الشبابيك والأسمنت والمواد الأخرى من بعيد، ولكنهم يستخدمون الأحجار المحليّة الموجودة في محل إقامتهم. العمل الذي قام به القرويون منحهم شعورًا جميلًا بالمساواة، وهو ما جعلهم أكثر التزامًا إلى حدٍّ كبير بأن يرَوا نجاح بناء المدرسة، وأنّ هناك إمكانية لبناء مدرسة تسع 200 طفل بتكلفة تقل عن 25,000 دولار.

إتمام البناء الفعلي هو مُجرّد الخطوة الأولى. وبعد ذلك يبدأ عمل منظمة «ناملو» مع مجموعات المدارس المشتركة في الولايات المتحدة من أجل ضمان تزويد المدرسة بهيئة تدريس وبالكتب والمواد التعليمية الأخرى. منظمة «ناملو» تعهّدَت بالالتزام لمدة عشر سنوات بدعم المدارس ومساعدة المجتمعات على أن تُصبح مستدامة ذاتيًا. وعلى سبيل المثال: قدمت منظمة «ناملو» دعمًا ماليًا لأربع من النساء القرويات بحيث أصبحن قادرات على الذهاب إلى كاتماندو من أجل تعلم أسلوب تراثي في صناعة النسيج. وسوف تعود النساء إلى القرية ويعلّمن نساءً أخريات، وهو ما يوفر لهنّ مصدرًا للدخل. كما أن منظمة «نامو» تساعد ببرامج لتعليم البالغين القراءة والكتابة، وبتأسيس بنية تحتية للمجتمع من قبيل توفير الإمداد بمياه آمنة.

(1) شعب ينحدر من أصول تبتية، يعيش جنوب جبال الهيمالايا في نيبال وسيكم Sikkim، ومعروف بقدرة أبنائه على تسلّق الجبال. [المترجم].

تقول كينج «رحلاتي الاستكشافية من خلال تسلُّق الجبال كانت تخصّني، ولكنّها أيضًا كانت من أجل النساء في إسبانيا، لكي نُبيّن أننا كنّا قادرات على فعل هذه الأشياء». وعلى الرغم من ذلك، فإنها تقول إنها من خلال عملها مع المجتمعات الريفية التي تخدمها منظمة «ناملو»، أصبحت حياتها أكثر ثراءً من أي شيء آخر سبق أن فعلته. وتقول إنها من خلال هذا العمل «بلغتُ أهدافًا أعلى بكثير من الوقوف على قمة أعلى جبل في العالم». وهي تعتقد أيضًا أنها قد أظهرت أننا لسنا معدومي الحيلة في إحداث التغيير. فشخص واحد يمكن أن يُحدِث فرقًا في سائر المجتمعات.

سافر طبيب العيون الأسترالي فِرِد هولو Fred Hollow إلى نيبال وإريتريا في الثمانينيات، وقد استوقفه كثرة عدد الناس العميان بسبب حالات إعتام عدسة العين ومشكلات أخرى من أمراض العيون القابلة للعلاج. ومنذ ذلك الحين حتى وفاته سنة 1993، أجرى عمليات بسيطة لاستعادة الإبصار للناس الذين لم يكن ليجد سبيلًا إليهم من دون موقفه هذا. وقبل سنة على وفاته، عرف أنه مريض بالسرطان ولم يتبقَّ له كثير من الوقت، فأنشأ مع زوجته جابي Gabi «مؤسسة فِرِد هولو» Fred Hollow Foundation لمواصلة عمله. وبحلول عام 2003، كانت المؤسسة قد استردّت إبصار مليون شخص، بتكلفة 50 دولارًا تقريبًا للشخص الواحد[1].

من السهل علينا إدراك أنَّ كونَ المرء أعمى في بلد فقير حيث يوجد دعم ضئيل للأشخاص ذوي القدرات المحدودة، هو أمر أسوأ بشكل كبير من كون المرء أعمى في دولة غنية. فاستعادة الإبصار ليست فقط تساعد بدرجة كبيرة الشخص كفرد، وإنما أيضًا تمكّنه أو تمكّنها من مساعدة أسرته أو أسرتها أو المجتمع من جديد. وفقًا لإحدى الدراسات، فإن 85% من الرجال و58 % من النساء الذين فقدوا وظائفهم بسبب العمى، قد استطاعوا استرجاع وظائفهم مجددًا بعد أن استردّوا إبصارَهم. وبالنسبة للأطفال، فإن منع العمى أو التغلّب عليه يمكن أن يكون إنقاذًا للحياة؛ وقد أظهرت الدراسات أن الأطفال الذين يصبحون عميانًا من المحتمل أن يموتوا في السنة التالية أكثر من احتمالية حدوث ذلك للأطفال الآخرين. وأولئك الذين ينجون من غير المحتمل أن يكونوا قادرين على مواظبة الحضور بالمدرسة.

(1) تم تعديل الأرقام هنا بسبب التضخم وتبديلها من سعر الدولار الأسترالي إلى ما يساويه بالدولار الأمريكي في سنة 2007. وأنا مدين في ذلك إلى توبي أورد Toby Ord ببعض من هذه الحسابات الإحصائية، وبلفت انتباهي إلى «مؤسسة فِرد هولو» باعتبارها مثالًا للإعانة ذات التكلفة الفعالة. كما أن «مؤسسة فِرد هولو» قد ساعدت أيضًا في توفير معلومات إضافية.

وهناك مثال آخر يبين لنا كيف يمكن للقذر الضئيل نسبيًا من المال (بمقياس الناس الذين يعيشون في الدول الغنية) أن يُحدِث فرقًا في تغيير الحياة بكليتها بالنسبة إلى امرأة ما فقيرة، من خلال علاج مرض ناسور الـولادة[1]. وفي أساليب التنشئة التي تتغذى فيها الفتيات بطريقة فقيرة أو يتزوجن قبل أن تنضج أجسامهن بشكل صحيح، نجد أنهن غالبًا ما يصبحن حوامل قبل أن يكبر تجويف الحوض بشكل كافٍ يسمح بولادة الطفل الرضيع. ونتيجة لذلك، فإن هذا الطفل الوليد يصبح عالقًا في أثناء عملية الولادة؛ وقد تظل الولادة متعسرة لأيام عديدة. ذلك أن توليد امرأة في قرية تفتقر إلى الأساليب الفنية الطبية الحديثة، هو أمر يعني في الأغلب الأعم أن يموت الطفل. وفي أثناء ذلك، فإن ضغط رأس الطفل على جدار الرحم يمكن أن يُحدِث الثقب أو الناسور بين المهبل والمثانة أو المستقيم. فالبول أو البراز سوف ينساب من خلال المهبل. ولا يهم كثيرًا هنا إلى أي حد تغتسل المرأة، فسوف تنبعث منها رائحة كريهة. والـزوج -الـذي قد يعتقد أن زوجته قد أصابتها لعنة- يردُّها غالبًا إلى أهلها. وأهلها -الذين لا يستطيعون مواجهة صعاب الحياة مع وجودها داخل المنزل- يبنون لها كوخًا صغيرًا خاصًا بها.

وفي سنة 1990، قام بـزيـارة إثيوبيا ريجنالد هاملين Reginald Hamlin، وهو طبيب من أستراليا ونيوزيلندا متخصص في أمراض النساء والولادة، لكنّه بعد أن رأى المشكلات التي تواجهها النساء في إثيوبيا بسبب نقص الرعاية الطبية، قرر أن يبقى هناك. وعندما اكتشف أن المستشفيات العامة غالبًا ما تصرف النساء المصابات بأمراض الناسور بسبب أن حالتهن المَرضية لا تُهدد الحياة وأنه من الصعب الإبقاء عليهن في حالة نظافة، أسّس هاملين وزوجته «مستشفى أديس أبابا لعلاج الناسور». وقد اكتشفا أن تجميع المريضات بالناسور معًا كان له ميزة إضافية، وهي أنّ تلك النساء اللاتي كُنّ معزولات لسنوات قد أصبحن الآن قادرات على ممارسة الحياة الاجتماعية والتحدُّث مع نساء أخريات لديهن المشكلة نفسها. ومنذ وفاة زوجها، واصلَتْ كاثرين هاملين Catherine Hamlin العمل في إثيوبيا من أجل مريضات الناسور، وقد عالجَ المستشفى حتى الآن 32,000

---

(1) ناسور الولادة obstetric fistula إصابة تحدث في أثناء الولادات المتعسرة من دون تدخل طبي. تنشأ هذه الإصابة بسبب الضغط المتواصل من رأس الطفل على عظام الحوض محدثًا شقًّا بين المهبل والمثانة أو المستقيم، ويؤدي إهمال علاجه إلى تسرب للبول أو البراز عن طريق المهبل. ويندرج هذا المرض ضمن أمراض الفقر؛ لأنه شائع في الدول الفقيرة التي تفتقر إلى الرعاية الطبية المتقدمة، حتى إن حوالي 2 مليون امرأة مصابة به في الدول الفقيرة، ومنها الدول العربية. [المترجم]

امرأة، ودرّب طلبة وجراحي الطب معًا. وبدعم من «مؤسسة الناسور» قامت منظمة خيرية مقرها كاليفورنيا بافتتاح ثلاث مستشفيات صغيرة في مناطق أخرى من إثيوبيا. وبينما هي الآن في الثمانينيات من عمرها، ظهرت في برنامج «أوبرا» *Oprah* التليفزيوني من خلال فيلم وثائقي مُلهم عن «النجم متألق التجدد» *Nova* بعنوان «**نزهة نحو الجميل**». لم يصرف المستشفى أبدًا النساء المصابات بالناسور، وهو قادر على علاج 93% من مرضاه. وعندما تصبح النساء جاهزات للخروج من المستشفى، يُمنَحن أجرة ركوب الباص إلى منازلهن ولباسًا جديدًا. وهنا تصف مدام هاملين مشهدًا قد رأته آلاف المرات: «لقد وضعنا مجمل حياة هذه الفتاة مفتوحة أمامها، ولو أنها لم تُعالَج لكانت حياتها بائسة وتُشكّل رعبًا على الدوام. ولذلك فإن رؤية فتاة صغيرة وقد أصبحت طبيعية مجددًا، ورؤيتها وهي تذهب إلى المدرسة في لباس جديد بابتسامة على وجهها، وتمرح على أقدام راقصة بالمعنى الحرفي، لهُوَ أمرٌ يثلج صُدورَنا حقًّا»[1].

وفقًا لتقرير أعدّته منظمة «الأمم المتحدة لتمويل السكان والصحة الإنجابية» -وهي منظمة تُعنى بصحة النساء الأمريكيات- يتكلّف إصلاح ناسور بشكل سليم في إفريقيا مبلغًا يتراوح بين 100 دولار و400 دولار[2]. أمّا منظمة «تمويل مرض الناسور عبر العالم» Worldwide Fistula Fund -وهي منظمة خيرية أخرى تدعم الرعاية الصحية لمرض الناسور- فتقدّر الرعاية الجراحية للمصابة الواحدة بالناسور بمبلغ 450 دولارًا[3].

عندما التقيت لويس وال Lewis Wall -المؤسس والرئيس والمدير الإداري لمنظمة «تمويل مرض الناسور عبر العالم»، في جامعة واشنطن بسانت لويس حيث يعمل أيضًا أستاذًا لأمراض النساء والولادة- كان على وشك مغادرة النيجر. تمثّل تمويله في بناء مستشفى تخصّصي جديد لمرض الناسور في منطقة يوجد فيها معدل مرتفع بشكل ملحوظ لحالات مرض الناسور الناجم عن الولادة. أخبرني وال أنَّ هناك 3 ملايين امرأة تعيش بمرض الناسور من دون علاج، مع وجود 33,000 حالة إصابة على الأقل

(1) الاقتباس من للقابلات التي أجرتها أوليف سميث Olive Smith وآمي بوتشر Amy Bucher مخرجتا الفيلم الوثائقي «نزهة نحو الجميل»، في إبريل 2005 ونوفمبر 2006؛ وهي متاحة من خلال فقرة «النجم متجدد التألق» على شبكة للعلومات:

www.pbs.org/wgbh/nova/beautiful/hamlin.html.=

(2) UNFPA, the United Nations Population Fund, and EngenderHealth, «Obstetric Fistula Needs Assessment Report: Findings from Nine Africa Countries» (2003), p. 4, www.unfpa.org/fistular-needs-assessment.pdf.

(3)116 www.world widefistulafund.org/Patient%20Care.html.

كل سنة في إفريقيا وحدها[1]. وفي فصل الصيف السابق بليبيريا، أجرى عملية جراحية لامرأة في السابعة والستين من عمرها مصابة بمرض الناسور منذ أن كانت في الثانية والثلاثين، بعد أن عاشت مبتلّة بالبول لمدة خمس وثلاثين سنة. قال لي: «استغرق إصلاح الضرر بالجراحة عشرين دقيقة». ولكن حل المشكلة على المدى الطويل هو منع حدوث المرض، خاصةً من خلال زيادة الوعي بالمخاطر التي تواجهها الفتيات من خلال الحمل في سنٍّ صغيرة جدًّا. والدخول المستحسن إلى مراكز الولادة الطارئة سوف يؤدّي أيضًا إلى تقليل المشكلة بشكلٍ مؤثّر. ولكنه في الوقت ذاته يتساءل أيضًا: «ما الذي يساوي قيمة أن تستعيد فتاة في الرابعة عشرة من عمرها مستقبلها وحياتها»؟

من الصعب إحصاء قدر تكلفة إنقاذ أو تحويل حياة شخص ما فقير فقرًا مُدقِعًا. إننا يجب أن نستثمر مزيدًا من التمويل في تقييم فاعلية البرامج المتنوعة. وعلى الرغم من ذلك، فإننا قد رأينا أنَّ كثيرًا من العمل الذي أنجزته المنظمات الخيرية له تكلفة فعالة مرتفعة، ويمكننا أن نعتقد بشكل معقول أن تكلفة إنقاذ حياة من خلال إحدى هذه المنظمات الخيرية يتراوح تقريبًا بين 200 دولار إلى 2,000 دولار.

وحتى في الحد الأقصى لهذا المدى، فإن التضاد بين مقدار تكلفة إنقاذ حياة شخص ما في دولة فقيرة ومقدار ما نُنفقه لأجل إنقاذ حياة الناس في الدول الغنية، هو أمرٌ يجعلنا في حالة من عدم الارتياح. هناك دراسة أجرتها «جامعة الدوق» سنة 1995 على أكثر من خمسمائة من حالات التدخّل لإنقاذ الحياة في الولايات المتحدة، تُظهِر لنا أن متوسط تكلفة إنقاذ حياة ما يبلغ 2.2 مليون دولار[2]. وفي سنة 2008، قامت «وكالة الحماية البيئية» Environmental Protection Agency بتقييم إنقاذ الحياة الأمريكية العامة بمبلغ 7.22 مليون دولار، بينما «المصلحة الفيدرالية للنقل» قدَّرت

(1) See also Lewis Wall, «Obstetric Vesicovaginal Fistula As an International Public-Health Problem»; *The Lancet* 368 (September 30, 2006), 1201-1209.

(2)118 T. Tengs, M. Adams, J. Pliskin, D. Safran, J. Siegel, M. Weinstein, and J. Graham, «Five Hundred Life-saving Intervention and Their Cost-effectiveness,» *Risk Analysis* 15:3 (June 1995), pp. 369-90.

وقد وجدت الدراسة أن تكلفة إنقاذ حياة الفرد في السنة قد بلغت 42,000 دولار. ولكي أقارن هذا الرقم فيما يتعلق بإنقاذ حياة طفل ما بالعمر، بافتراض أن العمر المتوقع هو خمسون سنة، فقد قمت بمضاعفة هذا الرقم خمسين مرة.

المبلغ بنسبة 5.8 مليون دولار[1]. (الوكالات الحكومية تستخدم هذه الأرقام لتقرر إذا ما كانت تدابير إنقاذ حياة الناس -بواسطة تقليل تلوّث الهواء أو إنشاء طرق آمنة- يمكن تبريرها اقتصاديًّا).

في غمار هذا اللايقين، ما الذي يُمكن أن نفعله؟ هناك الكثير من المنظّمات تُنجز عملًا جيدًا يقدم فُرصًا تستحقّ الدعم، ولكن عدم معرفة ما هي المنظمة التي تُعدُّ الأفضل تمامًا من بين هذه المنظمات، لا ينبغي أن يكون مبررًا لعدم منح فرص لأيٍّ منها. فلو كان لديك 450 دولارًا متوفرة عن حاجتك وتفكر فيمَ تنفقها: هل تنفقها على نفسك أو تستخدمها في مساعدة الآخرين، فليس من السهل أن تجد أي شيء تريد أن يكون في متناولك بقدر سهولة أن تجد فتاة في الرابعة عشرة مصابة بالناسور وتحتاج إلى إجراء عملية جراحية. وإذا كان لديك 50 دولارًا فقط، فإنك يمكن أن تعقد المقارنة نفسها بين ما يعنيه هذا المبلغ بالنسبة إليك وما يمكن أن يعنيه بالنسبة إلى شخص ما غير قادر على الرؤية بسبب إعتام عدسة العين الذي يمكن إزالته بسهولة.

(1) David Fahrentholt, «Cosmic Markdown: EPA says Life Is Worth Less,» *The Washington Post*, July 19. 2008.

7 - تحسين الإعانة

رغم أننا قد نظرنا باختصار من قبل في بعض الاعتراضات الشائعة على الإعانة، فإننا حتى الآن لم نتناول بإنصاف النقّاد الجادّين الذين يبينون لنا أن العديد من برامج الإعانة قد فشلَت في تقليل الفقر. ومن البارزين بين هؤلاء النقاد عالم الاقتصاد وليم إيسترلي الذي يتأسّى على عدم فاعلية الإعانة:

> لقد أنفق الغرب 2.3 تريليون دولار على الإعانة الخارجية طيلة العقود الخمسة الأخيرة، ومع ذلك لم ينجح حتى الآن في تدبير حصول الأطفال على دواء كلفته اثنا عشر سنتًا لأجل منع نصف حالات الوفاة بالملاريا. أنفق الغرب 2.3 تريليون دولار، ولم ينجح حتى الآن في تدبير حصول الأسر الفقيرة على ستائر الفراش الشبكية بتكلفة أربعة دولارات للستارة... إنها لمأساة أن يكون هذا القدر الكبير من الشفقة حسَنة النية لا يؤدي إلى هذه النتائج بالنسبة إلى المحتاجين[1].

هل تولّد لديك انطباع بأن الغرب قد أظهَر من قبل شفقة كبيرة ومنح مبالغ هائلة لأجل الإعانة الخارجية؟ لقد رأينا من قبل أن معظم الدول الغربية تُقدّم إعانة ضئيلة للغاية، من حيث هي نسبة مِن دخلها القومي. ولكن إيسترلي يتحدث عن العقود الخمسة الأخيرة؛ ولذلك فإنّنا قبل أن نصل إلى مسألة فاعلية الإعانة، دعنا أولًا نقدّم أسئلة وأجوبة Q&A عن مقدار الإعانة التي قد منحها الغرب بالفعل خلال تلك الفترة.

سؤال: ما المقدار السنوي لمبلغ 2.3 تريليون دولار طيلة العقود الخمسة؟

جواب: 46 بليون دولار.

سؤال: ما مقدار تكلفة مبلغ 46 بليون دولار خلال تلك الفترة بالنسبة إلى الشخص الذي يعيش في دول ثرية؟

جواب: هناك تقريبًا بليون شخص يعيشون في دول ثرية الآن، ولكن المعدل خلال الخمسين سنة الماضية حوالي 750 مليون شخص. وهذا يؤدي إلى مبلغ قدره 60 دولارًا لكل شخص في السنة.

(1) William Easterly, *The White Man's Burden* (London: Penguin, 2007),p. 4.

سؤال: ما نسبة الدخل الإجمالي للدول الثرية خلال الفترة التي تبلغ كلفتها 46 بليون دولار؟

جواب: الإعانة خلال تلك الفترة كانت حوالي 0.3% أو 30 سنتًا عن كل دخل قدره 100 دولار.

وإذًا فإن مبلغ الإعانة الذي تمنحه الدول الثرية لا يبدو كبيرًا جدًا، أليس كذلك؟

وحتى الرقم 30 سنتًا الذي يُمنَح عن كل 100 دولار من الدخل، يبالغ بشكل جدّي في المبلغ الذي تمنحه الدول الغنية لأجل مساعدة أفقر الناس في العالم. فالكثير من الإعانة التي تُقدَّم مبنية على أولويات سياسية أو دفاعية أكثر من كونها اعتبارات إنسانية. وعلى سبيل المثال: في أثناء «الحرب الباردة» كانت الإعانة من الغرب ميالة بقوة نحو استدراج بلدان العالم الثالث بمنأى عن التأثير السوفيتي. فمئات الملايين من الدولارات التي دخلت حسابات ديكتاتور الكونغو موبوتو Mobutu Sese Seko بالبنك السويسري كانت جزءًا من «الإعانة» المتضمنة في الأرقام التي يتحدث عنها إيسترلي. فلا عجب إذًا أنها فعلت القليل لتقليل الفقر.

رغم أن الحرب الباردة انتهت، فإن الإحصائيات المتاحة على موقع «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» Organization for Economic Co-operation and Development تبيّن لنا أن الإعانة لا تُعطَى بشكل وحيد -ولا بشكل أساسي في بعض الحالات- من أجل تخفيف الفقر العالمي. تأمل المتلقين العشرة الأوائل لإعانة التنمية الرسمية التي تمنحها الولايات المتحدة. في أثناء كتابتي لهذا الكتاب (يونيو 2008) كانت الدول التي تتلقى هذه الإعانات هي على التوالي: العراق، وأفغانستان، والسودان، وكولومبيا، ومصر، وإثيوبيا، وجمهورية الكونغو الديموقراطية، ونيجيريا، وباكستان، والأردن. تلقت العراق وحدها 29.5% من ميزانية الإعانة الخارجية التي منحتها الولايات المتحدة في سنة 2007، وتلقت أفغانستان قرابة 6%. وفي مقابل ذلك، فإن البلدان العشرة الأكثر فقرًا في العالم تلقت نسبة إجمالية مُجمَّعة قدرها 5% من إعانة الولايات المتحدة[1].

(1) Organization for Economic Co-operation and Development (OECD) Donor Aid Charts, www.oecd.org/countrylist/0,2578,en_2649_37413_1783495_1_1_1_37413,00.html; see also Oxfam America, «Smart Development: Why U.S. Foreign Aid Demands Major

العراق وأفغانستان وباكستان هي من بين البلدان العشرة الأوائل التي تتلقى الإعانة بسبب دورها المركزي في الحرب على الإرهاب، بدلًا من كونها تتلقّى الإعانة بسبب فقرها. وكانت مصر تُصنّف في الترتيب قرب العشرة الأوائل لعقود عديدة؛ لأنها تُعدُّ شريكًا مُهمًّا لجهود الولايات المتحدة في استقرار الشرق الأوسط؛ وتقديم الإعانة للأردن يصدر عن الدافعية نفسها. وكولومبيا ليست بلدًا فقيرًا بشكل مميز، والإعانة التي تُمنَح لها مرتبطة بقمع رعاع الكوكايين. فقط حوالي خُمس الإعانة يذهب إلى البلدان التي صنفتها «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» باعتبارها الدول «الأقل نموًّا»؛ في حين أن نصف الإعانة التي تمنحها الولايات المتحدة تذهب إلى الدول ذات «الدخل المتوسط-الأدنى».

ليست فقط الولايات المتحدة هي التي تمنح الإعانة لخدمة أهداف سياسية بدلًا من مساعدة الفقراء فقرًا مُدقِعًا. برانكو ميلانوفيك Branko Milanovic -وهو عالم اقتصاد في «البنك الدولي» World Bank- فحص سنة 2001 الإعانة من بلد إلى بلد، والتي يتم توزيعها من خلال معظم دول «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية»، ووجد أن الإعانة الجانبية من «الاتحاد الأوربي» EU -أي البرامج التي تديرها الأمم الأوروبية- والتي تكون منفصلة عن برامج الإعانة التي تقدمها الدول الأعضاء في الاتحاد، تُعدُّ حتى أكثر إعوجاجًا من إعانة الولايات المتحدة الموجهة للبلدان التي يكون فيها نصيب عدد السكان من الدخل أعلى من المعدّل العالمي. فالإعانة الجانبية من أستراليا وكندا في تلك السنة كانت أيضًا في مصلحة الغني، بمعنى أن البلدان الأكثر غنى تلقت من المال عن كل فرد أكثر مما تلقته الدول الأفقر. وحتى الإعانة الجانبية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا قد ساوت تقريبًا بين البلدان الأغنى والأفقر على أساس نصيب كل فرد من الإعانة؛ بينما الإعانة من دول بلجيكا وإيرلندا وبريطانيا وسويسرا ولكسمبورج وهولندا وإسكنديافيا كانت ميالة بقوة تجاه البلدان الأفقر. ومع ذلك، يمكن القول إجمالًا بأن ربع الإعانة المقدمة من تبرّع دول «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» هو فقط ما يذهب إلى البلدان الأقل تنمية في العالم(1).

Reform, «February 2008, www. Oxfamamerica.org/newsandpublications/briefing_papers/smart-development/smart-development-feb2008.pdf.

أما البلدان العشرة الأكثر فقرًا التي نشير إليها، فهي: جمهورية إفريقيا الوسطى، وسيراليون، وإريتريا، والنيجر، ومالاوي، وإثيوبيا، وليبيريا، وغينيا بيساو، وبوروندي، وجمهورية الكونغو الديموقراطية.

(1) Branko Milanovic, World Apart: Measuring International and Global Iniquity (Princeton, N.Y.: Princeton University Press, 2005), pp. 152053, table 12.1; United Nations Human Development Report, 2007-2008, table 17, available at http/hdr.undp.org/en/

وهناك سبب آخر في أن الأرقام الإجمالية للإعانة يمكن أن تعطي انطباعًا مبالغًا فيه عمّا يتم فعله بخصوص مساعدة الفقراء، وهو أن بعض البلدان -بما فيها الولايات المتحدة وأستراليا- تربط إعانتها بشراء البضائع التي تصنعها؛ وبذلك فإنها تعزز اقتصاداتها الخاصة، ولكنّها تجعل الإعانة أقل فاعلية. وعلى سبيل المثال: يطالب كونجرس الولايات المتحدة الوكالات الإدارية الحكومية التي تتبرّع بالواقيات الذكرية الهادفة إلى إيقاف انتشار «الإيدز» في إفريقيا، بإلزام هذه الوكالات بشراء هذه الواقيات من المصانع المنتجة لها في الولايات المتحدة، رغم أن سعر هذه الواقيات المصنوعة في الولايات المتحدة يبلغ سعره ضعف سعر المنتجات المماثلة المصنوعة في آسيا. التبرُّع بالواقيات الذكرية إلى إفريقيا ينقذ حياة الناس، ولكن بما أن المبلغ المالي المتاح لهذا الغرض يكون ثابتًا؛ فإن أي شيء يزيد من كلفة الواقيات الذكرية يقلل من عدد المتبرّع لهم ومن تكاليف إنقاذ حياتهم[1]. ومع ذلك، فإن هناك مشكلة أكبر كثيرا، ففي حين أن القيمة التقريبية بمبلغ 2 بليون دولار التي تمنحها الولايات المتحدة كإعانة تتألف من الغذاء، فإن هذا الغذاء يجب -بحكم القانون- أن يكون قد أُنبِت في الولايات المتحدة، وأن يُشحَن غالبًا على سفن أمريكية، إلى أي مكان يكون في احتياج إليه. وهذا يساعد المزارعين الأمريكيين على بيع محاصيلهم بأسعار جيدة، ويُعدُّ أيضًا رزقًا لشركات الشحن الأمريكية؛ ولكنه سيكون أرخص كثيرًا لو اشتُرِيَ الغلال في الإقليم الذي يكون محتاجًا إليه، وهو ما يؤدي إلى توفير تكاليف الشحن والنفقات الأخرى، وكذلك تجنب تأخير وصول الغذاء حوالي أربعة شهور. ولكن الأسوأ من ذلك- من حيث الفاعلية- هو أن استيراد كميات كبيرة من الغذاء الممنوح كإعانة يؤدي إلى كساد الأسواق المحلية، ويقلل من الحافز لدى الفلاحين في البلدان النامية على أن يصبحوا أكثر إنتاجية. وعلى حد قول بيتر ماتلون Peter Matlon -مدير مؤسسة روكِفلر Rockefeller Foundation، وعالم الاقتصاد الزراعي- فإن هذا يصبح أشبه بحالة «الآمر الذي يصبح هو المأمور» «the tail wagging the dog»، من حيث إنّ سياسات المزرعة المحلية شكلت هي نفسها المناهج التي تستخدمها الولايات المتحدة في مكافحة الفقر. إدارة

---

media/hdr_ 20072008 _en_indicator_tables.pdf.

(1) Cellia Dugger, «Kenyan Farmers' Fate Caught Up in U.S. Aid Rules,» *The New York Times*, August 4, 2007; Editorial, «A Surer Way to Feed the Hungary,» *The New York Times*, August 4, 2007; Celia Dugger, «U.S Jobs Shape Condoms' Role in Foreign Aid,» *The New York Times*, October 29, 2006.

الموازنة المحاسبية في حكومة الولايات المتحدة -وهي الذراع الاستقصائية اللاحزبية للكونجرس- قد انتهت إلى أنَّ إعانة الغذاء تُعدُّ «غير فعّالة بشكل متأصِّل في طبيعتها»، بينما دانيل ماكسويل Daniel Maxwell وكريستوفر باريت Christopher Barrett في دراستهما الكبرى بعنوان «إعانة الغذاء بعد خمسين سنة» يبددان تلك المقولة التي يشيران إليها باعتبارها «خرافة»، والتي تزعم أن إعانة الغذاء الأمريكية تتعلّق في المقام الأول بتغذية الجوعى. هذه المساوئ قد أصبحت واضحة بشكل كافٍ لمؤسسة «الرعاية» CARE -وهي إحدى أكبر الوكالات التي تُكافح الفقر- بما يتيح لها رفض توزيع الغلال الأمريكية في البلدان الفقيرة، رغم أن هذا سيكون قد وفَّر 45 مليون دولار إذا تم الإعداد لذلك[1].

وإذًا، فإنّه يُمكن للمرء أن يبرهن على أنه من المعقول تمامًا أن تجعل الدول إعانتها مشروطة بذلك النحو؛ ولكنك إذا برهنت على ذلك؛ فليس من الإنصاف أن تنتهي من ذلك إلى القول بأن كل إعانة تكون بلا فاعلية. ذلك أن بعضًا من الإعانة المقيَّدة يهدف إلى إفادة الاقتصاد الخاص بالدولة المتبرعة، ومن المفترض أنه يحقق أحيانًا ذلك الهدف. وإذا وضعنا في الاعتبار الحقائق سالفة الذكر؛ فسوف نجد أن ما تم إنفاقه بالفعل خلال العقود الخمسة الماضية على الإعانة المُراد منها في المقام الأول أن ينتفع بها الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع، لم تكن تبلغ مثل هذا الرقم المعلن وهو 60 دولارًا لكل مواطن في الدول الثرية. وربما كانت حصة كل مواطن في الإعانة أقل من ربع ذلك المبلغ. ومع ذلك، افترض أن هذا المبلغ الذي يصل إلى 60 دولارًا قد ذهب كاملًا إلى الناس الأكثر فقرًا. إن ذلك المبلغ يظل أقل مما يمكن أن تنفقه -من دون أن تشغل بالك كثيرًا بذلك- في قضاء أمسية خارج المنزل. فهذا المبلغ أقل من ثمن تذكرة حفلة لموسيقى الروك، أو أقل من تكلفة وجبة عشاء خارج المنزل، أو مشاهدة فيلم سينمائي، أو تناول كأس من الشراب أو كأسين، أو أجرة سيارة أو إيقافها في ساحة انتظار. فهل تكلفة قضاء أمسية خارج المنزل تصل حقًّا إلى الحالة التي يصفها إيسترلي بأنها «كثير من الشفقة حسنة النوايا»؟ إن هذا يوحي بقليل من الآمال التي تُرجى من شفقتنا إزاء رفاقنا من الموجودات البشرية. وهو يعني أيضًا أننا لا يمكننا أن ندين إدانة تامة الإعانة باعتبارها غير فعالة بدعوى أن

(1) Celia Dugger, «CARE Turns Down Federal Funds for Food Aid,» *The New York Times*, August 16, 2007; Daniel Maxwell and Christopher Barrett, *Food Aid After Fifty Years: Recasting Its Role* (London: Rutledge, 2005), p. 35.

شفقتنا الهائلة قد قادتنا من قبل إلى أن نغدق مبالغ طائلة من الإعانة على الدول الفقيرة، ولكن هذه المبالغ الطائلة قد فشلت حتى في فعل الأشياء الأساسية من قبيل منع الوفيات من جرّاء الملاريا. فإذا لم نكن حتى الآن قد نجحنا في فعل هذه الأشياء الأساسية ، فربما يرجع هذا إلى أن ما منحناه لهذه الأشياء على وجه التخصيص كان ضئيلًا للغاية.

معظم نقاد الإعانة يستهدفون البرامج التي تديرها الحكومة والمؤسسات التي تمولها الحكومة. فنحن -على سبيل المثال- نجد أن إيسترلي في كتابه **«عبء الرجل الأبيض»** *The White Man's Burden* يركّز أساسًا على «البنك الدولي»، و«صندوق النقد الدولي»، و«الأمم المتحدة»، و«وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية» (UASID). يبرهن إيسترلي على أن إخفاقات هذه المنظمات ينشأ من الطموحات المتعاظمة، والتخطيط الفوقي من أعلى إلى أسفل، والافتقار إلى الموازنة المحاسبية. ولكنه يتجاهل تقريبًا عمل المنظمات اللاحكومية: فهذه المنظمات لم تُذكّر سوى أربع مرات في كتاب يتألف من أربعمائة صفحة، ولم ترد في أي من هذه الإحالات مناقشة متواصلة لعمل «المنظمات غير الحكومية» NGO's. الشخصيات الكبيرة التي تقدم إعانة للمنظمات من قبيل منظمة «الرعاية» و«أوكسفام» و«أنقذ الأطفال» و«الرؤية العالمية»، لا يرد ذكرها على الإطلاق. وهكذا فإنه بينما ينصح إيسترلي النشطاء بأن «يُغيّروا قضيتهم من رفع الزيادة المالية للإعانة إلى التأكّد من أن الإعانة تصل إلى الفقراء»، فإنه لا يمدّنا بأي أساس لرؤيته في أن جمع مزيد من المال يكون بلا جدوى إذا كان الناشط المُخاطب يجمع المزيد من المال لصالح منظمة حكومية. (وأنا شخصيًا أنتظر أن يأتي إليّ أحد جامعي المال طالبًا مني أن أتبرّع «للبنك الدولي»).

لا أحد يعرف حقًّا -لأن هذا الأمر لم يُجرَّب- إذا ما كان الفقر على مستوى الكرة الأرضية يُمكن التغلّب عليه من خلال مقدار جوهري حقًّا من الإعانة يتم الإمداد به من دون تدخل سياسي. القيود السياسية والبيروقراطية التي تعوق الإعانة الرسمية هي فقط ما يجعل التبرعات إلى وكالات غير حكومية فعّالة أكثر أهمية بكثير. وكما يقول إيسترلي نفسه: إن المقدار الإجمالي السنوي للإعانة الخارجية التي تُقدَّم لحوالي 3 بلايين فقير تقريبًا حول العالم (وهذا الرقم يشمل أولئك الذين يعيشون على أقل من 2 دولار في اليوم، كما يشمل أولئك الذين يعيشون على أقل من 1.25 دولار في اليوم)، يصل فقط إلى حوالي 20 دولارًا يدفعها كل شخص. أفلا

ينبغي أن نندهش من أن هذا المبلغ التافه لم يؤد إلى إنهاء الفقر؟ وأسوأ ما يمكن أن يُقال عن يقين هو أنه في الماضي كان العديد من الإعانات الرسمية يُساء تصورها، ويساء توجيهها، ولم ينشأ عنها سوى خير ضئيل. ولكن من النادر أن تكون هناك إمكانية للقول بأننا إذا عقدنا العزم على تقليل الفقر، وقمنا بتشغيل الموارد بما يتلاءم مع حجم المشكلة -بما في ذلك الموارد الموجهة لتقييم الأخطاء الماضية والتعلم من أخطائنا- فإننا مع ذلك لن نكون قادرين على أن نجد أساليب لصنع تأثير فعال.

«التجارة، لا الإعانة»

أحد دواعي القلق الكبرى لدينا فيما يتعلق بمنح الإعانة هو أنها لا تذهب في واقع الأمر إلى مساعدة الفقراء، أو أنها- وهو الأسوأ- يمكن حتى أن تضرهم. تلك الرؤية يدعمها بعض نقاد الإعانة الذين يدّعون أن الإعانة لا تحفز النمو الاقتصادي[1]. فها هو مارتن وُلف Martin Wolf -على سبيل المثال- في كتابه «**لماذا تنجح العولمة**» *Why Globalization Works* يبرهن على أن تقليل العوائق التي تواجهها الدول الفقيرة حينما تسعى إلى بيع منتجاتها في السوق العالمي، سوف يعمل على تقليل الفقر بشكل أكبر مما يفعله أي مقدار من الإعانة[2]. وُلف وآخرون من نقاد الإعانة يبينون لنا أن الدول التي خَلّصت نفسها من الفقر خلال الخمسين سنة الماضية قد تلقت بوجه عام إعانة ضئيلة، بينما الدول التي تلقت أقصى قدر من الإعانة هي بوجه عام الدول التي لا تزال فقيرة. وفي بعض الحالات، يحدث هذا بسبب أن الإعانة الأكبر تذهب إلى البلدان التي تواجه مشكلات أكبر، سواء كانت هذه المشكلات تنشأ من عوائق جغرافية، ومن الفساد، والتقاليد التي تكبح الإنتاجية، أو من السياسات العامة التي تقلل الحوافز لدى الناس لأجل البدء في نشاط تجاري جديد. ولكن من الواضح أن بعض مبادرات الإعانة **قد أخفقت** في تعزيز نمو الاقتصاد. ومن المهمّ أن نعرف ما هي تلك المشكلات، وأن نفهم كذلك أنّ النوع الصحيح من الإعانة يُمكن أن يساعد الفقراء، سواء كان أم لم يكن يعزز نمو الاقتصاد.

---

(1) William Easterly, *The White Mans' Burden* (London: Penguin, 2007), is among them. See also Raghuram Rajan and Arvind Subramanian, «Aid and Growth: What Does the Cross-Country Evidence Really Show?» IMF Working Paper 05/127 (Washington, D.C.: International Monetary Fund, 2005).

(2) Martin Wolf, *Why Globalization Works* (New Haven, CT: Yale University Press, 2004).

أحد الأسباب في أن الإعانة يمكن أن تُبطئ النمو الاقتصادي هو ما يُعرَف «بالمرض الهولندي» Dutch disease، وهو مصطلح صكته مجلة «الإيكونوميست» *The Economist* لوصف انهيار الاقتصاد الهولندي في الستينيات بعد اكتشاف الغاز في «البحر الشمالي» على ساحل البلد. والواقع أن هذا المورد الطبيعي الثمين كان ينبغي النظر إليه باعتباره نِعمة اقتصادية، ولكن بينما كانت إيرادات تصدير الغاز تتدفق على البلد، بدأ تدهور التصنيع الهولندي. ويرجع سبب ذلك -فيما يرى علماء الاقتصاد- إلى أن البلدان الأخرى راحت تشتري النفط الهولندي، وترسل المال إلى البلد، وارتفعتْ قيمة العملة الهولندية بالنسبة إلى عملة الشركاء التجاريين الأساسين للبلد، وبذلك أصبح التصدير الهولندي غالي الثمن وأصبح المُصنّعون الهولنديون أقل قدرة على التنافسية في الأسواق العالمية. وهكذا فإن تدفق مقدار ضخم من الإعانة الخارجية يمكن أن يحدث تأثيرًا مشابهًا.

على الرغم من أن نسبة الإعانة -كما رأينا- هي نسبة بالغة الضآلة من دخل الدول المتبرعة الثرية، فإن الدول الفقيرة تكون بالغة الفقر، حتى إنه في بعض الحالات تبلغ الإعانة المقدمة إليها نسبة تزيد على 10% من دخلها القومي. وفي قدر ضئيل من الدول بالغة الفقر -من قبيل: جمهورية الكونغو الديموقراطية، وتيمور الشرقية، وأفغانستان- تبلغ الإعانة أكثر من ربع الدخل القومي[1]. وعند هذا المستوى، يمكن أن تتسبب الإعانة في حدوث «مرض هولندي» حقيقي تمامًا. والواقع أن عالما الاقتصاد راقورام راجن Raghuram Rajan[2] وآرفيند سوبرامانيان Arvind Subramanian قد وجدا أن الإعانة تُقلّل بشكلٍ مؤثر من كثافة العمل في الصناعات السلعية والصناعات التصديرية، مثل: المعالجات الصناعية للأغذية، وإنتاج الملابس والأحذية، في البلدان النامية. غير أن ما يبعث على التشجيع فيما درسوه عن العقد الأكثر حداثة -فترة التسعينيات- هو أن الإعانة كان لها تأثير أقل ضررًا في هذا العقد السابق، ربما بسبب أن

(1) See Organization for Economic Co-operation and Development, «Recipient Aid Charts,»www.oecdorg/contrylist/0,3349,en_ 2649 _ 34469 _ 25602317 _ 1 _ 1 _ 1,00.html; for discussion see Tim Harford Micheal Klein. «Aid and Resource Curse,» Public Policy for the Private Sector, Note 291, April 2005, http://worldbank.org/Documents/PublicPolicyJournal/291 Harford_Klein.pdf.

(2) اسمه الكامل هو Raghuram Govin Rajan، وقد كتبت الاسم بالعربية على النحو الأقرب إلى نطقه في أصله الهندي. وهذا يصدق أيضًا على الاسم التالي. [المترجم]

حكومات البلدان الفقيرة كانت تستخدم الإعانة التي تلقتها بشكل أفضل[1].

لقد ترك راجن وسوبرامانيان المجال مفتوحًا فيما يتعلق بإذا ما كانت التأثيرات التي لاحظاها كانت كبيرة بشكل كافٍ بحيث تُعادل منافع الإعانة. فعندما تُستخدَم الإعانة لأجل تحسين البنية التحتية وأساليب الزراعة ومهارات القوة العاملة؛ فإنها ترفع الإنتاجية وتؤدّي إلى صادرات متزايدة بحيث يمكن أن ترجح كفتها على مشكلة «المرض الهولندي». على مدى تسع سنوات بعد نهاية الحرب الأهلية في موزمبيق سنة 1992، مَنحت الدول الأوربية مستوى مرتفعًا بشكل فوق المعتاد من الإعانة لهذا البلد الإفريقي؛ والواقع أنه خلال تلك السنوات كانت الإعانة الأجنبية التي تُمنَح لذلك البلد تُمثِّل نسبة 40% من إجمالي دخله القومي. ورغم أن نصف الإعانة تقريبًا كان مديونية إغاثة محددة -وبالتالي لا يمكن إنفاقها داخل موزمبيق- فقد استُخدِمَت الإعانة في بناء الطرق والمستشفيات والمدارس، ولأجل تحسين مهارات القوة العاملة[2]. وربما لهذا السبب، كان نصيب كل شحص من النموّ الاقتصادي مرتفعًا أيضًا، فقد بلغ حوالي 5.5% عن كل سنة. والمستويات المرتفعة من الإعانة التي مُنِحَت لبوتسوانا بعد الاستقلال سنة 1966، ولتايوان في الخمسينيات، ولأوغندا في التسعينيات، قد أظهرت توافقًا مع نمو اقتصادي قوي. هذه الأمثلة تثبت أن «المرض الهولندي» محتوم[3].

على أية حال، فإننا عندما نكون بصدد عوائق نموّ الصناعات التصديرية في البلدان النامية، يكون هناك شيء ما أكثر أهمية من الإعانة المرتبطة بـ«المرض الهولندي». الولايات المتحدة والإعانات الحكومية الزراعية الإثيوبية تنتقص من جهود البلدان الفقيرة في زيادة صادراتها في قطاع اقتصادي توفّر فيه بيئتها وعمالتها الرخيصة ميزة تنافسية طبيعية. خذ على سبيل المثال القطن الذي هو المصدر الوحيد للدخل بالنسبة إلى الملايين من الفلاحين

(1) Raghuram Rajan and Arvind Subramanian, «What Undermines Aid's Compact on Growth?» International Monetary Fund Working Paper, WP/05/126,June 2005, www.imf.org/external/pubs/ft/wp/2005/wp05126.pdf; Paul Collier, *The Bottom Billion*, (New York: Oxford University Press, 2007), pp. 162-63>

(2) Paolo de Renzio and Joseph Hanlon, «Contested Sovereignty in Mozambique: The Dilemmas of Aid Dependence,» Global Economic Governance Working Paper 2007/25, January 2007, www.globaleconomicgovernance.org/docs/Detenzio%20abd520Hanlon_Mzambique%20paper%20re%20120107.01?0624

(3) UN Millennium Project, *Investing in Development: A practical Plan to Achieve the Millennium Development Goals* (London: Earthscan, 2005), pp. 247-48, www.unmillenium project.org/node/173.

في غرب إفريقيا[1]، منهم الكثيرون ممن يعيلون أُسَرًا على دخل أقل من 1.25 دولار في اليوم. إنهم ينتجون القطن بطريقة أرخص وأكثر استدامةً من الناحية البيئية مما يزرعه 25,000 من مزارعي القطن في الولايات المتحدة الذين يستخدمون تقنيات أكثر اعتمادًا على الميكنة ويكونون أكثر ثراءً. ولكن الولايات المتحدة تدفع مبلغًا قدره 3 بلايين دولار سنويًا في الإعانات الحكومية لمزارعي القطن فيها، وتُمكّنهم بذلك من استئصال وجود مزارعي القطن في غرب إفريقيا من السوق العالمي. لقد قام دانيل سامنر Daniel Sumner -الّذي يدير المركز الزراعي في جامعة كاليفورنيا- بإجراء دراسة إحصائية مفادها أنه إذا قامت الولايات المتحدة بإيقاف إعانتها الحكومية لزراعة القطن؛ فإنه سيترتّب على ذلك ارتفاع في دخل مُزارع القطن في غرب إفريقيا، بحيث يكفي هذا الدخل لتغطية تكاليف مجمل الرعاية الصحية لأربعة أطفال[2]. إلغاء كل الإعانات الحكومية في المجال الزراعي وتقليص نسبة 50% من الرسوم على المنتجات غير الزراعية هو أمر يعني -وفقًا لدراسة عالِمي الاقتصاد كيم آندرسون Kym Anderson وآلان وينترز Alan Winters- تحقيق مكسبٍ اقتصاديّ يبلغ على الأقل 96 بليون دولار سنويًا، سوف يذهب منه 30 مليون دولار إلى العالم النامي[3]. إلغاء الإعانات الحكومية للقطن والذرة والمنتجات الزراعية الأخرى، ينبغي أن تكون له الأولوية على المستويين الإنساني والاقتصادي معًا.

وربما تتساءل عما إذا كان من الأفضل أن نُنفق وقتنا ومالنا في حملة من أجل إلغاء العوائق التجارية، بدلًا من التبرُّع لوكالات تمنح إعانة للفقراء. من الواضح أن هذا يتوقَّف على عوامل متنوعة: سواء على أنَّ مالنا أو وقتنا سوف يجعل من المحتمل نجاح مثل هذه الحملة، وعلى مدى ما سوف يجنيه الفقير إذا ما نجحت هذه الحملة، وعلى مدى أفضلية تبرُّعنا إذا ما

(1) لا أعرف إن كان بيتر سينجر يعلم أن القطن كان هو المصدر الرئيس للدخل القومي لمصر في أقصى شمال شرق إفريقيا، بما كان للقطن المصري طويل التيلة من سمعة عالية، وكان مصدر دخل للأثرياء من الإقطاعيين، ولكنه كان أيضًا مصدر الدخل الرئيس لصغار الفلاحين ولسائر العمالة التي تتعيش على موسم حصاده، حتى إنه كان للقطن في مصر بورصة خاصة به، وكان يُعرف باسم «الذهب الأبيض». ومع ذلك، فإن المؤلف له عذره في إغفال ذلك الأمر؛ لأن حالة تدهور إنتاج القطن المصري -كمًّا وكيفًا- تعدّ حالة خاصة أكثر تعقيدًا من المنظور المحدد الذي يتناول المؤلف من خلاله المسألة هنا. [المترجم]

(2) «Reform of US Cotton Subsidies Could Feed, Educate Millions in Poor West Countries,» Oxfam Press Release, June 22, 2007, www.oxfam.org/node/173.

(3) Kym Anderson and Alan Winters, «Subsidies and Trade Barriers: The Challenge of Reducing International Trade and Migration Barriers,» Copenhagen Consensus 2008 Challenge Papet, www.copenhagenconsensus.com/Default.aspx?ID=1151;for some doubts about the possibility of measuring the gains, see the paper by Antony Venables at the same location>

مُنح لصالح أشكال أخرى من الإعانة. إنَّ الاهتمامات السياسية القوية المتحالفة ضد عوائق التجارة تجعل التغيير السياسي أمرًا بعيد الاحتمال. لقد رأينا ذلك بوضوح من خلال المعركة التي نشأت حول «مشروع قانون المزرعة لسنة 2008 في أمريكا» America's Farm Bill، الذي يقنن الترخيص بالإعانات الحكومية للزراعة عبر أمريكا. قُوبل «مشروع قانون المزرعة» باعتراض، لا فحسب المنظمات التي تكافح الفقر العالمي، وإنما قُوبل أيضًا -بحكم الواقع- باعتراض كل عالِم اقتصاد في البلد، بخلاف جماعات الضغط في مجال الإقطاع الزراعي. الرئيس جورج دابليو بوش نفسه يصف «قانون المزرعة» -الذي يقدم إعانات حكومية بمبلغ 300 مليون دولار لمدة خمس سنوات- بأنّه «قانون مترهّل ومُبذّد»، وقد استخدم سلطته في نقضه[1]. ومثل هذه الهزائم توحي إلينا بأنه من الأفضل أن ننفق أموالنا في مكان آخر يمكننا فيه أن نكون على ثقة بأننا نُحدِث فَرقًا.

من المهمّ أن نُلاحظ أيضًا أن النمو الاقتصادي قد يحيد عن الناس والأقاليم، بل عن الدول بكليتها. وقد يرجع هذا إلى أن حكومة البلد النامي تتبع سياسات اقتصادية غير رشيدة، أو إلى أن السياسة والتقاليد والبِنَى الاجتماعية تكون معادية للإنتاجية الاقتصادية بحيث إن القليلين هم من يَكونون على استعدادٍ للاستثمار (وهي الحالة التي تكون فيها الإعانة الاقتصادية مشروطة بالإصلاح السياسي)؛ ولكنه قد يرجع أيضًا إلى أن الدولة تعاني من عوائق جغرافية: كأن تكون مثلًا أرضًا محصورة، ومحاطة بجيران فقراء لا تتيح أسواقًا واعدة. ثم إن النمو قد تعترضه صعوبة الوصول إلى أسواق أكثر ازدهارًا لكي تتلقى صادرات الدولة. وفي تلك المواقف، نجد أن الإعانة التي استهدفت تحسين إنتاج الغذاء المحلي وتوفير التعليم والرعاية الصحية الأساسية، قد تكون هي الوسيلة الأفضل -بل الوحيدة في واقع الأمر- لمساعدةِ فقراءِ الدّولة. ومن الناحية المثالية، ينبغي أن توفر الإعانة حزمة حماية لأولئك الذين -لأي سببٍ كان- لا يستفيدون من النمو الاقتصادي. وأحيانًا ما تؤدي البلدان الأكثر فقرًا أداءً جيدًا من حيث مؤشرات الصالح الإنساني، من قبيل المؤشرات المتعلقة بوفيّات الأطفال وطول العمر، بشكل أفضل من البلدان الغنية. فمن المعروف أن نسبة وفيات الأطفال في كوبا أدنى من نسبتها في الولايات المتحدة.

(1) Sophia Murphy and Steve Suppan. «The 2008 Farm Bill and the Doha Agenda,» Institute for Agriculture and Trade Policy, June 25, 2008, www.iatp.org/jattp/commentaries.cfm?reftD=103103: David Stout, «House Votes to Overide Bush's Veto of Farm Bill,» *The New York Times*, May 22, 2008.

عندما اشترك إسترلي وبيل جيتس معًا في حلقة نقاشية «بالمنتدى الاقتصادي العالمي» في سنة 2007، طرح إسترلي رؤيته المعتادة في أنَّ كلَّ الإعانة التي مُنِحَت لإفريقيا على مر السنين قد فشلَت في تحفيز النمو الاقتصادي فيها. وقد ردَّ جيتس بحدة: «إنني لا أتعهد بأنه عندما يعيش طفل ما، سوف يؤدي هذا إلى حدوث زيادة في «الإنتاج القومي الإجمالي» GNP. إنني أعتقد أن الحياة لها قيمة»[1]. إن جيتس على حق. فتركيزنا لا ينبغي أن يكون على النمو من أجل ذاته، ولكن على الأهداف التي تكمن خلف رغبتنا في النمو، مثل: إنقاذ الحياة، وتقليل البؤس، والوفاء بالاحتياجات الأساسية للناس.

مؤسسات سيئة تُبطِل تأثير مشروعات جيدة

في الجدال الدائر طويلًا حول السبب في أن بعض الدول تكون غنية وتكون دولٌ أخرى فقيرةً، يؤكِّد كثير من الخبراء على أهمية المؤسسات والممارسات الجيدة، مثل: سيادة القانون، وحماية حقوق الملكية، والحكومة الفعالة، والتقاليد الاجتماعية التي تجعل الثقة ممكنةً، والتعليم الجيِّد والعام، وقلة التسامح مع الفساد. الحكومة الفعالة تعني أن القطاع العام يعمل بطريقة مقبولة. فإذا أردنا أن نبدأ في عمل مشروع ما، لن يكون علينا أن نرشو الموظفين كي يتم تسيير الأمور؛ كما أن حقوقنا كعمال ومستهلكين ومقيمين ستكون مصونة من أماكن العمل غير الآمنة، والمنتجات غير الآمنة، والتلوث الصناعي. وسيادة القانون تحمينا من الأذى، وتتيح لنا أن نخطط للمستقبل بقدرٍ معقولٍ من الثقة في أننا نملك إرادة لن تُسلَب منّا. وهي تُمكنّنا من أن نُحرر العقود ونحن على علم بأن الأطراف المتعاقدة سوف ينالون جزاءهم إذا ما نقضوا العقد. ومع ذلك، فحيث إنَّ هناك دائمًا تكاليف لاستعادة الحقوق وفقًا للقانون، فإنَّ وجود مستوى معين من الثقة يجعل من الأسهل على الناس أن يعملوا معًا، ويخلق حِسًّا جماعيًّا مشتركًا فيما بينهم.

إنَّ الفكرة القائلة بأنَّ المؤسسات الجيدة تلعب دورًا حاسمًا في تقليل الفقر هي فكرة لا تؤدِّي إلى إنكار قيمة الإعانة، وإنما تؤدّي بالأحرى إلى جعل الإعانة مشروطة بقيام الحكومة المتلقية للإعانة بأداء دورها في توفير

(1) Robert Guth, «Bill Gates Issues Call for Kinder Capitalism,» *The Wall Street Journal*, January 24, 2008.

شروط النمو الاقتصادي. هذه الطريقة في التفكير أقنعت الرئيس بوش بأن ينشئ -بمساعدة الحزبين [الجمهوري والديموقراطي]- حساب «التحدّي في الألفية الجديدة» Millennium Challenge، وهو نسبة احتياطية تحفيزية من إعانة الولايات للحكومات التي على حد تعبيره «تحكم بالعدل، وتستثمر لمصلحة شعوبها، وتشجع على الحرية الاقتصادية»[1]. إن المنظمات من قبيل منظمة «أوكسفام» قد حوّلت انتباهها إلى بناء المؤسسات، ودعم المعلومات عن المتعاونين المحليين الذين يسيرون بشكل ديموقراطي من أجل تسهيل كل شيء بدءًا من صيانة بئر إلى تسويق القهوة. بينما البنك الدولي وبرامج الإعانة الموجهة من حكومة إلى حكومة قد سعوا إلى بناء قدرات الحكومات على أن تؤدّي دورَها بشكلٍ فعَّال.

وفي واقع الأمر، يُمكن أن تكون الإعانة مؤثرةً في تحسين المؤسسات -كما برهن على ذلك بول كولير Paul Collier- عند التعامل بوجه خاص مع الدول الهشّة. فالدول التي خرجت من حرب أهلية -على سبيل المثال- تكون عُرضَة إلى حد كبير لخطر السقوط مجددًا في الصراع، مع كل ما سوف يجلبه ذلك من بؤس لمواطنيها. وقد أظهر لنا كولير أن المبالغ الضخمة من الإعانة، التي تكون موجهة بشكل صحيح ومستدامة لسنوات عديدة، يمكن أن تُعزز قدرة حكومات ما بعد الصراع على تجنب تلك المأساة[2]. إن موزمبيق التي عانت خلال عقود من الحرب الأهلية، تُعدّ مثالًا واحدًا على الدول التي أحدثت فيها الإعانة فرقًا. وتعد سيراليون مثالًا آخر، رغم أن خطر العودة إلى القتال لم يزل تمامًا. تنشأ الفرص أيضًا عندما تحل حكومة إصلاحية محل حكومة فاسدة أو غير صالحة، مثلما حدث في حالة حكومة ليفي مواناواسا Levy Mwanawassa في زامبيا، التي حلّت محلّ حكومة بالغة الفساد عندما تولّت مقاليد الحكم في سنة 2002. وقد وجد كولير في هذه الحالات أن منح مبلغ 1 بليون دولار بغرض المساعدة الفنية طيلة أربع سنوات أمكن أن يُتوقع منه ما قيمته 15 بليون دولار من المنافع الاقتصادية للدولة، بدون حساب مكسب العالم الذي يأتي من أن البلد أصبح في ظل حكم فعال[3].

إذا كان يمكننا تحسين المؤسسات، فإننا ينبغي أن نفعل ذلك. وفي

(1) George. W. Bush, quoted in «The Millennium Challenge Account,» www.whitehouse.gov/infocus/developingnations/mellenium.html.

(2) Paul Collier, *The Bottom Billion*, p. 106.

(3) Ibid., p. 114.

الحالات التي يصفها كولير ينبغي أن يكون ذلك أول أولوياتنا. وبطريقة مأساوية تكون الأحوال أحيانًا سيئة للغاية بحيث إن لا شيء مما نفعله سوف يُقلل من بؤس المواطنين التعساء. عندئذ يكون علينا أن نتوجه إلى مكان ما آخر. ولكن في أحيان أخرى يُمكن للإعانة أن تساعد الفقراء بطريقة مباشرة، مُحدِثةً فرقًا كبيرًا ومستدامًا في حياتهم. وحتى إن لم تؤدِّ الإعانة إلى وجود مؤسسات أفضل، فإننا لا ينبغي أن نحتبسها.

مشروع قُرى الألفية الجديدة

الآن تحديدًا، تُجرَى تجربة على نطاق واسع في إفريقيا، سوف تقيس الفرق الذي تُحدِثه الإعانة بالنسبة إلى القرويين الريفيين، حتى بدون تغيير المؤسسات الكبرى في بلدهم. يؤمن عالم الاقتصاد جيفري زاكس بأن الفقر يُمكن أن يكون فخًا لعملية تدوير الفقر ذاتيًا. فالفلّاحون الصغار الذين يزرعون الحبوب يكون عليهم القناعة بالتربة الجدباء، ولكنهم لا يستطيعون توفير السماد. فهم يَدّخِرون الحبوبَ من المحاصيل التي يزرعونها، ولكنَّ هذه ضروبٌ قليلة الإنتاجية. ولذلك فإنهم يحصلون فقط على حوالي ثلث معدل محصول المزارعين في البلدان المتقدمة خارج إفريقيا، بما لا يكفي لأن يوفر لهم أموالًا لشراء سماد أو بذور أفضل. وعندما عيَّن كوفي عنان -سكرتير الأمم المتحدة آنذاك- زاكس مديرًا «لمشروع القرى في الألفية الجديدة» سنة 2002، بدأ زاكس في تحديد أساليب عملية يُمكن الاعتماد عليها في مساعدة الفقراء على التخلّص من فخّ الفقر. وقد خلص من ذلك إلى أنّه إذا قامت وكالة إعانة عبر سنوات عديدة بإمداد المزارعين الريفيين بوسائل لشراء الأسمدة والبذور الأفضل التي يحتاجون إليها؛ لكانوا قادرين على إعادة استثمار ما كسبوه من محاصيلهم المُحسَّنة. وحتى بعد أن تكون الوكالة قد أوقفَتْ دَعمَها، فإنَّهم سيستمرون في التمتُّع بإنتاجية أعلى ويمكنهم الاستثمار في مزيد من التحسينات. وكما يكتب زاكس: «المساعدة الوقتية يمكن أن تضع المزارعين على مسارِ النموّ على المدى الطويل. إنها ليست وجبة غذاء. قامت «الثورة الخضراء بآسيا» بتنفيذ ذلك الأسلوب»[1].

بدأ زاكس سنة 2005 في تطبيق هذه النظرية. قام بالتخييم مع حلف

(1) Jeffrey Sachs, «Rapid Victories Against Extreme Poverty,» *Scientific American* 269 (April 2007), p. 34, www.scian.com/article.cfm?articleID=5B978D32=E7F2-99DF.

ثلاثي المسارات يشتمل على برنامج الأمم المتحدة للتطوير، و«تعهّد الألفية الجديدة»، وهي منظمة غير حكومية NGO؛ و«معهد الأرض بجامعة كولومبيا» الذي يوفر البحث والخبرة اللازمين لحل المشكلات في الزراعة والصحة العامة والهندسة ومجال البيئة. وهم جميعًا يدعمون «مشروع قرى الألفية الجديدة». وفي حين أن برامج الإعانة العديدة تُوضع من أجل شيءٍ واحد فقط هو: توزيع بذور أفضل من أجل تحسين إنتاج المحصول، وإنشاء المدارس، أو إقامة العيادات الصحية؛ فإن «مشروع قرى الألفية الجديدة» يهدف إلى فعل كل ذلك على الفور، مُقدمًا للجماعات الريفية مساعدة متعددة الشعاب في التعامل مع العديد من المشكلات التي تواجهها[1].

بدأ المشروع باثنتي عشرة قرية، يبلغ عدد سكانها الإجمالي 60,000 نسمة، جميعها تقع في «المناطق الساخنة» المتأجّجة بالجوع المزمن، والتي تجتمع فيها مشكلات المرض الخطير مع بؤس الرعاية الصحية والبنية التحتية. كل القُرى تقع في بلدان مُسالمة إلى حدٍّ معقول. وعلى الرغم من الدرجات المتنوعة من الفساد، فإنها تخضع لحكم فعال بما يكفي لأن يزرع الناس أرضَهم في ظلّ أمانٍ معقول، ولأن يجنوا الفوائد من أي فائض يبيعونه. ولكي يختبر زاكس نموذجَه هذا في ظلّ ظروفٍ مختلفة، فقد اختار القرى من بين عشرة بلدان إفريقية ذات تنوع في المناخ والتقاليد الزراعية. ورغم أنّ الحكومات الوطنية لهذه البلدان قدمت مبالغ مالية وخدمات ضئيلة لدعم البرنامج، فإن كل الإعانة قد تم توصيلها مباشرةً إلى القرى.

يتيح «مشروع قرى الألفية الجديدة» لكلّ مجتمع أن يختار -من خلال المناقشة مع مستشاري المشروع- شكلَ المساعدة التي يعتقدون أنها مرغوبة للغاية وذات تكلفة تؤتي ثمارها بالنسبة إلى ظروفهم الخاصة. كما يمكن للقرية أن تختار من بين البرامج ما يوفّر لها مياه شربٍ آمنةً، والإمداد بالفيتامينات والمعادن اللازمة لأطفالهم، وبرامج التطعيم، وستائر الفراش الشبكية، وبرنامج لعلاج الديدان للتخلّص من الطفيليات الباطنة. وكشرط لتقديم المنح، يجب أن يُتاح للنساء المشاركة في اتخاذ القرارات. كما يُقدّم البرنامج للمزارعين السمادَ وتنوعًا من البذور أفضل جودة من أجل تحسين العوائد من الزراعة، ويقدّم أيضًا المشورة من أجل إنتاج محاصيل لها قيمة نقدية. ويُطلّب من المزارعين أن يُسهموا بدورهم بنسبة من حصادهم الزائد

(1) Jeffrey Sachs, *Common Wealth: Economics for a Crowded Planet* (New York: Penguin, 2008), pp. 238-41; www.milleniumvillages.org.

إلى برنامج يعمل على تغذية الأطفال في المدارس. وهذا من شأنه أن يُغذّي الأطفال، ويحسّن من نسبة حضور التلاميذ إلى المدارس، ويضمن أن يكون التلاميذ أكثر قدرة على تركيز اهتمامهم في دروسهم. ويقدم البرنامج تقنيات جديدة من قبيل: مواقد موفّرة للطاقة، وأساليب محلية لإنتاج الطاقة، وحتى لإنتاج الهواتف المحمولة. وفي كل هذا تتكلف الإعانة 110 دولارات لكل شخص في السنة، يجب أن تأتي منها نسبة 10% لكل شخص من القرية؛ ويلتزم المشروع باستمرار الإعانة لمدة خمس سنوات. وبعد تلك الفترة، إذا كانت الخطة ناجحة؛ فإن المحاصيل المُحسّنة سوف تتيح للمزارعين الهروب من فخّ الفقر، وأن يكونوا قادرين على شراء أسمدتهم الخاصة وأن يصبحوا قادرين على الدّعم الذاتي، أو الاستثمار في مشاريع أخرى. وعندئذ يُمكِن سحب الإعانة الخارجية[1].

وفي سنة 2008، توسّعَ البرنامج ليشمل ثمانين قرية تضم 400,000 شخص. تشير المؤشرات الأوليّة إلى أن نتاجات المحصول تكون سخية، والجوع يتلاشى، وسوء التغذية والملاريا يتضاءلان، والمواظبة على الحضور إلى المدارس يرتفع بشكل حاد. وربما يكونُ الأكثرُ أهمية من ذلك كله هو أنّ القادةَ المحليين يتحدّثون عن روح جديدة من الأمل وعزةِ النّفس بين المزارعين؛ لأنهم يعملون معًا من أجل حل المشكلات العامة.

قادة الجماعات من القرى المتنوعة يروون حكايات عن التقدم. إليزابيث آبيا Elizabeth Appiah -وهي قائدة جماعة من قرية بوناسو Bonasso في غانا- كتبَتْ عن كيف أمكن للمشروع أن يزيد من انهماك النساء في عمل الجماعة، الذي يتمثّل بعضٌ منه في إصلاح بئر توفّر عليهن -بإعادة تأهيلها للاستخدام- ساعتين من المشي يوميًا لأجل جلب الماء؛ كما يتمثّل أيضًا من خلال إعطائهنّ الفُرص لأجلِ كسبِ دخل، والمشاركة في مركز تعليمي جماعيٍ جديد. وتقول باميلا ميتو Pamela Mito -قائدة جماعة سَوري Sauri- إنّ إنتاجات المحصول قد تضاعفَتْ ثلاث مراتٍ، وإنّ المزارعين قد تعلّموا أن يستثمروا إنتاجهم الزراعي، بحيث إنّهم يُمكنهم الآن أن يوفّروا الغذاء لأنفسهم وأن يتكسّبوا أيضًا بعضًا من المال نقدًا. كما أنّها لم تَعد قلقة من إصابة أطفالها بالإسهال؛ لأن إمداد القرية بالماء أصبح آمنًا. ياكوبا كوليبالي Yacouba Coulibaly -من قرية تيبي Tiby بمالي- تقول إنّ

(1) Millennium Villages: A New Approach to Fighting Poverty: FAQ,»www. unmillenniumproject.org/mv_faq.htm; «The Magnificent Seven,» *The Economist*, April 26, 2006. P. 63.

إنتاجات المحصول قد ازدادت بما يكفي لأن يمنحهم فائضًا لبيعه، بينما أنَّ وجود مراحيض مستقلّة في المدارس هو أمرٌ يعني أن الفتيات سوف يواظبن الآن على الحضور إلى المدارس. وبالنسبة إلى نداهايو سيلستين Ndahayo Celestin -من قرية ماينجي Mayange برواندا- فإنَّ النتاجات الأعلى من المحصول تُمكّن أسرته من أن تتناول وجبتين من الغذاء بدلًا من وجبة واحدة خلال السنتين السابقتين. بل إنهم يكدسون احتياطًا نقديًا «بحيث إن المستقبل لن يكون مثل الماضي».

وإذًا، فإن المؤشرات جيدة حتى الآن، ولكن من المبكر جدًّا القول بإذا ما كانت التجربة تثبت صحة نظرية زاكس عن «فخ الفقر»، وتبيّن أنه من الممكن إنهاء الجوع، وتقليل وفيات الطفولة، ومساعدة الأفارقة على أن يخلقوا حياةً أفضل لأنفسهم، من دون بناء مؤسسات أفضل على المستوى الوطني. ويومًا ما فيما بين سنتي 2010 و2012 ينبغي أن يتّضح إذا ما كان «مشروع قرى الألفية الجديدة» ناجحًا. فإذا كان ناجحًا، يمكن عندئذ تطبيقه على نطاق أوسع بحيث يصل إلى مئات الآلاف من القرى في البلدان الفقيرة العديدة التي تكون لديها مؤسسات كافية لأن تُتيح للقُرى أن تجني المنافع من إنتاجات المحصول، ومن المياه الآمنة، والصحة الأفضل حالًا، والمدارس الجديدة، ووسائل الاتصالات المحسّنة. وسوف يتطلّب ذلك مزيدًا من الإعانة، ولكن الإعانة سوف تُثبت فاعليّتها عندما تُصبح القرى التي تتلقّى الإعانة مستدامة ذاتيًا.

الكوكب الأرضيّ لا يُمكنه أن يتحمَّلهم

عندما أتحدّث إلى جمهورٍ عن الفقر العالمي، فإنني غالبًا ما أُواجه الاعتراض التالي: «إنقاذ حياة الفقراء الآن سوف يعني فقط أنَّ المزيد منهم سوف يموتون عندما ينفجر في النهاية عدد السكان؛ لأنَّ كوكبنا قد تجاوز منذ زمن طويل قدرته على الاحتمال». هذا الاعتراض هو دليل على الصلة المتواصلة لفكر عالم الاقتصاد والقس الإنجليزي في القرن الثامن عشر توماس مالتوس Thomas Malthus الذي ادعى بشكل ذائع الصيت أن عدد السكان سوف يفوق دائمًا القدرة على إمدادات الغذاء. وهو يرى أنه إذا لم تستطع الجوائح والبلاءات التحكم في عدد السكان، فإن «المجاعة

المحتومة الهائلة» سوف تتكفل بذلك[1]. وبعد ذلك بقرنين، في سنة 1968، حذَّر عالم الحشرات بول إرليك Paul Ehrlich في كتابه الأكثر مبيعًا عن **الانفجار السكاني** *Population Bomb* من أننا قد خسرنا معركة تغذية البشرية. وقد تنبَّأ بأنه بحلول عام 1985 سوف تجتاح العالم «مجاعات هائلة» «سيموت فيها مئات الملايين جوعًا»[2]. ومن حسن الحظ أنه كان على خطأ. فإنتاج الغذاء قد نما بقوة -على أساس من نصيب كل شخص- في العقود الثلاثة بعد تنبُّئه سيِّئ الطالع، كما أن نسبة الناس الذين يعيشون في البلدان النامية والذين لم يكونوا يتحصلون على 2,200 سعر حراري يوميًا -وهو الحد الأساسي من حيث الكفاية- قد تضاءلَت من أكثر من شخص واحد من بين كل اثنين إلى واحد فقط من بين كل عشرة[3].

في سنة 2008 رأينا مجددًا عناوينَ تتعلَّق بأزمة الغذاء العالمي، حيث إنَّ القمح قد بلغ أعلى سعر له خلال ثماني وعشرين سنة، وقد تضاعف سعر الذرة عمّا كان عليه منذ سنتين؛ وارتفعت فاتورة حساب الغذاء في البلدان النامية بمقدار 25% في سنة واحدة. وفي الولايات المتحدة، نجد أنه حتى خُمس السكان الأكثر فقرًا ينفقون فقط 16% من دخلهم على الغذاء، ولكن في نيجيريا تصل النسبة إلى 73%، وفي فيتنام تصل النسبة إلى 65%، وإلى 50% في إندونيسيا؛ وبذلك فإنَّه يُصبح من الواضح أنَّ الأسعار المرتفعة تجعل من الأصعب على الفقراء أن يشتروا غذاءً كافيًا لأن يبقيهم على قيد الحياة[4]. مثل هذه التطورات تؤدِّي إلى إحياء الاعتراضات المالتوسية على مساعدة الفقراء على أن ينجوا ويتناسلوا. ولكن المشكلة ليست تَكمُن في إننا ننتج القليل جدًّا من الغذاء، وإنما بالأحرى في أننا لا نأكل الغذاء الذي نزرعه. مائة مليون طن من الذرة تتحول إلى وقود حيوي يذهب إلى خزانات الغاز في أمريكا. وذلك أقل كثيرًا من الذرة المتاحة للتصدير، وبذلك تسهم في زيادة الأسعار العالمية للحبوب. ولكن معظم الذُرَة لا يأكلها البشر، وإنما تأكلها الحيوانات، وهنا تكمن بداية الجانب الأكبر من أزمة الغذاء. كمية الحبوب وفول الصويا التي تتغذى الحيوانات

(1) Thomas Malthus, *An Essay on the Principle of Population*, 1st edition, 1798.

(2) Paul Ehrlich, «Paying the Piper,» *New Scientist* 36:652-55, reprinted in Garrett Hardin, ed., *Population, Evolution, and Birth Control*, 2nd ed. (San Francisco: W. h. Freeman, 1969), p. 127. See also Paul Ehrlich, *The Population Bomb* (New York: Ballantine, 1968), p.36.

(3) Food and Agriculture Organization of the United Nations, *World Agriculture: Towards 2015/2030*, Rome, 2002, p. 1, ftp://ftp.fao.org/docrep/fao/004/y3557e/y3557e01.pdf.

(4) Editorial, «The World Food Crisis,»*The New York Times*, April 10, 2008.

عليها، قد ازدادت بشكل حاد خلال العقد الأخير الذي أصبحت فيه الدول الآسيوية أكثر ازدهارًا، وأصبح مواطنوها يأكلون مزيدًا من اللحوم. وفي الصين وحدها، خلال العقدين الأخيرين حتى سنة 2006، ازداد عدد مواشي الأبقار المولودة سنويًا من 5 ملايين إلى أكثر من 50 مليونًا، وزاد عدد الدجاج البياض من 655 مليونًا إلى 2.3 بليون دجاجة، وزاد البط من 300 مليون إلى 2 بليون، والدجاج من 1.5 بليون إلى 7.7 بليون. ومن المفترض أنَّ كل هذه الحيوانات تتغذى على الحبوب وفول الصويا[1]. وفقًا «لمنظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة»، تم تغذية الحيوانات في 2007 بمقدار 756 مليون طن من الحبوب[2]. ولكي أُقرّب لكَ معنى هذا القدر الكبير من الحبوب، يُمكن أن تتخيّل تقسيم هذا القدر فيما بين 1.4 بليون شخص يعيشون في فقرٍ مُدقِع. فهذا سوف يُتيح لكل شخص منهم أكثر من نصف طن من الحبوب، أو حوالي ثلاثة أرطال منها في اليوم الواحد، وهو ما يعني التزوُّد بضعف السعرات الحرارية التي تحتاج إليها. أضف إلى ذلك أنَّ معظم الإنتاج العالمي لحبوب فول الصويا البالغ 225 مليون طن يذهب إلى تغذية الحيوانات به أيضًا؛ وعندئذ يُمكنك أن ترى كيف أن القدر الكبير من الغذاء الذي نزرعه لا يأكله مباشرة الإنسان. عندما نستخدم الحيوانات لكي نتحول من أكلي الحبوب إلى استهلاك اللحم والبيض أو اللبن، فإنَّ الحيوانات تستهلك معظم القيمة الغذائية لكي تبقى دافئة وتنمو عظامها والأجزاء الأخرى التي لا يمكن أن نأكلها. وبذلك فإن معظم القيمة الغذائية للغلة التي زرعناها يضيع. وفي حالة المواشي، فإننا نستردّ نظير اللحم مقدار رطل واحد فقط من 13 رطلًا من الحبوب التي غذيناها بها. أمّا في حالة الخنازير، فإنَّ النسبة هي رطل واحد من لحم الخنزير نظير 6 أرطال من الحبوب. وحتى هذه الأرقام هي أقل من الفاقد، لأنَّ اللحم ينطوي على معدل مياه أعلى مما تنطوي عليه الحبوب[3]. إن العالم لم يبدأ في استنفاد الغذاء. فالمشكلة هي أننا -نحن الأثرياء نسبيًا- قد وجدنا طريقًا لاستهلاك

---

(1) ترجع هذه الأرقام إلى إحصاءات منظمة «الفاو» FAOSTAT، والإحصاءات مستمدة من «منظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة»

http://faostat.fao.org.

(2) Food and Agriculture Organization, *Crop Prospects and Food Situation*, No. 2, April 2008. Available at www.fao.org/docrep/010/ai465e/ai465e04.htm.

(3) Eric Marcus, *Meat Market: Animal Ethics, and Money* (Ithaca, N.Y.: Brio Press, 2005), pp. 255-56, citing W.O. Herring and J. Bertrand, «Multi-trait Prediction of Feed Conversion Feedlot Cattle, «Proceedings of the 34th Annual Beef Improvement Federation Annual Meeting, Omaha, Nebraska, July 10-13, 2002, www.bifconference.com/bif2002/BIFsymposium_pdfs/Herring_02BIF, and «Pork Facts, 2001/2002,» National Pork Board, Des Moines, Iowa.

أربعة أو خمسة أضعاف قدر ما يمكن أن نستهلكه من الغذاء، لو كان لنا أن نأكل مباشرة من الغلّة التي نزرعها.

الاختلاف بين الموقف الحالي والموقف الذي تنبّأ به مالتوس هو أنه بينما تصور أن نمو السكان يؤدي إلى مجاعات ضخمة، فإن «الخطر» الوحيد الذي يلوح بذلك في الأفق هو التغذية النباتية على نطاق ضخم. الحبوب والصويا التي نطعم بها الحيوانات توفّر لنا حاجز صد في متناولنا ضد غائلة الموت جوعًا، إذا ما احتجنا إليها. إنّنا ننتج بالفعل ما يكفي لتغذية كل شخص على الكوكب، بل يكفي ثلاثة بلايين إضافية من البشر يمكن توقع مشاركتهم في هذا الكوكب بحلول عام 2050.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ العالم لا يُمكن أن يدعم عدد سكان ينمو بلا نهاية؛ فالنمو السكاني في بعض القارات يقوض المكاسب في إنتاج الغذاء. وبحلول سنة 2050، فإن عدد سكان نيجيريا الذي يبلغ الآن 144 مليون شخص، من المتوقع أن يبلغ 282 مليون، وأن تصبح بذلك سادس أكبر دولة في العالم من حيث الكثافة السكانية. وفي ذلك الوقت، فإن جمهورية الكونغو الديموقراطية التي تؤوي الآن 63 مليون شخص، من المتوقع أن يبلغ عدد سكانها 146 مليونًا[1]. ولكنّ القول، مثلما ذهب إلى ذلك عالم البيئة جاريت هاردين Garret Hardin في السبعينيات -واضعًا في اعتباره بلدانًا من قبيل بنجلاديش والهند- بأننا ينبغي ألا نمنح إعانة للبلدان الفقيرة التي ينمو فيها التعداد السكاني بسرعة، هو قول يتجاهل الحقيقة المستقرّة التي تقول إنّ تقليل الفقر يُقلّل أيضًا نسبة المواليد[2]. أينما يموت الأطفال ولا يكون هناك «أمان اجتماعي»، يميل الآباء لأن تكون لهم علائلات كبيرة ضمانًا لأن ينجو بعض منهم ويعتنون بهم في كهولتهم، ولأنْ يَعملُوا في الفلاحة في حالة العائلات الريفيّة. أما في حالة البلدان الصناعية ومستوى المعيشة المرتفع، فإنّ معدلات المواليد تكون منخفضة. لقد حدث هذا في أوروبا وأمريكا الشمالية، ثم حدث أيضًا في الدول الآسيوية التي حقّقت مُستويات مشابهة من الثراء، وهي تشمل اليابان ومؤخرًا كوريا.

التعليم أيضًا يُقلّل مُعدّلَ المواليد، خاصةً حينما يتم توفيره للفتيات. ففي إثيوبيا نجد أنّ النساء اللاتي لم يذهبن إلى المدرسة يكون لديهن في المتوسط ستة أطفال؛ وهـذا سيؤدي إلى نمو سكاني لا يمكن تحمله.

(1) Population Reference Bureau, 2007 World Population Data Sheet, pp. 1,7, www.prb.org/pdf07/07WPDS_Eng.pdf.

(2) Garret Hardin, «Living on a Lifeboat,» *Bioscience* 24 (1974), pp. 561-68.

أما النساء اللاتي تلقَّين تعليمًا ثانويًا على الأقل، فكان لديهن طفلان في المتوسط، وهو ما يُعدُّ دون مستوى الإحلال التعويضي. وفي بلدان أخرى لا يكون الاختلاف على النحو الذي يكون معلنًا، ولكن على وجه الإجمال نجد أن النساء اللاتي تلقَّين تعليمًا ثانويًا ينجبن ما بين ثلث ونصف ما تنجبه النساء اللاتي لم يتلقَّين تعليمًا رسميًا[1].ما يعكس هذا الاختلاف هو ولاية كيرلا Kerala الهندية. فعلى الرغم من أنها واحدة من أكثر المناطق فقرًا في البلد؛ فإننا نجد فيها درجةً من تعلُّم الكتابة والقراءة والمساواة بين الجنسين أعلى مما يُوجَد في كثير من بقية مناطق الهند. ومن دون لجوء إلى توجه قسري من قبيل «سياسة إنجاب طفل واحد»، فقد حقَّقت كيرَلا معدَّلَ نموٍّ سكَّاني أدنى مِن مُعدَّلِ النموِّ السُّكَّاني في الصّين، بل أدنى من هذا المعدَّل في البلدان المتقدمة، بما فيها السويد وكندا[2]. وعندما تكون الإعانة وسيلة لزيادة تعلم القراءة والكتابة والمساواة بين الجنسين، يمكنها عندئذ أن تساعد على تحقيق عدد سكان يمكن تحمُّلُه.

ومع ذلك، فبالنسبة إلى البلدان الفقيرة ذات المعدَّلات المرتفعة في نسبة السكان، قد تكون المزيد من المقاييس التي تُبيّن نسبة الزيادة السكانية مطلوبة إذا كان عدد السكان ثابتًا عِند مستوى يُمكن تحمّله، ويمكن أن يُوفِّر حدًّا أدنى معقولًا من المعيشة. ولكن هذا لا يُقلّل من أهمية الإعانة أيضًا. وتوفير الرعاية الصحية الأساسية يظلّ أمرًا مركزيًا في هذه الجهود؛ لأنّها تُعدّ طريقًا للوصول إلى النساء والتحدث معهنّ حول منع الحمل. فإذا كُنتَ تعتقد أن إيقافَ النموّ السكّاني هو أولوية بالغة؛ فإنك ينبغي أن تتبرّع للمنظمات مثل: «المنظمة الدولية للخدمات السكانية» Population Services International و«الاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة» International Planned Parenthood Federation، طالبًا أن تُخصص تبرُّعَكَ لمشروعات تنظيم الأسرة[3].

عندما تكون فيلسوفًا، ويسألك الناس بالمصادفة ماذا نفعل، ومن

(1) Population Reference Bureau, 2007 World Population Data Sheet, p. 4, www.prb.org/pdf07/07WPDS_Eng.pdf.

(2) See Amartya Sen, «Population: Delusion and Reality,» *The New York Review of Books* 41:15 (September 22, 1994). An updated (2002) version is available at www.asian-affairs.com/issue17/sen.html.

(3) See www.psi.org/reproductive-health and www.ippf.org/en.

الأرجح أن يكون السؤال التالي هو «وما فلسفتك إذًا؟». زميلي كوام آنتوني آبيا Kwame Anthony Appiah لديه إجابة جيدة، إذ يقول: «فلسفتي هي أن كل شيء أكثر تعقيدًا مما تظن»[1]. أنا لا أتفق دائمًا مع آبيا، ولكن تنفيذ نتائجنا المبشرة عن الإعانة المتعلّقة بالعالم الواقعي تكون غالبًا أكثر تعقيدًا مما نظنّ، وهذا يصدق على أي مقياس واسع للنشاط البشري. وسواء كانت التعقيدات تتضمّن «المرض الهولندي» ومؤسسات سيئة أو نموًّا سكانيًّا، فإنها تُدخِل عنصرًا من الريبة في جهودنا في توفير الإعانة. وعلى الرَّغم من ذلك، فإن درجة ما من الريبة فيما يتعلق بتأثير إعانتنا، لا يستبعد التزامنا بالتبرُّع. إذا كان مشروع إعانة له فرصة جيدة في جلب منافع للفقراء، وكانت التكلفة التي نتحمَّلها لجعل مشروع الإعانة ممكنًا تعد ضئيلةً نسبيًّا؛ فإنَّنا ينبغي إذًا أن نُواصل التبرُّع بالمال.

لكن ما لم نتَّخذ قرارًا بشأنه حتى الآن هو مقدار ما ينبغي أن نتبرّع به، خاصةً عندما تكون لدينا التزامات تجاه عائلتنا، وعندما نعيش وسط أناس لا يمنحون سوى القليل أو لا يمنحون شيئًا على الإطلاق. وهكذا، فقد حان الوقت الآن لأن نعود إلى الأسئلة الأخلاقية التي بدأنا بها، من خلال تأصيل راسخ في علم النفس وفي الوقائع المتعلقة بالإعانة.

(1) Kwame Anthony Appiah, *Experiment in Ethics* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 20080, p. 198.

معيار جديد للتبرع

8 - طفلك وأطفال الآخرين

تشارلوت جيلمان Charlotte Perkins Gilman لديها قصة قصيرة منشورة سنة 1895 بعنوان «**امرأة غير طبيعية**» *Unnatural Mother*، تتضمَّن حكايةَ امرأة تُواجه قرارًا عسيرًا. وفي أثناء سير هذه المرأة التي تُدعى إيستر جرينوود Esther Greenwood لكي تُقابل زوجَها، تُلاحِظ أن السدَّ الذي يحجز مياه البحيرة خلفه قد بدأ في الانهيار. وعلى الفور جَرَت لكي تُحذِّر أولئك الذين يعيشون في القرية الواقعة في الوادي أسفل منزلها، حيث كانت طفلتها نائمة في المنزل. لقد رأت أنَّ إنقاذ طفلتها سوف يحول في الوقت ذاته دون إطلاقها صيحة تحذير للقرويين، ولذلك لم تتوقَّف عن الجري. لقد قامت بإنقاذ القرويين ثم رجعت بعد ذلك إلى طفلتها، ولكنها غرقت في أثناء سعيها لإنقاذ طفلتها؛ ولكن لحسن الحظ أن طفلتها قد نجت[1]. السيدة العجوز بريجز Briggs -التي كان لديها ثلاثة عشر طفلاً، وكانت تُمثِّل الأخلاق العرفية في تلك الأيام- اتخذَتْ موقفًا مُعاديًا لقرار إيسترلي[2]. فلأن إيسترلي لم تضع حياة طفلتها الخاصة على رأس حياة الآخرين؛ فإنها بذلك تُعدُّ «امرأة غير طبيعية». أما ماري آميليا Mary Amelia ابنة السيدة بريجز، فقامت بعرض رؤية إيسترلي التقدمية هنا، مبيِّنةً أن إيسترلي قد أنقذَتْ حياةَ مائةٍ وخمسة عشر شخصًا، وكانت بلا شك تُفكِّر في كل الأطفال الآخرين الذين يواجهون الخطر. ولكن السيدة بريجز تشعر بالخزي من ماري آميليا لقولها بمثل هذا الرأي: «فواجب الأم هو واجب تجاه طفلها الخاص».

هذه القصة تثير أسئلة مقلقة: «ما واجب الوالدين في الظروف بالغة الشدة؟ هل هناك أوقات يكون فيها التزامنا إزاء الآخرين مساويًا أو حتى أكبر من التزامنا إزاء أسرتنا؟» ينبغي لك أن تحب أطفالك، هذا أمر مُسلَّم به، وعدم فعلك لذلك سوف يكون أمرًا خاطئًا وغير طبيعي في الوقت نفسه. ويجب عليك أيضًا أن توفر لهم احتياجاتهم، من تغذية

(1) يستخدم سينجر كلمة «الطفل» هنا بشكل محايد، ولكننا استخدمنا كلمة «الطفلة» استنادًا إلى أصل القصة. ومع ذلك، فإن هذه الملاحظة لا تغير شيئًا من الأمر هنا. [المترجم]

(2) كانت بريجز -مثل كثير من نساء القرية- تكره إيسترلي، وقد حكمت بأنها غير صالحة للزواج؛ لأنها تفتقر إلى الغريزة الأمومية، ولكن إيسترلي قد تزوجت بالصدفة من فنان وعاشت معه بالقرب من السد خارج القرية. وعلى الرغم من أنها قد أنقذت بريجز وأطفالها مع غيرهم من القرويين، فقد ظلت بريجز على رأيها في إدانة قرارها. وهذا الموقف من جانب بريجز يُنظَر إليه هو ذاته باعتباره معاديًا للأخلاق الكانطية التي تطالبنا بفعل الواجب من أجل الواجب، ومن ثم من أجل الإنسانية التي تتمثل في كل شخص منا بصرف النظر عن مصلحتنا الشخصية. وهذا هو الجدل الذي تثيره هذه القصة عادةً. [المترجم]

ومأوى وملبس وتعليم. ولكن هل ينبغي أن تعرض حياة طفلك للخطر لكي تنقذ حياة مئات آخرين؟ لحسن الحظ أن قليلًا منا هم الذين سوف يكونون يومًا ما في مواجهة ذلك السؤال. إن المعضلة الحقيقية، بالنسبة لكل منا، هي إذا كان من الخطأ وغير الطبيعي أن نرفض توسلات الأطفال لشراء ألعاب الكومبيوتر الأكثر حداثة غالية الثمن، وأن نرفض بازدراء شراء ملابس الأطفال التي تحمل علامتها التجارية، وأن نرسلهم إلى مدرسة عامة محلية (كافية تمامًا، وإن لم تكن متميزة) بدلًا من أن نرسلهم إلى مدرسة خاصة معترف بتميزها ولكنها مُكلفة. إن المدخرات التي تجمعها باتخاذ الخيار الأقل تكلفة في كل حالة، سوف يتيح لك أن تتبرّع بمبالغ معتبرة من أجل إنقاذ حياة الغرباء عنك. ولكن هل التزاماتك إزاء أطفالك تفوق التزاماتك إزاء الغرباء مهما كان قدر احتياجهم أو معاناتهم؟

لقد عذبت هذه المعضلة نفسها زِل كرافينسكي Zell Kravinsky. عاش كرافينسكي حياة مليئة بالانشغالات: كان يُدرِّس للأطفال المضطربين اجتماعيًا في مدرسة فيلادلفيا العامة، وكتب رسالتين للدكتوراة، ودرّس مقررات دراسية عن ميلتون في جامعة بنسلفانيا. وعبر مسار انشغالاته وجد وقتًا ليقوم بنشاط جيد في الاستثمار العقاري ويجمع -في منتصف الأربعينيات من عمره- أسهمَ مِلْكيةٍ في أسواق تجارية وسندات مالية أخرى تبلغ قيمتها حوالي 45 مليون دولار. ولأنه كان واعيًا بتوفير احتياج عائلته، فقد وضع ودائع مالية ائتمانية لأجل زوجته وأطفاله، وكذلك لأجل أطفال أخته. وقد شرع بعدئذ في التبرُّع ببقية المال كله، محتفظًا فقط بمنزل عائلته المتواضع في مدينة Jenkintown بالقرب من فيلادلفيا، وبمبلغ 80,000 دولار كمبلغ احتياطي نقديّ. إنه يُنفق القليل جدًا على نفسه؛ فبمبلغ زهيد امتلَكَ بدلةً واحدة، اشتراها من متجر توفير بقيمة 20 دولارًا. وعلى حد قوله عندما زار الفصل الذي أُلقِي فيه دروسي: «يبدو لي واضحًا وضوح الشمس أنني كان ينبغي أن أتبرّع بكل أموالي وأن أتبرّع بكل وقتي وطاقتي». والواقع أن وهب المال والوقت والطاقة لم يكن كافيًا بالنسبة إلى كرافينسكي. فهو عندما علم أن آلاف الناس المصابين بالفشل الكلوي يموتون سنويًا في أثناء انتظارهم لعملية زرع كُلى، أبرم عقدًا مع مستشفى بالمنطقة الشعبية القديمة بفلادلفيا، يخدم غالبًا الأمريكيين الأفارقة من ذوي الدخل المتدني، وتبرّع بإحدى كُليتيه لأحد الغرباء عنه(1).

(1) Quotes from Kravinsky come from Jan Parker, «*The Gift,*» *The New York,* August 2, 2004, from my own conversations with Kravinski, and from his remarks to my class.

اعترف كرافينسكي بأن زوجته إميلي Emily قد اعترضت على تبرعه بكُليته على أساس أن واحدًا من أطفاله قد يحتاج إليها يومًا ما. فقد قالت له: «لا يهم مدى ضآلة المخاطرة بالنسبة إلى أسرتك. نحن أسرتك، ومتلقي التبرُّع ليس واحدًا منا». إن هذا يبدو أشبه برد فعل معقول بشكل تام. معظمنا نجعل التزاماتنا إزاء أسرتنا -وخاصةً إزاء أطفالنا- تفوق كل شيء آخر. إن وضع العائلة في المقام الأول يبدو أمرًا طبيعيًا، وهو في معظم الحالات يبدو صائبًا. ومع ذلك، فإن كرافينسكي يرى الأمر بطريقة مختلفة. فوجهة نظره هي «أن الالتزام المقدس إزاء الأسرة هو عقلنة كل ضروب الجشع والأنانية. فلا أحد يقول «إنني أعمل لحساب شركة التبغ لأنني أحب المال». فهو سيقول «حسنًا، إنني -كما تعلم- أكره أن أفعل ذلك، ولكني لم أدخر شيئًا من أجل الأطفال». وكل شيء يتم تبريره على ذلك النحو».

كان طلبتي يشعرون بالتململ من نزعة كرافينسكي اللاأنوية، وخاصةً عندما بلغت حد التبرُّع بكُليته. وقد أخبرهم أن احتمالات الموت من جراء هذا التبرُّع تَبلغ تقريبًا نسبة واحد من بين كل أربعة آلاف حالة، وأن احتفاظك بِكُليتك بمنعها عن شخص ما سيموت إن لم تمنحها له، هو أمر يعني أنّك تُقدر قيمةَ حياتك الخاصة بأكثر من أربعة آلاف ضعف قيمة حياة الغريب، وهو معدل يصفه بأنه «فاحش».

بعد الإنصات إلى كرافينسكي، اهتدى قليل من الطلبة بطريقة نموذجية إلى التفكير بشكل جاد في الكيفية التي يمكن بها أن يغيروا حياتهم الخاصة، وأن يفكروا حتى في التبرُّع بكُليَة؛ مع أنه بِقدر ما أعلم لا أحد منهم قد فعل هذا. وقد اتخذ بعض الطلبة موقفًا اعتراضيًا، مُشكِّكين في حقائق كرافينسكي، ورأوا أن احتمالات حدوث شيء ما خاطئ فيما يتعلق بالتبرُّع بالكُلية أو ما يترتب عليه، هي احتمالات أعلى من نسبة واحد من بين كل أربعة آلاف حالة (وبرغم أن الرقم الذي قاله كرافينسكي يذكر بدقة النسبة الضئيلة جدًّا لخطر الموت من جراء التبرُّع بكلية، فإن بعض الدراسات وجدت خطرًا أعلى بكثير لبعض المضاعفات غير المميتة لدى المتبرعين بالكُلية. كما أن نجاح العملية ليس مضمونًا بالنسبة لمن يتلقّى التبرُّع؛ إذ إنَّ نسبة 5% ممن يتلقون كُليَةً مِن مُتبرّع حي، يموتون خلال سنة من إجراء العملية. وهذا أيضًا يُحدِث فرقًا -برغم أنه يكون فرقًا ثانويًا فحسب- مقارنةً بنسبة الواحد من بين كل أربعة آلاف كمعدل للخطر بالقياس إلى

المنفعة)[1]. ولكنَّ طلبة آخرين بدأوا في مساءلة أنفسهم، قائلين: «ربما كنت -بمعنى ما- أُقدِّر قيمة حياتي الخاصة بأكثر من أربعة آلاف مرة من تقديري لقيمة حياة الغرباء».

بول فارمر Paul Farmer -المشارك في تأسيس منظمة «الشركاء في الصحة» Partners in Health، والتي تزكيها بقوة منظمة «العطاء الحسن» في مجال الرعاية الصحية للفقراء الريفيين- يشعر أيضًا بهذا التضارب بين حُبِّه لعائلته واهتمامه بالغرباء عنه. لقد أمضى فارمر سنة في هايتي بعد التخرج من الكلية؛ لأنه إلى حدّ ما أدرك أن وضعه المالي سوف يقطع شوطًا من النمو هناك. وبينما كان يعمل متطوعًا في مستشفى بهايتي، أصبح مرتبطًا بصلة مودة بطبيب أمريكي شاب قد عمل في هايتي لمدة سنة، ولكن كان عليه أن يعود إلى الولايات المتحدة. وقد سأله فارمر إذا كان يصعب عليه أن يغادر هايتي. فأجاب الطبيب: «هل تمزح؟ إنني لا أستطيع الانتظار. لا تُوجَد كهرباء هنا. إنها عيشة قاسية». فسأله فارمر: «ولكن، ألستَ منزعجًا من عدم قدرتك على نسيان كل هذا؟ يُوجَد الكثير من المرض هنا». أجاب الطبيب بأنه أمريكي وأنه عائد إلى الوطن. يقول فارمر إنه فكّر في تلك الإجابة طيلة اليوم: «ما الذي يعنيه ذلك القول بأنني أمريكي؟» وقد تعجب من السبب في أن كونك أمريكيًا كان يعني أنك استطعت نسيان الناس الذين يموتون بسبب نقص الرعاية الطبية في هايتي. وقد أدرك عندئذ أنه هو نفسه سيصبح طبيبًا[2].

بدأ فارمر الدراسة للحصول على شهادة جامعية طبية في جامعة هارفارد سنة 1984، ولكنه كان يعود إلى هايتي بشكل منتظم لإجراء بحث عن المشكلات الصحية العامة في بلدة كانج Cange، وهي بلدة في السهل المركزي كانت فقيرة حتى بالمقياس الهايتي. وفي أثناء تلك الفترة التقى توم وايت Tom White، المستثمر العقاري في بوسطن الذي أصبح الآن عضوًا في «رابطة الـ 50%». قام فارمر باستقدام وايت إلى هايتي ليرى الأحوال

(1) Contrast S. A. Azar et al., «Is Living Kidney Donation Really Safe?», *Transplantation Proceedings*, 39 (2007), pp. 822-23, with I. Fehrman-Ekholm et al., «Kidney Donors Live Longer,» *Transplantation* 64 (1997), pp. 976-78, and E. M. Johnson et al., «Complications and Risks of Living Donor Nephrectomy,» *Transplantation* 64 (1997), pp. 1124-28. For survival rates, see MayoClinc.com, «When Your Kidneys Fail,» www.mayoclinic.com/health/kidney-transplant/DA00094.

(2) بخصوص المعلومات الواردة عن فارمر، فإني مدين بها إلى السيرة الجميلة لتراسي كيدر Tracy Kidder بعنوان «جبال وراء جبال»: *Mountains Beyond Mountains* (New York: Random House, 2003)، ولمقال تراسي كيدر: «*The Good Doctor*», *The New Yorker*, July 10, 2000.

بنفسه، وسرعان ما ساعده وايت على البدء في تأسيس منظمة «الشركاء في الصحة» وأصبح -في سنوات تكوينها- هو السند المالي الأساسي لها. وفي سنة 1993 منحت «مؤسسة ماك آرثر» MacArthur Foundation إحدى «منَح العبقرية» بمبلغ 220,000 دولار، خالصةً له في الأساس بحيث يتصرف فيها كما يشاء. ولكنه تبرّع بالمبلغ كله لمنظمة «الشركاء في الصحة». وبعد أن أكمل تدريبه الطبي، شغل وظيفة في جامعة هارفارد (في قسم الأنثروبولوجيا الطبية)، وفي جامعة بريجهام Brigham و«مستشفى النساء» في بوسطن (في مجال الأمراض المُعدية)، متبرعًا بمرتبه، وبحقوق مؤلفاته، وأتعاب محاضراته، لمصلحة منظمة «الشركاء في الصحة» التي تدفع فواتيره وتضيف بقية الراتب إلى رصيدها المالي. وطيلة الفترة التي كان فيها أعزب، حينما كان في بوسطن كان ينام في الدور التحتي للمركز الرئيس لمنظمة «الشركاء في الصحة»؛ أما منزله في كانج فكان بسيطًا جِدًّا حتى إنّه كان يخلو من المياه الساخنة.

وفي هايتي كان فارمر يسير أحيانًا على قدميه لساعات طويلة لكي يزور مرضى يعيشون بمنأى عن أي طريق. إنه يصر على فعل ذلك؛ لأن القول بأن زيارة هؤلاء المرضى تستغرق وقتًا وجهدًا كثيرًا يعني -في نظره- القول بأنّ حياتهم أقل أهمية من حياة الآخرين. وبسفره جوًّا من أكواخ الفلاحين وأطفالهم الذين يعانون من سوء التغذية بهايتي متجهًا إلى ميامي التي تبعد عنها مسافة 700 ميل فقط، حيث يرفل الناس في ثياب أنيقة ويتحدثون عن جهودهم من أجل إنقاص الوزن؛ أصبح فارمر غاضبًا من حالة التضاد بين البلدان النامية والعالم المتقدم. ما أثار استياءه بقوة هو نفس ما أثار استياءه طيلة تلك السنوات الماضية من موقف الطبيب الأمريكي الذي كان على وشك مغادرة هايتي: «كيف يمكن للناس ألا يهتموا بغيرهم، ويمحوهم من تفكيرهم، ولا يتذكروهم».

تزوج فارمر من ديدي برتراند Didi Bertrand ابنة مدير المدرسة في كانج، وعندما كان في الثامنة والثلاثين من عمره رُزِقا بابنتهما كاثرين Catherine. وفي أحد المواقع، بعد الفشل في إنقاذ مولود لامرأة في عيادته كانت لديها مضاعفات في أثناء ولادتها، بدأ فارمر في البكاء. كان عليه أن يعتذر ويذهب إلى خارج المكان. وعندما سأل نفسه عما كان يجري، أدرك أنه كان يبكي لأنه تخيل ابنته كاثرين في موضع الرضيع الميت. وراح يتساءل: «إذًا، فأنت تحب طفلتك أكثر من هؤلاء الأطفال؟». هذا الأمر أزعجه كثيرًا،

لأنَّه قد اعتقد أنه كان لديه تعاطف تام مع الأطفال الذين كان يعالجهم، وقد رأى أن عدم قدرته على أن يحب الأطفال الآخرين بقدر ما أحب طفلته يُعتبَر «إخفاقًا في التعاطف». تراسي كيدر -كاتب سيرة فارمر- اعترض على تلك الفكرة بأن سأله عن الكيفية التي كان سيستجيب بها للناس الذين يقولون: «أنَّى يمكنك أن تتخلص من التفكير بأنك مختلف عن كل شخص وأنك بمقدورك أن تحب أطفال الآخرين بقدر ما تحب أطفالك؟». أجاب فارم: «لاحِظ أن كل سُنن الأديان الكبرى في العالم تقول «حب جارك كما تحب نفسك». ولكن إجابتي هي: عفوًا، إنني لا أستطيع ذلك، ولكني سأظل أحاول ذلك». وكجزء من هذه المحاولة، فإن فارمر -الذي يسافر كثيرًا وغالبًا ما يكون بعيدًا عن أسرته- يحمل معه صورة لكاثرين، وصورة لأحد مرضاه: طفل من هايتي في نفس عمر ابنته، يعاني من سوء التغذية.

كان كيدر بصحبة فارمر في إحدى المناسبات التي زار فيها زوجته وطفلته اللتين كانتا تعيشان آنذاك في باريس. كانت زوجته ديدي تدرس -في محفوظات المُلاك الفرنسيين للعبيد- محاكمات التعذيب القاسية التي كان يقوم بها أسلافها. وهو يروي عن لحظة كانت مؤثرة: فبعد وصول فارمر من السفر بفترة قصيرة، وبينما كان يلعب مع كاثرين، عرفت ديدي أنه على سفر إلى موسكو، حيث إن منظمة «الشركاء في الصحة» كانت منشغلة ببرنامج في مكافحة الدرن الرئوي؛ فسألته متى سيسافر. ردَّ قائلًا: «صباح الغد». وكان رد فعل ديدي هو الإحباط الواضح، معبرة عن ذلك بصيحة تعجب مخنوقة؛ أما فارمر فقد غطى فمه بكلتا يديه. وفي ذلك يكتب كيدر: «لقد كانت هذه اللحظة هي المرة الأولى التي أرى فيها فارمر في حيرة عاجزًا عن الكلام أو الفعل». فلو أن فارمر لا يمضي كثيرًا من الوقت بقدر ما يحب مع أسرته؛ فإن ذلك يرجع إلى كونه منقادًا بالفكرة التي تقول: «إنني إذا لم أعمل بذلك النوع من الكد؛ فسوف يموت شخص ما لم يكن ينبغي أن يموت». إنه تحديدًا لا يمكن أن يقبل كون أن الناس يموتون بسبب الأمراض التي تُوجَد علاجات لها. فتلك خطيئة بالنسبة إليه. وهو يقول: «لا يمكن أبدًا أن يعمل من أجل الفقراء في ساعات العمل الإضافية». «إننا فقط نتدافع لكي نعوض وجوه قصورنا».

وعلى غرار فارمر، يصر كرافينسكي على أنه يحب أطفاله مثلما يحب أيُّ أب أطفالَه، وأنا على قناعة أنه يحبّهم. ولقد حماهم من التزامه الخاص بالآخرين بأن رصد لهم وديعة ائتمانية. ولكن حبه الأبوي لا يبرر -من وجهة

نظره- إضفاءه لقيمة على حياتهم أكبر بآلاف المرات من القيمة التي يضفيها على حياة أطفال الغرباء عنه. وعندما أَلَحَّ عليه آيان باركر Ian Parker -الذي كان يكتب عنه لصحيفة *The New Yorker*- بأن يحسب نسبة حبه لأطفاله، ونسبة حبه لأطفال مجهولين؛ أجابه كرافينسكي قائلًا: «إنني لا أعرف أين أود أن أحدد ذلك، ولكني أود ألا أدع كثيرًا من الأطفال يموتون كي يمكن لأطفالي أن يعيشوا»، ثم أضاف قائلًا: «إنني لا أعتقد أنه ينبغي أن يموت طفلان لكي يعيش في رغد واحد من أطفالي، وأنا لا أفهم أن طفلين ينبغي أن يموتا لكي يعيش واحد من أطفالي»[1].

وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور باركر أن يسأل السيدة بريجز المتخيلة روائيًا عن رأيها في موقف كرافينسكي، ولكن يبدو أنه قد وجد الشيء الأفضل بعدئذ لدى الفيلسوفة جوديث تومسون Judith Jarvis Thomson بمعهد MIT التي علّقت على موقفه قائلة: «إن الأب الذي يقول «أنا» لست أكثر انشغالًا بحياة أطفالي من انشغالي بحياة أي شخص آخر، هو مجرّد أب مخطئ مختلّ؛ وهو مختلّ نظرًا إلى أن الوالدين ينبغي لهما أن يكونا كذلك، سواء كان هذا يزيد أو لا يزيد إلى أقصى حدّ من قدر النفعية». والواقع أن كرافينسكي لم يقل إنّه ليس أكثر انشغالًا بحياة أطفاله من انشغاله بحياة أي شخص آخر؛ ولكنه كان أميل إلى ذلك أكثر من معظم الناس. فهل ذلك يجعله والدًا مختلًا؟ الأطفال يحتاجون بالفعل الآباء المحبين. فهم يحتاجون إلى أن يشعروا أن آباءهم يحمونهم ويتعلقون بهم. وربما ينزعج الأطفال حقًا عندما يكتشفون أنّ أباهم سوف يُجيز موتهم من أجل إنقاذ أطفال الغرباء. ومع ذلك، فإن الأدبيات مليئة بالمواقف التي يجب فيها على الأبوين أن يختارا بين طفلهما وبين إلزام أخلاقي أكثر اتساعًا. ونحن عندما نتأمل هذه المواقف لا نفترض دائمًا أن الأبوين ينبغي أن يضعا أطفالهما في المقام الأول. وإذا فعلنا ذلك؛ فسيكون من الصعب علينا أن نفهم كيف أمكن تبجيل إبراهيم، على نحو ما نجد ذلك في اليهودية والمسيحية والإسلام؛ نظرًا لتلبيته لأمر الرب بالتضحية بإسحاق[2]، الذي هو ابنه الوحيد[3]. كذلك فإنّ قدماء اليونان قد رأوا أن الأب ربما يكون عليه التضحية بطفل من أجل خير أكبر. ففي مسرحية يوريبديس Euripides **«إفيجينيا في ميناء أوليس»** *Iphigenia at Aulis*، نجد الأسطول البحري

(1) Ian Parker, «The Gift,» *The New Yorker*, August 2, 2004.

(2) إسحاق في التوراة هو الابن الوحيد لإبراهيم، حيث تقول :"خذ ابنك الوحيد إسحاق..". ولكن هذه الرواية تجافي الرواية الإسلامية التي ترى أن الابن الذي قدم نفسه لأبيه قربانًا هو إسماعيل ولد إبراهيم من هاجر. [المترجم]

(3) Genesis 22.

اليوناني مُستعدًّا للإبحار إلى طروادة، ولكن الإلهة آرتميس Artemis لن تدعم إبحارهم برياح قوية، ما لم يُضحِّ القائد اليوناني أجاممنون بابنته إيفيجينيا. يعلن أجاممنون أنه يحب أطفاله: «المجنون وحده هو الذي لا يحب أطفاله». ومع ذلك، فإنه يقول لابنته: «إنها اليونان التي تفرض عليَّ أن أضحي بك، أيًّا كانت رغبتي». إذا كنا أقلّ تعاطفًا مع أجاممنون من تعاطفنا مع إبراهيم؛ ربما لأنه في يومنا هذا لا يزال اليهود والمسيحيون والمسلمون يعبدون إلة إبراهيم، ولكن مَن يؤمن الآن بآلهة اليونان القدماء؟

إنَّ الحدود القصوى لما يمكن أن تفعله الأم من أجل إنقاذ حياة طفلها تظهر من خلال خلفية مشاهد رواية جوزيف كانون Josef Kanon بعنوان «**الألماني الطيب**» *The Good German*. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، كانت ريناته ناومان Renate Naumann -وهي امرأة يهودية ألمانية- تُحَاكَم بسبب التعاون مع النازيين من خلال القيام بالدور الخسيس **للشخص المتصيّد للآخرين** *greifer*، وهو شخص يقوم بتعريف النازيين باليهود الذين يعيشون على أنهم غير يهود. إننا نعلم أنها لو رفضت التعاون معهم أو فشلت في الوفاء بحصّتها من الأشخاص الذين ينبغي الإبلاغ عنهم؛ لكانت حياتها الشخصية وحياة أمّها العجوز في خطر، ولكننا لا نعتقد أن ذلك يُعدُّ عذرًا لها. وبعدئذ نجد منعطفًا حادًّا فجائيًّا. نكتشف أن ريناته كان لها ابن أخفته بمنأى عن النازيين، ولم يكن يستطيع العيش من دونها. هل هذا يجعل تعاونها مع النازيين مقبولًا؟ هل كانت ستُعتبَر والدة مختلة إذا لم تضع حياة ابنها في مرتبة أعلى من حياة الغرباء عنها؟

إننا نميل إلى الاعتقاد أنَّ الناس يُلامون على أفعالهم أكثر مما يلامون على سهواتهم. وربما يفسر لنا ذلك السبب في أننا نكون على استعداد لأن نُدِين طريقة ريناته في إنقاذها لطفلها أكثر إلى حد كبير من استعدادنا لأن نُدِين المرأة -التي تتخذ موقف إيستر جرينوود- عندما تختار إنقاذ طفلها على حساب إغفالها لتحذير مئات آخرين. ومع ذلك، فإننا إذا كُنّا نُدِين ريناته ناومان، فإننا نضع حدودًا قصوى لما يمكن أن تفعله أنت لكي تُنقذ حياة طفلك. عندئذ، فإننا ينبغي أن نسأل عما إذا كانت هذه الحدود لا يمكن بلوغها أيضًا باختيار الفعل الذي ينقذ حياة طفلك ولكنه يبيح موت أطفال أناس آخرين.

وكما يتراءى لي، فلا إيستر جرينوود ولا زِل كرافينسكي ولا بول فارمر، يُعتبَرون آباءً مختلّين. فهم يحبون أطفالهم ويريدون حمايتهم. ومشكلتهم

هي أنهم أيضًا يكونون مشدودين بحاجات الآخرين على نحو لا يكون لدى معظم الناس. فهم -مثل إبراهيم وأجاممنون- يكونون مكروبين من الاختيار الذي يقوم به الآخرون على أساس من مشاعرهم فحسب؛ بحيث لا يتعاطف أيٌّ منهم مع حاجات الآخرين ولا يحاول أن يتخذ منظورًا أقل انحيازًا. ومؤخرًا عاد كرافينسكي إلى الانشغال بالمقاولات العقارية، استجابة لقلق زوجته، ولأنه لم يُرِد أن يغترب عن أطفاله؛ جمع أموالًا واشترى لعائلته منزلًا أكبر. وعندما حلت به أزمة مالية، فإنه ظل في النهاية «أبًا طبيعيًا» اختار أن يُبقي على الأسرة معًا. وربما نقول إنه حتى لم يستطع أن يقاوم قوة معيار المصلحة الذاتية، رغم أنَّ قوة المعيار المهيمنة على أسرته، مرتبطةٌ بحبّه الخاصّ الذي يُكِنُّه لهم، وهو ما أرغمه على أن يتراجع عن إضفاء قيمة متساوية على كل الحيوات.

على الرغم من أن فارمر يتمسك بمعيار أخلاقي يصعب تمامًا الوفاء به، فإنه يتخذ موقفًا واقعيًا إزاء ما يتوقعه من الآخرين. لقد سمعته يتحدث إلى الطلبة، مجتذبًا جمهورًا غفيرًا، كثير منهم معجبون متحمسون، ولكنّه لا يدعوهم إلى أن يفعلوا مثلما فعل. إنه لا يقوم بعطلات، ولكنّه يشجع الآخرين الذين يعملون في منظمة «الشركاء في الصحة» على القيام بعطلات. وهو لم يودّ إنفاق المال على الرفاهيات، ولكنه لا يعبر عن رفضه لأن يفعل الآخرون ذلك، طالما يمنحون أيضًا شيئًا ما للفقراء. وربما يرجع ذلك إلى أنه من المهم -كما أخبره بذلك جيم كيم Jim Kim المؤسس المشارك لمنظمة «المشاركون في الصحة»- «التأكد من أن الناس يكونون مُلهَمين به. ولكننا لا يمكن أن نقول إن أي شخص كان ينبغي عليه أو أمكنه أن يحبه فحسب. لأنه إذا كان على الفقراء أن ينتظروا كثيرًا من الناس من أمثال بول، أن يأتي أولًا قبل أن يحصلوا على رعاية صحية جيدة، فإنهم سيكونون مغفّلين تمامًا». إن ما يوحي به هذا هو أننا قد نحتاج إلى أن نُهوِّن من المبالغة في معاييرنا كي نجذب مزيدًا من الناس الذين يستطيعون الوفاء بها.

لقد شعر تشاك كولينز Chuck Collins -المؤسس المشارك في منظمة «الثروة المسؤولة»، وعضو «رابطة الـ 50%»، وحفيد أوسكار ماير Oscar Mayer- بأنَّ ضغط التزامات أسرته يدفعه ضد رغبته في أن يفعل أقصى ما يُمكن أن يفعله بثروته، رغم أنه قد تخلّى عن معظم أمواله حتى قبل أن يكون لديه أطفال. وقد يقول الناس: «حسنًا! إنك يمكن أن تكون متهورًا

في حياتك الخاصة، ولكنك لا ينبغي أن تكون كذلك بالنسبة إلى أطفالك». كانت إجابة كولينز هي أن الآباء يتخذون على الدوام قرارات بشأن أطفالهم، وأن اتخاذ قرار بألّا يرثوا ثروة، هو واحد من تلك القرارات. إنه يؤمن بقوة بأن الثروة الموروثة ليست شيئًا جيدًا بالنسبة إلى الأطفال، وذلك إحدى الحجج التي تستخدمها منظمة «الثروة المسؤولة» للإبقاء على الضريبة العقارية. ولكن كولينز لا يذهب إلى حد التطرف، فهو يقول: «بطبيعة الحال، يجب علينا أن نستجيب لاحتياجات أسرتنا المباشرة، ولكن بمجرد أن نصبح على خير ما يرام، فإنه يلزم أن نوسع من دائرة استجابتنا. إن المعنى الأوسع للعائلة هو فكرة محفزة على التغيير الجذري؛ ولكننا كمجتمع ندخل في مشكلات عندما لا نرى أننا في القارب نفسه»[1].

يبدو هذا موقفًا معقولًا، وليس متنافيًا بشكل عنيف مع الطبيعة الإنسانية؛ ولكن كلمة «على خير ما يرام» هي بطبيعة الحال كلمة غامضة. طلبتي غالبًا ما يسألونني إذا ما كنت أرى أن آباءهم قد أخطأوا بدفع مبلغ 44,000 دولار في السنة كتكلفة لإلحاقهم بجامعة برنستون Princeton. وكان ردي أن دفع ذلك المبلغ الكبير من أجل مكان في جامعة متميزة ليس مبررًا، ما لم يُنظَر إليه باعتباره استثمارًا في المستقبل الذي لن يفيد فحسب طفلَ شخصٍ ما، وإنما أيضًا أطفال الآخرين. إن التعليم المتميز يمد الطلبة بمهارات، وبمؤهلات، وبإدراك لأهمية فعل المزيد من أجل هذا العالم بشكل أفضل مما سيكون عليه الحال لو لم يكن هناك مثل هذا الإدراك. فمن الجيد بالنسبة إلى العالم ككل أن يكون هناك المزيد من الناس المزوَّدين بتلك الخصائص. وحتى إذا كان الالتحاق بجامعة برنستون لا يفعل شيئًا سوى إتاحة الفرص في الحصول على وظائف بمرتبات أعلى؛ فإن هذا أيضًا يُعد فائدة يمكن أن تمتد إلى الآخرين، ما دُمتَ بعد التخرج ستبقى قويَّ العزيمة في التبرُّع بنسبة من ذلك المرتب للمنظمات التي تعمل من أجل الفقراء، وستنتشر هذه الفكرة بين زملائك الذين يحصلون على مرتَّبات عالية. وبطبيعة الحال، فإن الخطر يكمن في أنَّ زملاءك ربما يقنعونك بدلًا من ذلك بأنك ينبغي ألّا تركب سيارة بأقل سعرًا من طراز BMW، وأنك بالتأكيد يجب أن تعيش في شقة واسعة تثير الإعجاب في إحدى المناطق الأغلى سعرًا في المدينة.

عند المناقشة مع كيدر حول عدم قدرته على حب الأطفال الآخرين

(1) Ian Parker, «The Gift,» *The New Yorker*, August 2, 2004.

بقدر حبه لابنته، فإن فارمر يُعلّق على ذلك بقوله: «مناط الأمر هنا هو أن كل شخص يدرك ذلك، ويشجع على ذلك، ويمتدحك لذلك. ولكن الأمر الأكثر صعوبة هو الآخر». وهو على حق بطبيعة الحال. ذلك أنَّ حُبَّ أطفال الغرباء عليك هو أمر أكثر صعوبة للغاية من حُبِّكَ لأطفالك. ومع ذلك، فإننا كمجتمع نشجع الآباء على حب أطفالهم ورعايتهم؛ لأن هذا هو الأسلوب الذي يجعلهم ينشأون في سعادة، وأن يكونوا أطفالًا أصحاء من الناحية النفسية. وليس هناك أسلوب أفضل لفعل ذلك. إن بعض المجتمعات اليوتوبية كانت تطمح إلى أن تستبدل بالرابطة الأسرية التزامًا قيميًا إزاء المجتمع كله، ولكن حتى أكثر هذه المساعي استنارة -مثل «الكيبوتزيم» Kibbutzim في إسرائيل- وجدت أن الرابطة بين الآباء والأطفال هي من القوة بحيث لا يمكن إخمادها. فالآباء سوف ينسلون خفية إلى منزل الأطفال كي يحتضنوا أطفالهم، وبعض الدراسات قد رأت أنَّ الأطفال الذين يتم تربيتهم بطريقة شيوعية كان من الصعب عليهم أن يقيموا ارتباطات عاطفية عميقة[1]. وتدريجيًا استعادت «الكيبوتزيم» نظام نواة الأسرة، معترفةً بأنَّ مُحاولةَ فصل الأطفال عن آبائهم، وتربيتهم بشكل جماعي كانت فاشلة. ولهذا السبب، فإنَّ التضارب الذي يستشعره بشكل حاد فارمر وكرافينسكي بين أن تكون أبًا مثاليًا وبين أن تتصرف على أساس من الفكرة القائلة بأن كل حياة إنسانية لها قيمة متساوية، هو تضارب حقيقي وغير قابل للحل. فهذان الموقفان سيبقيان دائمًا في حالة توتر. ليس هناك مبدأ في الالتزام الأخلاقي يمكن قبوله على نطاق واسع ما لم يُسلِّم بأنَّ الآباء سوف يحبون وينبغي أن يحبوا أطفالهم أكثر من أطفال الغرباء عليهم؛ ولهذا السبب فإنهم سوف يستوفون الاحتياجات الأساسية لأطفالهم قبل أن يستوفوا احتياجات الغرباء عنهم. ولكن هذا لا يعني أن الآباء يكون لديهم مبرر في توفير الرفاهيات لأطفالهم قبل توفير الاحتياجات الأساسية للآخرين.

---

(1) Bruno Bettelheim, *Children of rhe Dream* (London: Macmillan, 1969); Melford Spiro, *Children of the Kibbutz* (New York: Schocken, 1975): N. A. Fox, «Attachment of Kibbutz Infants to Mother and Metapelet,»*Child Develoment* 48 (1977), pp. 1228-39.

9 - هل نحن نطلب أكثر من اللازم؟

لقد برهنتُ في الجزء الأول من هذا الكتاب على أننا لكي نكون أناسًا طيبين، فإننا يجب أن نتبرّع بالمال حتى نصل إلى الحالة التي إذا تبرعنا فيها بالمزيد؛ فإننا بذلك سوف نضحّي بشيء ما يكون مهمًا تقريبًا بقدر أهمية منع أشياء سيئة يُمكننا منعها. وكوننا الآن لدينا فكرة أفضل عما يُمكن أن يفعله تبرعنا، فقد حان الوقت لأن نرجع ونسبر بعمق أكبر معنى أنه يجب أن يكون هناك شيء ما خاطئًا في هذا البرهان الأخلاقي؛ لأن إلزاماته الضمنية تذهب بعيدًا للغاية. كلنا تقريبًا ننفق المال على أشياء لا نحتاج إليها؛ فهل نحن لكي نكون أخلاقيين ينبغي لنا بالفعل أن نتخلى عن هذه الأشياء؟ إن استطلاع وجهات النظر المختلفة عن الإلزامات الأخلاقية التي تَقصر عن الوفاء بمثل هذه النتائج المطلوبة، سوف يساعدنا في أن نحسم هذا الأمر.

مشاركة عادلة

لقد رأينا سابقًا أن شعورنا بالعدالة يمدّنا بدافعية قوية تجاه فعل ما هو أكثر من مشاركتنا العادلة. ولكن هل التبرُّع الذي يُورّطنا في ما هو أكثر من مشاركتنا العادلة -مثلما يوحي بذلك البرهان الوارد سابقًا- يمدّنا أيضًا بمبرر أخلاقي لعدم تخطّي حدود ما يمكن أن تكون عليه مشاركتنا العادلة؟ الفيلسوفان ليام مورفي Liam Murphy وكوام آنتوني آبيا Kwame Anthony Appiah يجيبان عن هذا السؤال بالإيجاب[1]. إنهما يوافقان على أن الأثرياء في العالم ملزمون بأن يوفّروا إعانة كافية لاستبعاد نطاق واسع من الفقر المُدقِع. ولكن هذا -في رأيهما- يكون إلزامًا علينا كمجموعة. وكل عضو من المجموعة يكون مسؤولًا عن مشاركته أو مشاركتها العادلة، ولا أكثر من ذلك. وعلى حد تعبير آبيا في كتابه عن **«الكوزموبولتانية»** *Cosmopolitanism*: «إذا لم يقم الكثير جدًا من الناس في العالم بالمشاركة

(1) Liam Murphy, *Moral Demands in Nonideal Theory* (New York: Oxford University Press, 200), p. 76. Murphy notes that a similar view has been outlined by Derek Parfit, *Reasons and Persons* (Oxford, UK: Clarendon Press, 1984), pp. 30-31 (also Parfit does not support it), and also by L. J. Kohen, «WhoIs Starving Whom?»*Theoria* 47 (1981), pp. 65-81 and several others. For details, see Murphy, *Moral Demands*, p. 136, n. 8. See also Kwame Anthony Appiah, *Cosmopolitanism* (New York: Norton, 2006), pp. 164-65.

-ومن الواضح أنهم لا يشاركون- فإنه يبدو لي أنّه لا يمكن أن يكون مطلوبًا أن أخرج عن مسار حياتي لكي أشد الحبل المرتخي»[1].

ولكي نرى ما الذي سوف تتضمنه تلك الرؤية، دعنا نفترض حاليًا أن مورفي وآبيا على صواب. فماذا ستكون مشاركتك العادلة؟ فإذا عرفنا مبلغ الإعانة المطلوبة لضمان أن يكون الفقراء فقرًا مُدقِعًا في العالم لديهم فرصة في أن يعيشوا حياة لائقة، وقسمنا رقم هذا المبلغ على عدد الناس الأثرياء الذين يكونون في وضع يتيح لهم المساهمة بشيء ما؛ فإن هذا سوف يدلّك على المبلغ الذي يلزم أن تتبرع به لكي تسهم بمشاركتك العادلة في الوفاء بالتزامنا تجاه الفقراء.

إحدى الطرق الأولية لحساب هذا الرقم هي إحصاء مقدار انخفاض دخل فقراء العالم تحت مستوى خط الفقر، ثم إحصاء المبلغ الذي يكون مطلوبًا لنقل كل الفقراء فوق هذا الخط، إلى المستوى الذي يكون لديهم فيه دخل كاف للوفاء باحتياجاتهم الأساسية. لقد فعل ذلك جيفري زاكس، وانتهى إلى أنه في سنة 2001 سيكون المبلغ المطلوب هو 124 بليون دولار في السنة لأجل رفع كل شخص فوق مستوى خط الفقر. الدخل السنوي الهائل مجتمعًا للدول الغنية الاثنتين وعشرين في «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» في تلك السنة كان 20 تريليون دولار. ولذلك فإن المساهمة المطلوبة لتعويض هذا النقص هي 0.62 في المائة من الدخل، أو 62 سنتًا عن كل 100 دولار يكسبها كل شخص. فالشخص الذي يكون دخله 50,000 دولار في السنة سيكون مدينًا فقط بدفع ما يزيد على 300 دولار. ومن الصعب أن تكون نسبة هذا المبلغ تعجيزية. ومقارنةً بذلك، فإن الأمريكيين في سنة 1999 أنفقوا 116 بليون دولار على الكحول[2]. التبرُّع بنصف هذا المبلغ للفقراء سوف يغطي نسبة مشاركة كل الأمريكيين في ما يلزم فعله، وسوف يتيح لأولئك الذين يستمتعون بمشروب أن ينالوا منه كأسًا أو كأسين[3].

ومع ذلك، فإن هذه الحسبة أوّلية للغاية: فلا زاكس ولا أي شخص

(1) Kwame Anthony Appiah, *Cosmopolitanism*, (New York: Norton, 2006), pp. 164-65.

(2) Susan Foster et al., «Alcohol Consumption and Expenditures for Underage Drinking and Adult Excessive Drinking,» *Journals of the American Medical Association* 289 (2003), pp. 989-95.

(3) Jeffrey Sachs, *The End of Poverty* (New York: Penguin Press, 2005), chapter 15. Both the $124 billion and the $20 trillion are expressed in 1993 U.S. dollars, purchasing power adjusted. In 2008 dollars, the figures would be roughly 50 percent higher.

آخر يمكنه أن يقترح فعليًا أن نقوم بحل مشكلة الفقر العالمي بتسليم الفقراء مالًا كافيًا يفي باحتياجاتهم الأساسية. فليس من المرجح أن يؤدي هذا إلى حل المشكلات العديدة التي يواجهها الفقراء.

لكي نحصل على فكرة عن نوع المُجمَل المطلوب لتقليل الفقر بطريقة أكثر استدامة، فإننا يُمكن أن نتّخذ كمستهدف لنا -على الأقل حتى سنة 2015- «أهداف التنمية في الألفية الجديدة» التي وافق عليها كل قادة دول العالم الأعضاء في قمة الأمم المتحدة «للتنمية في الألفية الجديدة» المنعقدة في نيويورك سنة 2000. هذه الأهداف قد اختِيرت لأنَّها أهداف مثيرة للتحدي ولكنَّ بلوغها يكون قابلًا للتنفيذ في سنة 2015، وهي تشمل:

- التقليل إلى مدى النصف لنسبة الفقراء فقرًا مُدقِعًا في العالم.
- التقليل إلى مدى النصف لنسبة الناس الذين يعانون من الجوع.
- ضمان أن يكون الأطفال في كل مكان قادرين على نيل مسار كامل من التعليم المدرسي الأوَّلي.
- إنهاء التمييز بين الجنسين في التعليم.
- التقليل بنسبة الثلثين للوفيات بين الأطفال تحت سن الخامسة.
- التقليل بنسبة الثلاثة أرباع لمعدل الوفيات بين الأمهات.
- إيقاف، وبدء تراجع، انتشار فيروس نقص المناعة المكتسب HIV/ AIDS؛ وإيقاف وبدء تراجع الإصابات بالملاريا والأمراض الكبرى الأخرى.
- التقليل بنسبة النصف لعدد الناس الذين لا سبيل لهم في الحصول على مصدر مُستدَام لمياه الشُّربِ الآمنة.

مهمة حملات الأمم المتحدة -التي ترأَّسها زاكس مجددًا- قامت بتقدير مبلغ التكلفة اللازم للوفاء بهذه الأهداف. مهمة الحملات -التي تعتمد على تقديرات أولية في بنجلاديش وكامبوديا وغانا وتنزانيا وأوغندا- ترتئي أنَّ أهداف التنمية يمكن تحقيقها نظير تكلفة سنوية لكل شخص بمبلغ يتراوح بين 70 دولارًا و80 دولارًا في سنة 2006، يزداد باتساع مجال المشروعات تدريجيًا، ليصل إلى مبلغ يتراوح بين 120 دولارًا و160 دولارًا في سنة 2015. وعلى هذا الأساس، فإن مهمة الحملات قد وصلت إلى

تقدير عالمي -تحذر مهمة الحملات من كونه مؤقتًا وإن كانت تؤمن بأنه يظل في «نطاق الدرجة المقبولة من الضخامة»- يبلغ 121 بليون دولار في سنة 2006، ويزداد إلى 189 بليون دولار في سنة 2015 [1]. وعندما نضع في الاعتبار وجود وعود رسمية بتطوير الإعانة، فإن المبلغ الإضافي المطلوب كل سنة للوفاء بالأهداف يكون فقط 48 بليونًا لأجل سنة 2006 و74 بليونًا لأجل سنة 2015.

يمكننا الآن أن نحسب مقدار ما سوف يكون على كل شخص ثري أن يُسهم به في المبلغ المجمّع لأجل الوفاء بمجمل هذه المبالغ وتحقيق تلك النتائج. وفقًا لبرانكو ميلانوفيك Branko Milanovic الذي يعمل في **البنك الدولي**، فإننا إذا عرَّفنا «الأثرياء» باعتبارهم أولئك الذين يكون لديهم دخل فوق معدل الدخل المتوسط في البرتغال (وهي الدولة الأدنى في نسبة الدخل في «نادي الأثرياء» في أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، واليابان، وأستراليا، ونيوزيلندا)، فعندئذ سيكون لدينا 855 مليون شخص في العالَم [2]. ولو أن كل واحد مِنّا تبرع بمبلغ 200 دولار في كل سنة، فإن هذا سيصل إلى مبلغ إجمالي قدره 171 بليون دولار، أو تقريبًا المبلغ الذي يعتقد زاكس أن مهمة حملات الأمم المتحدة تحتاج إليه لكي تفي **بأهداف التنمية في الألفية الجديدة**. هذه الأهداف -كما رأينا الآن- تسعى فحسب إلى تخفيض الفقر العالمي إلى النصف، وليس إلغاءه. ولكن دعنا نُنحِّ ذلك جانبًا وقتيًّا؛ فتحقيق الأهداف بحلول سنة 2015 سيكون أمرًا جيدًا على الطريق نحو إلغاء الفقر العالمي واسع الانتشار.

من بين أولئك الأثرياء البالغ عددهم 855 مليونَ شخصٍ، فإنَّ البعض يكونون بالكاد فوق متوسط الدخل في البرتغال، بينما يكون آخرون من أصحاب البلايين. ولا يبدو من العدل أن يتبرّع هؤلاء جميعًا بالقدر نفسه من المال؛ وسيكون من الأفضل أن نستخدم نظامًا متدرجًا تصاعديًّا، مثل الضريبة التصاعدية؛ بحيث لا يتبرّع الأثرياء حقًّا بمبلغ أكبر فحسب، وإنما أيضًا بنسبة من دخلهم أكبر مما يتبرّع به أولئك الذين لا يكسبون أكثر من متوسط الأجر في بلد ثري. وأنا في الفصل الأخير من هذا الكتاب أقترح نظامًا متدرجًا تصاعديًّا يعبر عن هذا الشكل من العدالة. ومع ذلك، فإننا

(1) See UN Millennium Project, *Investing in Development Goal* (New York: Earthscan, 2005), chapter 17. www.unmillinniumproject.org/reports. The figures are in 2003 dollars.

(2) Branko Milanovic, *Worlds Apart: Measuring International and Global Inequity* (Princeton University Press, 2005), p. 132.

يمكن أن نتجاهل وقتيًا التفاصيل، ونركز على أنه إذا ساهم كل شخص بمشاركته العادلة؛ فإن المبلغ الإجمالي الذي ينبغي للمرء أن يتبرّع به لكي يقضي تمامًا -أو على الأقل يقلل بشدة- النطاق الواسع من الفقر المُدقِع، هو مبلغ سيكون بالمئات وليس بالآلاف من الدولارات في السنة.

ولنذكّر هنا فحسب بما يمكن أن يفعله هذا التبرع. مهمة الحملات بيّنت الفوائد التي ستنتج عن الوفاء **بأهداف التنمية في الألفية الجديدة.** فمقارنةً بسيناريو «تسيير الأمور وفقًا للمعتاد»، نجد أن الوفاء بأهداف التنمية سوف يعني أن من يعيشون في فقرٍ مُدقِع سيكونون أقل بمقدار 500 مليون شخص، وأن 300 مليون شخص لم يعودوا يعانون من الجوع. وسوف يقل عدد من يعيشون من دون مياه شرب آمنة بمقدار 350 مليون شخص، كما أن 650 مليون شخص سوف يحصلون على المرافق الصحية الأساسية. وخلال العقد القادم سيتم إنقاذ حياة 30 مليون طفل، وسيقل عدد النساء اللاتي يمُتن بسببِ الحمل والولادة بمقدار 2 مليون امرأة. إضافةً إلى ذلك، فإن الملايين من الأطفال سيكون لديهم الكثير من الفرص لأنهم كانوا قادرين على الحضور إلى المدرسة، كما أن معدل التدهور البيئي سوف يتم إبطاؤه أو تراجعه.

ولكن معظم الناس لا يسهمون بمشاركتهم العادلة، وبذلك فإننا ما زلنا بحاجة إلى أن نسأل: هل مشاركتنا العادلة تتمثل كلها حقًّا فيما يكون كل منا ملزمًا بفعله. لكن هنا نجد شكلًا آخر لقصة البِركة، يمكن أن يساعدنا في التفكير في هذا السؤال. ها أنت تمشي مارًا بالبركة الضحلة، فترى عشرة أطفال قد سقطوا في المياه وبحاجة إلى الإنقاذ. وإذ تنظر حولك، فإنك لا ترى آباءً أو مُسعفِين، ولكنك ترى أن هناك -مثلك أيضًا- تسعة من البالغين قد وصلوا للتو إلى البحيرة، وأنت ترى أيضًا الأطفال الذين يغرقون، وترى أيضًا أن هؤلاء البالغين هم في وضع مثل وضعك يتيح لهم إنقاذ طفلٍ ما. وهكذا، فإنك تُلقي بنفسك في المياه، وتسحب طفلًا وتضعه في مكان آمن بمنأى عن المياه. وأنت تنظر من حولك، وتتوقع أن كل شخص من البالغين سوف يفعل الشيء نفسه؛ وبذلك سيكون كل الأطفال في أمان، ولكن ما يُثير في نفسك الفزع هو أنه بينما أربعة من البالغين قد أنقذ كل واحد منهم طفلًا، فإن الخمسة الآخرين راحوا يمشون الهوينى. لا يزال هناك في البركة خمسة أطفال، من الظاهر أنهم على وشك الغرق. سيقول مُنظّرو «المشاركة العادلة» إنك قد قمت بمشاركتك

العادلة في الإنقاذ. وإذا فعل كل شخص مثلما فعلت أنت؛ لأمكن إنقاذ كل الأطفال. وحيث إنه لا أحد يكون في وضع أفضل من أي شخص آخر فيما يتعلّق بإنقاذ طفل ما؛ فإن مشاركتك العادلة في المهمة هي ببساطة أن تنقذ طفلًا ما، ولا يكون هناك عليك أي إلزام بأن تفعل ما هو أكثر من ذلك. ولكن هل من المقبول بالنسبة إليك وإلى الأربعة الآخرين من البالغين أن تتوقفوا بعد أن أنقذ كلٌّ منكم طفلًا واحدًا فقط، مع علمكم بأن هذا يعني أن خمسة أطفال آخرين سيموتون؟

هذا السؤال يفضي بنا في واقع الأمر إلى أن نسأل: هل كون أن أناسًا آخرين لا يسهمون بمشاركتهم العادلة، يُعد سببًا كافيًا لأن تترك طفلًا ليموت في الوقت الذي كان يمكنك بسهولة إنقاذ ذلك الطفل؟ أظن أن الإجابة واضحة: لا. إن الآخرين الذين رفضوا أن يمدوا يد العون بالإنقاذ قد جعلوا أنفسهم خارج سياق المسألة. وربما كانوا بالمثل متأرجحين كثيرًا. والواقع أنه بناءً على وجهة نظر المشاركة العادلة، فإنه كان من الأفضل للأطفال لو كان هؤلاء متأرجحين بالفعل؛ لأنك عندئذ كنت ستُصبح ملزَمًا بأن تعود إلى الخوض في البركة لتنقذ طفلًا آخر. ليس ذنب الأطفال الذين تكون حياتهم على المحك أن هناك أناسًا كان يمكنهم إنقاذهم ولكنهم رفضوا أن يسهموا بمشاركتهم العادلة. إن رد الفعل أو عدم الفعل لهؤلاء الناس لا يجعلنا مُحقِّين في ترك الأطفال ليغرقوا في الوقت الذي كان يمكننا بسهولة إنقاذهم[1].

يعتقد ليام مورفي أنك إذا أنقذت بالفعل طفلًا في هذا الموقف، وبعد ذلك ترفض أن تنقذ طفلًا ثانيًا؛ فإنك لم ترتكب بذلك أي خطأ. وهو يحاول أن يبرر الاستهجان الواضح لهذه الرؤية بالقول بأن رفضك لإنقاذ طفلٍ ثانٍ في الوقت الذي كان يمكنك فيه إنقاذه، هو أمر يبين أن شخصيتك فظيعة»، ولكنه لا يبين أنك قد ارتكبت أي شيء خاطئ. وهو يقول إننا قد نتجنب شخصًا يمكن أن يُظهر مثل هذه اللامبالاة الشعورية إزاء الحاجات الملحة لشخص معين يحدوه خطر الغرق[2]. ولكن ليست مجرد شخصية المرء هي المشكلة، فالمشكلة هي أن هناك شخصًا ما قد ترك طفلًا ليموت

(1) For further arguments against the fair-share view, see Elizabeth Ashford, 'The Demandingness of Scanlon's Contractualism,» *Ethics* 113 (January 2003), pp. 273-302, and Garrett Cullity, *The Moral Demands of Affluence* (Oxford, UK: Oxford University Press, 2004), pp. 357-83.

(2) Liam Murphy, *Moral Demands in Nonideal Theory* (New York: Oxford University Press, 2003), p. 133.

في الوقت الذي كان يمكنه بسهولة إنقاذ ذلك الطفل. إن ما فعله فظيع. وموقفنا من فظاعته أشبه بموقف طفل يضرب الأرض بقدمه تعبيرًا عن غضبه، ويقول: «هذا **ليس عدلا!**». وجود حس العدالة هو -كما رأينا- مفيد للأفراد وللمجتمع الذي يعيشون فيه، وربما يكون مفطورًا؛ ولكننا عندما نكبر نعرف أنه ينبغي لنا أحيانًا أن نقبل عدم العدالة. ليس علينا أن نحب ذلك الأمر، ويمكننا أن نشتكي منه مر الشكوى من الشخص الذي لا يسهم بمشاركته، ولكننا في معظم الحالات سوف نفعل ما ينبغي لنا فعله إذا كانت تكاليف عدم فعله مرتفعة إلى حد ما. أولئك الذين يرفضون من حيث المبدأ أن يفعلوا أكثر من أن تصنع مشاركتهم العادلة صنمًا للعدالة. موقف هؤلاء يشبه موقفنا حينما نتخذ موقفًا ثابتًا من الكذب، حتى في الحالة التي يمكن فيها لقول كذبة ما أن ينقذ شخصًا بريئًا من القتل. بينما في الحالتين -أي في العدالة والكذب- يكون من المهم دائمًا أن نحافظ على المبدأ، فهناك أوقات يكون فيها فعل ذلك خاطئًا ببساطة.

لا يعني هذا أن العدالة لا تُحدِث فرقًا. إن مثال إنقاذ مزيد من الأطفال الذين يغرقون أكثر مما تتطلبه مشاركتك العادلة، ليس هو مثال يجب عليّ فيه -بتعبير آبيا- «أن أخرج عن مسار حياتي» لكي أعوض عما لم يفعله الآخرون. وربما عند إنقاذ حياة الآخرين في الوقت الذي لا يسهم فيه الآخرون بمشاركتهم، أكون بذلك مُلزمًا بأن أذهب إلى ما هو أبعد مما تتطلبه العدالة المحددة، ولكنني يكون لديّ مبرر في أن أتوقف عند النقطة التي سأضحي فيها بشيء ما يكون مهمًا تقريبًا بقدر أهمية الحياة التي أقوم بإنقاذها. من الصعب أن نحدد بالضبط المقدار -إن كان هناك أي مقدار- الذي ينبغي أن نمنحه من أجل العدالة في مثل هذا الموقف. وإذا سلّمنا بدعوى آبيا في أننا غير مطالبين بأن نخرج عن مسار حياتنا لكي نعوض أشكال القصور في مسلك الآخرين، فإن موقفه لا يزال يتطلب منا أن نفعل أكثر كثيرًا مما نفعله الآن.

رؤية معتدلة المطالب

لو أمكننا أن نصرف النظر عن البرهان الذي يحدد التزاماتنا في إطار المشاركة العادلة، فإن التحدي التالي الذي يواجهنا هو فحص عدد من المعايير كثيرة المطالب التي نشأت في مناظرات الفلسفة حديثة العهد. وفقًا لريتشارد ميلر Richard Miller -وهو فيلسوف قد كتب كثيرًا عن العدالة

العالمية- فإننا ينبغي أن نتبرّع إلى الحد الذي إذا تبرعنا بما هو أكثر منه؛ فإننا بذلك نعرض أنفسنا لخطر «بالغ» يلحق الضرر بحياتنا، ولكننا لسنا مضطرين لتجاوز هذا الحد. إن فكرة ميلر هي أن الأخلاقية تسمح لنا أن نسعى إلى تحقيق «الأهداف الأساسية التي نتعلق بها بشكل آمن»، ولكن عندما يكون الآخرون في احتياج، فإن الأخلاقية لا تسمح لنا بأن ننفق أكثر مما يَلزَم لتحقيق تلك الأهداف[1]. أما جاريت كَليتي Garrett Cullity -مؤلف كتاب **المطالب الأخلاقية للثراء** *Moral Demands of Affluence*- فيعتقد أننا ينبغي أن نتبرّع إلى الحد الذي سوف تقوّض فيه مساهماتنا التالية سعينا لتحقيق «المنافع الداعمة للحياة بشكل جوهري»، مثل: الصداقة، وتنمية المواهب الموسيقية للمرء، واندماج المرء في حياة مجتمعه[2]. ويبرهن براد هوكر Brad Hooker -في كتابه **الميثاق الأخلاقي المثالي والعالم الواقعي** *Ideal Code, Real World*- على أننا ينبغي أن نحاول أن نحيا وفقًا للميثاق الأخلاقي الذي إذا ارتضيناه على نطاق واسع، فإن هذا سوف يؤدي إلى أفضل نتيجة. ويؤكد هوكر أننا مطالبون أخلاقيًا بأن نساعد أولئك الذين يكونون في احتياج أشد «حتى إذا كانت التضحية الشخصية المتضمنة في مساعدتهم تؤدي إلى تكلفة بالغة»، وإن كنا غير ملزمين بأن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك[3].

إنَّ معيار ميلر هو أقل المعايير من حيث المطالب. وإذا كان من المهم بالنسبة إليك أن تعبر عن شعورك لمن تشترى له أحيانًا ملابس أو كماليات تكون مسايرة «للموضة» أو لأجل اللهو والتسلية، بدلًا من شراء شيء ما أكثر أساسية؛ فإنه يجوز لك أن تشتري تلك الأشياء. وهذا يصدق بالمثل على الأكل: فلو أننا لم نذهب إلى مطعم فاخر يومًا ما؛ لما كان بمقدورنا أن نتابع الهدف «الجدير بالاهتمام» من الأكل «بطريقة تكشف عن ممكنات جمالية وثقافية شيقة». وعلى نحوٍ مُشابه، فإن الاستمتاع «بمقدرة المؤلفين الموسيقيين والعازفين على توظيف الفروق الدقيقة في جَرس الصوت

(1) Richard Miller, «Beneficence, Duty and Distance,» *Philosophy and Public Affairs* 32 (2004), pp. 357-83

(2) Garrett Cullity, *The Moral Demands of Affluence* (Oxford, UK: Oxford University Press, 2004).

وهناك الكثير جدًا في كتاب كَليتي أكثر مما ناقشته هنا. وقد قمت بالرد على بعض براهينه الأخرى في عرضي لكتابه في مجلة الفلسفة والبحث الفينومينولوجي:

Philosophy and Phenomenological Research 75:2 (September 2007), pp. 475-83.

(3) Brad Hooker, *Ideal Code, Real World: A Rule-Consequentialist Theory of Morality* (Oxford, UK: Calendron Press, 2000), p. 166.

والتركيب بغرض التأثير الجمالي القوي» هو أيضًا هدف جدير بالاهتمام، وهو أحد الأسباب التي تبرر شراء جهاز مجسّم للصوت «أعلى قيمة من الحد الأدنى لهذه الأجهزة».

معيار كَليتي ينطوي على مزيد من المطالبات. فمعياره الخاص «بالمنافع الداعمة للحياة بشكل جوهري» لا يبدو أنه يشمل الأشياء من قبيل الملابس المسايرة للموضة، رغم أنه يشتمل بالفعل على كل ما يكون ضروريًا للاستمتاع بالموسيقى؛ إذ إنّه يَعتبِر ذلك منفعةً داعمة للحياة بشكل جوهري. ولكن بالنسبة إلى أكبر المنافع، فإنه إذا كانت هناك منفعة بديلة أرخص ثمنًا يمكن أن أسعى إليها ولا تكون سيئة بالنسبة لي؛ فإنني ينبغي أن أتوجه إليها. فقط المنافع من قبيل الصداقة والتكامل، التي تنطوي على أعمق الالتزامات، هي ما لا ينبغي الحكم عليها على أساس من مقدار تكلفتها.

يعترف هوكر بأن معياره غامض، ولكنه يقول إنه معيار سوف يفي به شخص يتبرّع بانتظام بقليل من المال أو الوقت للمؤسسات الخيرية. وهو يؤكد على أن المحك هنا هو إذا ما كان ما يتم التبرُّع به من الوقت أو المال يؤدي إلى تكلفة بالغة، وليس إذا ما كانت التضحية المتضمنة في أية مناسبة معينة لمساعدة شخص ما في احتياج أشد، تُعد تضحية لها أهمية بالغة. ومن ثم، فإن التبرُّع إلى هذا الحد لن يتطلب -كما يقول هوكر- تخلي المرء عن مشروعاته الشخصية.

وهكذا فإن التزاماتنا إزاء الفقراء -في رؤى ميلر وكَليتي وهوكر- تصل إلى حدِّ القول بأنّك يجب أن تتبرّع إلى الحد الذي عنده إذا تبرعت بأكثر من ذلك، فإنك ستُضحّي بشيءٍ ما يكون مهمًا تقريبًا بقدر أهمية حياة طفل ما. ومع ذلك، فإنه من المهم ألّا يغيب عن نظرنا أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يتفقون على أنك إذا لم تتبرّع بأي شيء، أو تبرعتَ فقط بمبالغ تافهة لمساعدة الناس الأكثر فقرًا في العالم؛ فإنك بذلك تتصرف على نحو خاطئ. واعتمادًا على الحقائق المتعلقة بمقدار ما يكون مطلوبًا للتغلب على الفقر المُدقِع المنتشر عبر العالم؛ فإن الالتزامات التي يضعها ميلر وكَليتي وهوكر ربما تكون كثيرة المطالب بشكل يفوق المطالب التي تضعها وجهة نظر «المشاركة العادلة». فميلر -على سبيل المثال- سوف يُجيز لنا أن نشتري أشياءَ ترفيهية من الملابس الأنيقة «في بعض الأحيان فقط». إن الجهاز المُجسّم للصوت الذي قد يشتريه محب الموسيقى يمكن أن يكون «أعلى

قيمة من الحد الأدنى لهذه الأجهزة»؛ ولكن هذا يعني ضمنًا أننا ليس لدينا مبرر في شراء الجهاز الأعلى قيمة في هذا الطراز من الأجهزة، حتى إن كُنّا نستطيع أن نوفره. إن كَليتي يجيز لنا أن نُنفق المال على أنشطة مهمة سوف تدعم حياتنا، ولكنه يرى أن الإنفاق على أشياء تافهة ينبغي إعادة توجيهه للمساعدة في مقاومة الفقر. ويقول هوكر إنك مُطالَب بأن تتبرّع لأولئك الذين في احتياج أشدّ، إلى الحد الذي يكون عنده مجموع ما تتبرّع به من مال أو وقت له تكلفة شخصية بالغة. وإزاء عالَم يتبرّع فيه أكثر الناس ثراءً بنسبة تافهة من دخلهم أو لا يتبرعون بشيء على الإطلاق، فإن الاتفاق بيننا جميعًا نحن الأربعة على أن الالتزامات معتدلة المطالب في مساعدة الفقراء، هو -على الأقل- اتفاقٌ يُعدُّ أكثر أهميةً من الاختلاف بيننا.

كثير من الناس يحصلون على متعة كبيرة في ارتداء ملابس مُصمَّمَة وفق خطوط الموضة، وأكل أشهى الطعام، والإنصات إلى الموسيقى من جهاز جيّد في تجسيم الصوت. فحياتي كلها تكون من أجل المتعة، وكلما حصلت على الكثير منها، كان ذلك أفضل؛ وغير ذلك من الأشياء تبدو عندي متساوية. ولا ريب في أن هناك قيمة في الأشياء التي يعتقد ميلر وكَليتي وهوكر أننا يحق لنا أن ننفق أموالنا فيها. ولكن برهاني لا يتضمن القول بأنه من الخطأ أن ننفق المال على تلك الأشياء حينما لا نستطيع بدلًا من ذلك استخدام هذا المال في إنقاذ حياة الآخرين ومنع المعاناة الهائلة. المشكلة هي أننا نعيش في غمار حالة طارئة يموت فيها 27,000 طفل كل يوم لأسباب يمكن تحاشيها. أي يموت أكثر من ألف كل ساعة. كما أن ملايين من النساء يعشن بمرض الناسور القابل للإصلاح، وملايين من الناس الذين يصيبهم العمى يمكن أن يبصروا مجددًا. إننا يمكن أن نفعل شيئًا ما إزاء هذه الأشياء. الحقيقة الدامغة ينبغي أن تؤثر في اختيارنا. إنني عندما أشتري جهازًا مُجسِّما للصوت من طراز جيد لكي نعزز هدفنا الجدير بالاهتمام، أو تجربة دعم حياتنا، في الإنصات إلى الموسيقى، فإنني بذلك أضفي قيمة على هذه التعزيزات لحياتي أكبر من أهمية حياة أو موت الآخرين. فهل العيش بهذه الطريقة يمكن أن يكون أخلاقيًا؟ أوليس كل ادعاء يؤمن بأن بالقيمة المتساوية للحياة الإنسانية هو ادعاء يستدعي السخرية؟

ولأجل هذا السبب نفسه، فإن توجيه أموال البر والإحسان إلى دعم الفنون والأنشطة الثقافية، في عالم مثل هذا الذي نعيش فيه، هو إحسان

مشكوك في جدارته الأخلاقية. في سنة 2004، دفع متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك مبلغًا قيل إنه يزيد على 45 مليون دولار في اللوحة الصغيرة المسماة **العذراء والطفل** *Madonna and Child* التي رسمها في العصر الوسيط الفنان الإيطالي البارع دوتشيو Duccio. وبشراء هذه اللوحة أضاف المتحف إلى رصيده الوافر من الروائع الفنية التي سيتمكن سعداء الحظ الذين يزورون المتحف من رؤيتها. ولكن إذا كان إجراء عملية لعلاج إعتام عدسة العين في بلد نام يتكلف 50 دولارًا؛ فإن إنفاق هذا المبلغ في شراء لوحة يعني أن هناك 900,000 شخص ممن لا يستطيعون إبصار أي شيء على الإطلاق -دع عنك عدم استطاعتهم رؤية لوحة ما- يمكن استرجاع بصرهم بذلك المبلغ من المال الذي تكلّفه شراء اللوحة. فنظير مبلغ 450 دولارًا لإصلاح الناسور، يمكن للمبلغ البالغ قدره 45 مليون دولار أن يمنح 100,000 امرأة فرصة أخرى في حياة لائقة. ونظير مبلغ 1000 دولار لإنقاذ حياة شخص واحد، يمكن للمبلغ البالغ قدره 45 مليونًا أن ينقذ حياة 45,000 شخص -أي ما يعادل سعة ستاد كرة قدم ممتلئ بالناس. فكيف يمكن أن تُقارن لوحة -مهما كانت جميلة ولها أهمية تاريخية- بذلك؟ فإذا اندلعت النيران، فهل يظن أي شخص أنه من الصواب إنقاذ دوتشيو من أن يَطَال لوحته اللهب، بدلًا من إنقاذ طفل ما؟ وهذا بالنسبة إلى طفل واحد فقط. فعندما يكون هناك عالم تم الوفاء فيه بحاجات الناس الأكثر إلحاحًا، سوف يكون توجيه أموال البر والإحسان إلى الفنون تصرفًا نبيلًا. وللأسف، فإننا لا نعيش في مثل هذا العالَم.

وهكذا، فإنه لا وجهة نظر «المشاركة العادلة»، ولا أي من تلك الوجهات من النظر الأكثر حداثة، تقدم لنا إجابة شافية عن السؤال: «ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله لمساعدة أولئك الذين يكونون في حاجة ماسة»؟ وعلى الرغم من ذلك، فأنا أعتقد أن هذه الوجهات من النظر لها محلها في الإجابة عن الأسئلة العملية المختلفة، وهي ما سوف أنتقل إليه الآن.

10 - اتجاه واقعي

عندما نكون في مواجهة البرهان الأخلاقي الذي يطالبنا بأن نتخلّى عن الكثير من دخلنا، فإننا ربما نسأل عما إذا كانت هناك أية نقطة معيارية تجافي بقوة فطرة الطبيعة الإنسانية من الناحية الفعلية، حتى إنه لا أحد سوف يتبعها فعليًا؟ عبر سنوات عديدة من التحدث والكتابة حول هذا الموضوع، وجدت أن الكفاح من أجل معيار أسمى لدي بعض الناس يدفعهم في الاتجاه الصحيح، حتى إن كانوا -وأنا أعد نفسي ضمنهم- لا يذهبون بعيدًا بقدر ما يملي عليهم المعيار. إن البحث الذي أجراه شانج Shang وكروسون Croson الذي أشرنا إليه في الفصل 5، حول مقدار المبلغ الذي يتبرّع به المتصلون بمحطات الإذاعة العامة الأمريكية، هو مبلغ يمكن أن يزداد حينما يتم إبلاغهم عن مبالغ هائلة تبرّع بها غيرهم. هذا البحث يوحي بهذه النتيجة نفسها التي ذكرناها. ولكن شانج وكروسون وجدا أن هذا المنهج يعمل فقط داخل حدود معينة. فأن تطلب من الناس أن يتبرعوا بما هو أكثر مما يتبرّع به غالبًا أي شخص آخر، ينطوي على مخاطرة توقفهم عن التبرع، وربما عند مستوى معين قد يجعلهم يتشككون في مسألة الكفاح من أجل عيش حياة أخلاقية على وجه العموم. وإذ يتم تثبيط همتهم بما يتطلبه فعل الشيء الصواب، فإنهم يسألون أنفسهم لماذا يزعجون أنفسهم بمحاولة فعل ذلك. ولكي نتجنب ذلك الخطر، ينبغي أن ندافع عن مستوى من العطاء سيؤدي إلى استجابة إيجابية. ولأنني أريد أن أرى أولئك الذين يعيشون في فقر يتلقّون أكبر قدر ممكن من الإعانة، فإنني أعتقد أننا ينبغي أن ندافع عن مستوى من العطاء سيرفع المحصلة الكبرى الممكنة، وبذلك يكون لدينا أفضل النتائج.

وأنا أقدّم في هذا الفصل هدفًا أسهل بكثير: التبرُّع تقريبًا بنسبة 5% من الدخل السنوي لأولئك الذين يكونون ميسوري الحال، وأكثر من ذلك إلى حد ما بالنسبة إلى الأثرياء جدًّا. وأملي أن الناس سوف يقتنعون بأنهم يمكن -بل ينبغي- أن يتبرعوا عند ذلك المستوى. وأنا أومن بأن فعل ذلك سوف يكون خطوة أولى تجاه استعادة الأهمية الأخلاقية للتبرّع باعتباره مكوّنًا جوهريًّا للعيش بشكل جيد في الحياة. وإذا ما تم تبنّي هذا الأمر على نطاق واسع، فسوف يكون لدينا أكثر مما يكفي من المال لإنهاء الفقر المُدقِع.

إنني أسلم بأن هذا المعيار أقل كثيرًا مما نتوقعه من البرهان الأخلاقي

الذي وضعته في أوائل هذا الكتاب؛ لأنه يبقى من الصحيح -بطبيعة الحال- أن معظم الناس قد أمكنهم بعد أن تبرعوا بمقدار 5% من دخلهم أن يقللوا من الفقر العالمي، وأن يتبرعوا بالمزيد من دون التضحية بأي شيء يكون مهمًّا تقريبًا بقدر أهمية حياة مَن سينقِذون. وإذًا، كيف يمكنني الآن القول بأن الناس الذين يتبرعون بمقدار 5% من دخلهم يوفون بالتزاماتهم في الوقت الذي يظلّون فيه بمنأى عن فعل ما يخلص إليه برهاني عما ينبغي لهم فعله؟ السبب يكمُن في الاختلاف بين ما ينبغي أن أفعله باعتباري فردًا، وبين جملة المبادئ أو الميثاق الأخلاقي الذي ينبغي أن أدافع عنه وأن أعمل على إطاعة معظم الناس في مجتمعنا له.

خذ البرهان الأساسي على أن التعذيب يكون دائمًا خاطئًا. إذا سلّمنا بذلك الميل الموثّق تمامًا لدى الضباط والحراس في إساءة معاملة المسجونين، وبالاحتمالية الأقل في أن يُفضي التعذيب إلى معلومات نافعة؛ فإنه من الأرجح أن يكون لتلك القاعدة أفضل النتائج. ومع ذلك، فإنني سوف أعترض على القول بأنني إذا وجدت نفسي -في سيناريو بعيد الاحتمال إلى حد كبير- حيث يكون هناك فقط إرهابي مُعذِب للناس سوف يساعدني على إيقاف انفجار قنبلة نووية في وسط مدينة نيويورك؛ فإنني ينبغي أن أقوم بتعذيب الإرهابي. فما ينبغي أن يفعله الفرد، وما ينبغي أن يفعله بناءً على توجيه أفضل قاعدة أخلاقية، هما أمران ليسا متماثلين بالضرورة.

بعض الفلاسفة ينكرون أنه يمكن أن تكون هناك فجوة بين ما ينبغي لنا فعله وبين القاعدة الأخلاقية التي ينبغي أن ندافع عنها؛ فمن وجهة نظرهم أنه من الخطأ دائمًا أن تفعل ما لا يمكن أن تدافع عنه علانية كقاعدة ينبغي أن يتّبعها كل شخص. فهم يريدون أن يكون كل شيء صريحًا وشفافًا. لقد كتب كانط بشكل ذائع الصيت أن اختبار إذا ما كان فعل ما يعد صوابًا هو سؤال عما إذا كان يمكنك أن تقرر أن المبدأ الذي تأسس عليه هذا الفعل ينبغي أن يكون مبدأً عامًا كليًّا[1]. يقترب جون رولز John Rawls من هذه الفكرة حينما جعل «شرط العلانية» «publicity condition» عنصرًا أساسيًّا في نظريته في العدالة[2]. تبدو هذه فكرة جميلة، ولكنها تغفل أنها لكي تكون مقبولة على نطاق واسع ويمكن

(1) Immanuel Kant, *Groundwork of the Metaphysics of Morals*, Part II; for a more explicit discussion, see Kant's *Perpetual Peace*, appendix II.

(2) John Rawls, *A Theory of Justice*, rev. ed. (Cambridge, MA: Harvard University Pree, 1999), p. 112.

العمل وفقًا لها، على نحو ما نرغب في أن تكون كذلك؛ فإن القواعد الأخلاقية ينبغي أن تتناغم مع طبيعتنا الإنسانية المتطورة، بكل آثارها الخلقية المنحدرة من ماضينا القَبَلي. وإذا فشلنا في أن نضع في اعتبارنا الانحيازات التي تجعل من الصعب إقناعنا -كما بيّنا في الفصل الرابع- بأن نتبرّع بأي شيء بالقدر نفسه لأجل مصالح الناس الذين يعيشون في أماكن نائية عنا ممن لا يمكننا التعرف على هُويّتهم، على نحو يماثل تبرّعنا من أجل مصالح الناس الذين يمكن أن نراهم ونُسمّيهم؛ عندئذ ستكون القاعدة الأخلاقية التي نُدافع عنها قليلة النفع؛ لأن قليلًا من الناس سوف يتبعونها. ومع ذلك، فإنني أكون في موقف مختلف حينما أتّخذ قراري الخاص بشأن مقدار ما أتبرّع به. فأنا عندئذ لا يمكنني أن ألجأ إلى طبيعتي البشرية الخاصة كسبب لعدم فعلي لما كنت بخلاف ذلك سأحكم بأنه ينبغي لي فعله. وكما بيّن ذلك بشكل ذائع الصيت الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان-بول سارتر Jean-Paul Sartre: عندما أسأل نفسي عما ينبغي لي أن أفعله، فأنا أكون حُرًّا. فلن يكون ببساطة من الصحيح أن أقول: «لا يمكنني أن أتبرّع بألف دولار لمساعدة الغرباء عني في إفريقيا؛ لأنني موجود بشري، والموجودات البشرية أقل اهتمامًا بالغرباء النائين مجهولي الهوية من اهتمامهم بالقريبين ممن يعرفونهم». كيف يمنعني هذا عن زيارة الموقع الإلكتروني لمنظمة «أوكسفام»، والقيام بملء استمارة بتفاصيل بطاقتي الائتمانية، لأتبرّع بمبلغ 1000 دولار؟ بل كيف يمكن له حتى أن يُقدّم لي سببًا ضد فعلي ذلك؟ فأنا سأكون بذلك -إن استخدمنا أحد المصطلحات المفضلة لدى الوجوديين في الإدانة- «فاقدًا للأصالة» إذا كنت سألجأ إلى الطبيعة البشرية كسبب لعدم فعلي لما أراه صوابًا، وليس هناك شيء يمنعني من الفعل سوى أنني لم أختر أن أفعله.

وإذا كان هذا لا يزال يبدو مُحيّرًا، فإن ذلك يرجع في بعض منه إلى أننا قد اعتدنا التفكير في الأخلاقية بمصطلحي الأبيض والأسود البسيطين. فأنت إما أن تفعل ما هو صواب، وما يستحق الثناء؛ أو تفعل ما هو خاطئ ويستحق اللوم. ولكن الحياة الأخلاقية مليئة بالاختلافات الدقيقة بأكثر مما يوحي هذا. إننا نستخدم الثناء واللوم للتأثير على السلوك، والمعيار الملائم يجب أن يكون مُتعلّقًا بما يمكن أن نتوقع بشكل معقول أن يفعله معظم الناس. ومن ثم، فإن الثناء والعقاب -على الأقل عندما يُقدّمان بشكل علني- ينبغي أن يتّبعا المعيار الذي ندافع عنه علنًا، وليس المعيار الأسمى الذي قد نطبقه على سلوكنا. وينبغي أن نثني على الناس

حينما يعملون على نحو أفضل بشكل ظاهر أكثر مما يفعله معظم الناس الذين يكونون في ظروفهم؛ ونلومهم عندما يفعلون على نحو أسوأ بشكل ظاهر. إذا فعلت ما هو أكثر من مشاركتك العادلة، فإن هذا يمكن على الأقل أن يُقلل من اللوم. وإذا أطعت الميثاق الأخلاقي العام، فإننا ينبغي أن نمتدحك لفعلك ذلك، بدلًا من أن نلومك لعدم فعلك ذلك[1].

الحكم على الثري والمشهور

يُرجِعنا هذا الكلام إلى الناس الأكثر ثراءً في العالم، الذين يتبرّع العديد منهم بمبالغ مالية ضخمة للمنظمات الخيرية. فعلى أي نحو ينبغي أن نرى بيل جيتس الذي تبرّع بمبلغ 29 بليون دولار لمكافحة الفقر، ولكنّه يظلُّ واحدًا من الناس الأكثر ثراءً في العالم؟

يَعرِف جيتس ما هو المعيار الأسمى. إنه مدون بشكل ظاهر للعيان على الموقع الإلكتروني لمنظمة بيل وميلندا جيتس: «كل حياة -ولا أهمية للمكان الذي تُعاش فيه- لها قيمة متساوية». ويقول جيتس إنه بدأ في النشاط الخيري عندما قرأ أن نصف مليون طفل يموتون كل سنة بسبب فيروس الروتا Rotavirus[2]. وهو لم يكن قد سمع من قبل عن فيروس الروتا. (إنه السبب الأكثر شيوعًا للإسهال الحاد بين الأطفال). وقد تساءل جيتس: «كيف أنني لم أسمع أبدًا عن شيء ما يقتل نصف مليون طفل كل سنة؟». وقد سمع بعدئذ عن أنه في البلدان النامية يموت ملايين الأطفال من أمراض تم التخلص منها -أو من المفترض أنه تم التخلص منها- في الولايات المتحدة. وقد صدمه هذا؛ لأنه قد افترض أنه لو كانت هناك تطعيمات وعلاجات يمكن أن تنقذ الحياة، لكانت الحكومات قد فعلت كل شيء ممكن من أجل جلبها للناس الذين يحتاجون إليها. وكما يروي جيتس القصة، فإنه وزوجته «لم يستطيعا الهروب من النتيجة الوحشية، وهي أنه -في عالمنا اليوم- بعض الحيوات تستحق الإنقاذ وحيوات أخرى لا تستحق ذلك. فحدثا نفسيهما قائلين: «لا يمكن لهذا الأمر أن يكون صحيحًا». ولكنهما عرفا أنه كان صحيحًا[3]. دفع هذا جيتس إلى إنشاء

(1) See Richard Arneson, «What Do We Owe to Distant Needy Strangers?» in Jeffery Schaler (ed.), *Peter Singer Under Fire* (Chicago: Open Court, forthcoming, 2009).

(2) فيروس يصيب الأطفال غالبًا، ومن أعراضه ارتفاع درجة الحرارة والإسهال والجفاف، وقد يؤدي إلى وفيات الأطفال ما لم يتم علاج أعراضه. [المترجم]

(3) For Gates's speech, see www.gatesfoundation.org/medicalCenter/Speeches/

مؤسسة، لكي يهبها منحة أولية بمبلغ 28 بليون دولار، ولكي يُكرّس نفسه طيلة الوقت لجعلها مؤسسة فعّالة.

لقد كانت منحة جيتس -في ذلك الوقت- أكبر تبرّع خيري تم تقديمه من قبل، تتضاءل أمامه مساهمات كارنيجي Carnegie أو روكفلر Rockefeller طيلة حياتهما، حتى عندما يتم قياسها وفقًا لمعدل التضخم. (منذ أن تعهد وارن بافيت Warren Buffett بالتبرُّع بمبلغ بليون أو بليونين زيادة على ما تبرّع به جيتس حتى ذلك الحين، ولكن جيتس يواصل العطاء، وليس من الممكن حتى الآن القول بمن سيتبرّع أكثر في آخر الأمر). إن جيتس يستحق الثناء على كرمه وعلى الطريقة بعيدة النظر التي بها اختار أهداف مؤسسته ومنهجها. ولكن بسبب كل هذا الكرم، يبدو بوضوح أن جيتس لا يعيش على فكرة القيمة المتساوية لكل حياة. فمنزله الذكي تكنولوجيًا الواقع بالقرب من شاطئ سياتل على مساحة 50,000 قدم مربعة، قُدّرت قيمته بمبلغ 135 مليون دولار. وتبلغ قيمة الضريبة العقارية 1 مليون دولار تقريبًا[1]. ومن بين ممتلكات جيتس **«مخطوط الغنم الأبيض»** *Godex Leicester*، وهو الكتاب الوحيد لليوناردو دافنشي، الذي لا يزال من الممتلكات الخاصة والذي دفع فيه جيتس مبلغ 30.8 مليون دولار في سنة 1994. فهل ينبغي لنا أن نمتدحه لتجاوزه -بشوط طويل- ما يتبرّع به معظم الناس، بمن فيهم بالغو الثراء؛ أم ينبغي لنا أن نلومه لأنه يعيش في رفاهية بينما الآخرون لا يزالون يموتون بسبب أمراض يمكن تلافيها؟ إنه يمكن أن يتبرّع بالمزيد، ونأمل أنه سيظل يتبرّع بالمزيد، ولكني أعتقد أننا يجب أن نمتدحه لأنه يتبرّع بقدر ما لديه.

وينبغي أن نستخدم هذا المعيار المقارن في الحكم على المشاهير الذين يساعدون الفقراء. في سنة 2006، عندما تبنّت مادونا ابنها دافيد، الذي كان آنذاك طفلًا عليلًا يبلغ عامًا واحدًا ويعيش في ملجأ للأيتام Orphange بمالاوي؛ قامت وسائل الإعلام بالهجوم عليها. فقد اكتشفت وسائل الإعلام أن أبا الطفل كان حيًا، وهكذا فإنهم دفعوا بكاميرات التليفزيون للقائه؛ وقد أجرى لقاءً إعلاميًا بدا فيه أنه لا يفهم تمامًا الدلالة القانونية للتبني. ولكن أبا دافيد كان غير قادر على الاعتناء به بعد أن تُوفيت أمه،

Co-ChairSpeeches/BiilgSpeeches/BGSpeevhWHA-050516.htm? Version=print; see paragraph 7 and concluding paragraph.

(1) The estimate comes from the real estate site www.zillow.com. Accessed October 12, 2008. See www.zillow.com/HomeDetails.htm?o=North&zprop=49118829.

فوضعه في ملجأ الأيتام. وإلى حد كبير بسبب انتشار مرض الإيدز أو نقص المناعة المكتسب HIV/AIDS، أصبح لدى البلد مليونٌ من هذه الملاجئ. مصادر تمويل ملاجئ الأيتام محدودة، وكثير من الأطفال لا يعيشون حتى السنة الخامسة من عمرهم. قالت مادونا إنها عندما قابلت دافيد كان مصابًا بالتهاب رئوي حاد، وكان يتنفس بصعوبة. تعد مالاوي أحد أفقر البلدان في العالم، ومعدل الوفيات فيها يبلغ أربعة وتسعين من كل ألف شخص، ومتوسط العمر المتوقع للفرد عند ميلاده هو واحد وأربعون عامًا. وفيما يتعلق بعدد السكان البالغين، فإن شخصًا واحدًا من بين كل سبعة تقريبًا مصاب «بالأيدز». ولو أن دافيد قد ظل في ملجأ الأيتام، فليس هناك سبب يدعو للاعتقاد في أنه ربما أصبح أفضل حالًا من عموم المالاويين. والأرجح أن حاله سيكون أسوأ كثيرًا من ذلك.

إن مادونا بتبنيها لطفل من بلد فقير، فإنها بذلك تتَّبع نموذجًا أرساه مشاهير آخرون، من بينهم: ميا فارو Mia Farrow، وإيوان ماكريجور Ewan McGregor، وأنجلينا جولي Angelina Jolie. أشكال التبني يستهويها أن يكون المستفيد من أمثال الفتاة «روكيا» Rokia، ولكنهم يفشلون في مواجهة أسباب الفقر. وإذا كان هذا هو ما يفعله كل هؤلاء المشاهير؛ فإننا يمكن أن نخمن أن حالات التبني تكون من أجل منفعتهم الخاصة أكثر من كونها من أجل الأطفال الأكثر فقرًا في العالم. ومع ذلك، فإنه مما يُحسَب لمصداقية مادونا أنها تفعل ما هو أكثر من تبنيها لدافيد. إن منظمة «رعاية المالاويين» Raising Malawi -وهي منظمة قد شاركت في تأسيسها- تستثمر الأموال من أجل مساعدة الأيتام في مالاوي، ومن أجل دعم تعليم الفتيات، ومن أجل جمع الأموال «مشروع جيفري زاكس لقرى الألفية الجديدة». كما أن أنجلينا جولي تدعم قرى الألفية الجديدة، بينما ناتالي إمبروليا Natalie Imbruglia هي المتحدث الرسمي «لحملة القضاء على مرض الناسور». وأنا لا أعرف مقدار الوقت أو الدخل الذي يُنفقه هؤلاء النجوم من أجل مكافحة الفقر العالمي وما يترتب عليه من نتائج، ولكنه إذا كان أكثر بشكل ملحوظ مما ينفقه معظم نجوم السينما أو النجوم الشعبيين؛ فإننا ينبغي أن نمتدحهم بسبب ما يفعلونه بدلًا من أن نُركّز انتباهنا فيما يمكن أن يفعلوا من مَزيد. وفي مقابل ذلك، ففيما يتعلق بأولئك الذين يُعتبَرون من بين الأشخاص بالغي الثراء الذين يعيشون بإسراف بالغ بينما يتبرّعون بالقليل؛ فإن إلقاء اللوم عليهم لن يكون في غير محله. تأمل حالة بول آلان Paul Allen الذي يُسمى أحيانًا

بأنه «زيليونير بالمصادفة». في سنة 1975 تعاون آلان مع زميل من الدراسة الثانوية على افتتاح شركة كومبيوتر. وبعد ذلك بثماني سنوات انفصل عن صديقه، ولكنه احتفظ بربع مخزون الشركة. كان صديقه السابق هو بيل جيتس، وكانت الشركة هي مايكروسوفت. الآن مجلة «**فوربس**» *Forbes* تضع آلان ضمن قائمة أكبر أثرياء العالم بثروة تبلغ 16 بليون دولار[1]. ذلك المبلغ هو ربع ما كان يمتلكه جيتس حينما تبرّع بمبلغ 28.8 بليون دولار. وفقًا لموقع آلان على شبكة المعلومات، فإنه قد تبرّع على مدى حياته بمبلغ 900 مليون دولار لأسباب خيرية. القليل جدًّا من الناس يمكن أن يكونوا يومًا ما قادرين على التبرُّع بهذا القدر الكبير من المال؛ ولكن نسبة هذا المبلغ هي واحد إلى ثلاثين مما تبرّع به جيتس، وضئيل الشبه مقارنةً بما يتبرّع به بالغو الثراء[2]. وفي مقابل المشروعات التي يؤسسها جيتس، فإن آلان يركز إسهامه الخيري المحدود في مؤسسات الفن والمستشفيات والمشروعات المجتمعية الأخرى في الشاطئ الشمالي الغربي للولايات المتحدة الثري أصلًا، حيث يعيش. كما أن آلان أيضًا لا يعيش بطريقة متواضعة ولا يستثمر ثروته من أجل التبرُّع في زمن مستقبلي ما، مثلما فعل بوفيه. فهو يمتلك ثلاثة فرق رياضية احترافية، يغدق عليها مئات الملايين من الدولارات. الدمى التي يلعب بها هي مجموعة من النماذج العتيقة من الطائرات العسكرية، ويخت يجوب أعالي البحار يبلغ طوله 413 قدمًا ويُسمَّى «**الأخطبوط**» *Octopus*، تبلغ تكلفته 200 مليون دولار، ويعمل عليه طاقم دائم من ستين شخصًا. عندما دشّن في سنة 2003 يخت «**الأخطبوط**»، كان هو اليخت الأكبر في العالم. يحتوي اليخت على ستوديو موسيقي خاص، وملعبًا لكرة السلة، وطائرتي هيلكوبتر، وسبعة قوارب، وغواصة، وأداة اتصال يتم التحكم فيها عن بعد لمراقبة قاع المحيط. يُمكن للغواصة أن تبيت تحت الماء من ثمانية أيام إلى أسبوعين، إذا كان هذا ما يروقك. ووفقًا لطاقم اليخت، هناك موقع على شبكة المعلومات للباحثين عن مِهَن على القارب، والمعتاد أن ينفق ملاك المراكب على الأقل نسبة 10% من تكلفة المركب كل سنة للحفاظ عليه بحالة جيدة ودفع رواتب الطاقم العامل عليه. ويملك آلان أيضًا اثنين من اليخوت العملاقة، من بينها يخت يُسمَّى «تاتووش» *Tatoosh* الذي كان في سنة 2003 ثالث أكبر يخت في العالم[3].

---

(1) *Forbes*, September 20, 2007.

(2) Laura Rich, *The Accidental Zillionaires* (New York: Wiley, 2003), p. 175.

(3) «Paul Allen's Yachts,» www.yachcrew-cv.com/paulallen.htm.

أنا لا أعرف بول آلان، وأتمنى ألا يُؤخذ ما أكتبه عنه باعتباره هجومًا شخصيًا. إن أسلوب حياته يُعدّ -إلى حد ما- من أعراض ثقافتنا، وتلك الثقافة هي ما أودّ أن أنقدها. وعلى أية حال، فإن آلان ليس وحده هو ما يستمتع بهذه الدُمى. يخت «الأخطبوط» قد تراجع الآن إلى المركز السادس من حيث الحجم، متأخرًا في المركز عن اليخوت التي تملكها الأسرة المالكة في دُبي وفي المملكة، والمليونير الروسي رومان آبراموفيتش Roman Abramovich، ولاري إليسون Larry Ellison الرئيس التنفيذي لشركة الأقراص المدمجة «**أوراكل**» *Oracle*. إليسون بليونير مسرف آخر، استطاع أن يستثمر أمواله في قدر أكبر من الخير، ويُنسب إليه قوله: «المال هو مجرد منهج للحفاظ على تسجيل الأهداف في المباراة». ويأتي ترتيبه الحالي في المركز الرابع عشر في قائمة مجلة «**فوربس**» لأكثر الشخصيات ثراءً في العالم، فقد قُدِّرت ثروته بمبلغ 25 بليون دولار. لديه عقار على الطراز الياباني تبلغ مساحته حوالي أربعة فدادين في منطقة الغابة بكاليفورنيا، وتقدر قيمته بمبلغ 200 مليون دولار، وله ممتلكات في ماليبو تقدر قيمتها بأكثر من 180 مليون دولار. وقد وضع ملايين الدولارات من أمواله في مزادات ناجحة من أجل الحصول على كأس أمريكا في 2003 و2007. وهو يملك كثيرًا من السيارات الرياضية الفارهة والعديد من الطائرات، بما فيها النفاثات الحربية. إن اليخت الخاص به يماثل يخت «**الأخطبوط**» الخاص بآلان، ولكنه يشكو من أنه لا يجد مراسي كبيرة بما يكفي لأن يسعه؛ ولذلك فإنه طلب الآن إنشاء «يخت مترف» أصغر حجمًا يسهل توقيفه في المراسي. ووفقًا لمجلة «**سجل الأعمال**» *Slate*، فقد تبرّع في سنة 2007 بمبلغ 39 مليون دولار. فإذا كان هذا يبدو بالنسبة إليك مسلكًا كريمًا؛ فلتفكر فيه على النحو التالي: إذا لم يكسب إليسون دولارًا واحدًا إضافيًا؛ فإنه يمكنه أن يتبرّع بمبلغ 39 مليون دولار في كل سنة لمدة ستمائة سنة قادمة، ويتبقى لديه مع ذلك أكثر من بليون دولار كضمانة لتأمين الحياة في فترة الشيخوخة[1].

فيتيليوس Vitellius -الإمبراطور الروماني- كان يتناول وجبة عشائه من آلاف من أمخاخ الطاووس وألسنة طيور الفلامنجو. ونحن نعتبر هذا الآن نوعًا من الفسوق الأخلاقي. ونحن يمكن أن نقول مثل هذا عن أولئك الذين يملكون اليخوت العملاقة. وإذا كان هذا يبدو حُكمًا قاسيًا («فليس

(1) «The World Billionaires: #14, Lawrence Ellison,» *Forbes*, March 5, 2008, www.forbes.com/lists/2008/10/billionaires08 _Lawrence-Ellison_JKEX_HTML.

في هذه الحالة طيور فلامنجو تموت بسبب صنع مثل هذا اليخت»)؛ فلنتأمل أولًا الإسراف اللامعقول في شراء وصيانة مثل هذه المراكب. وحيث إنك الآن لديك الأرقام، فاجمع الحاصل بنفسك، واحسب المبالغ: احسب كم عدد النساء اللاتي كان يمكن لهذه المبالغ أن تنقذ حياتهنّ بالتدخل الجراحي لإصلاح أمراض الناسور لديهن، وكم كان عدد العميان الذين كان يمكن استعادة إبصارهم، وكم عدد الأطفال الذين كان يمكن إنقاذ حياتهم من الموت بسبب الملاريا نظير تكلفة تصنيع يخت **«شروق الشمس»** أو **«الأخطبوط»**، ونظير تكلفة ملاحته كل سنة. ولكن هذا ليس هو كل ما هنالك: فالحقائق البشعة للتغير المناخي تدين أيضًا أولئك الذين يملكون يخوتًا خاصة ضخمة. ولا يخدعنك الاسم: فهذه المراكب لا تستمد طاقتها من الرياح، وإنما هي سُفُن بمحركات كبيرة تمخر عباب البحر باستهلاك كميات لا معقولة من الوقود، وتنفث نتاج الغازات المسببة للاحتباس الحراري في الغلاف الجوي. وعلى سبيل المثال: يخت **«شروق الشمس»** الخاص بإليسون مزوَّد بقوة أربعة محركات، يستهلك كل واحد منها -عندما يعمل بكامل طاقته- 548 جالونًا من الوقود في الساعة، بإجمالي 2,192 جالونًا في كل ساعة من الإبحار. وفي ساعة واحدة يستهلك يخت **«شروق الشمس»** من الديزل متوسط ما يحتاج إليه السائق الأمريكي ليسوق سيارة فولكس فاجن جيتا تعمل بالديزل لمدة سبع سنوات[1]. وحتى بحسب نسبة الدخان المسبب لانبعاثات غاز أوكسيد النيتروجين، فإن نسبة هذا الغاز المنبعث من هذه المحركات تعد أسوأ: فالسائق الأمريكي لسيارة جيتا سوف يستغرق عشرين سنة كي تصدر عن سيارته نسبة انبعاث من غاز أوكسيد النيتروجين تعادل تقريبًا النسبة التي تصدر عن يخت **«شروق الشمس»** في ساعة واحدة. إن كل هذا الوقود يحترق، لا من أجل أن يزرع الناس الغذاء، أو الذهاب للعمل، أو زيارة أحبتهم؛ وإنما من أجل أن يسلي لاري إليسون نفسه ويتباهى بمقدار ثرائه. لقد حان الوقت لأن نتوقف عن النظر إلى هذه الأساليب في إنفاق المال باعتبارها أساليب في الاستعراض الأحمق وإن لم يكن مؤذيًا لما هو بلا جدوى، وأن نبدأ في التفكير فيها باعتبارها دليلًا على أنها نقص محزن في الاهتمام بالآخرين. إننا نحتاج إلى ثقافة أخلاقية تضع في اعتبارها الآثار المترتبة على ما يفعله كل منّا لأجل العالم الذي نحيا فيه، وأن هذا هو بالتالي ما يقرر الحكم على هذه الأفعال.

(1) تم إجراء هذه الحسبة على أساس أن سيارة من طراز Jetta قد سارت 88,000 ميل باستخدام تلك الكمية من الديزل، وعلى أساس أن متوسط المسافات التي يقطعها السائق الأمريكي هو 12,000 ميل في السنة.

المعيار العام

هذا يجلبنا إلى السؤال المهم عما ينبغي أن تكون عليه طبيعة المعيار العام للعطاء، وذلك في مقابل المعيار الأسمى الذي ربما نتَّبعه بوجه خاص. بعض الجماعات قد بذلت من قبل جهدًا لوضع مثل هذا المعيار، وكثير من الناس أنشأوا معيارهم بأنفسهم.

لقد أصبح جيمس هونج James Hong مليونيرًا في الثانية والثلاثين من عمره بعد أن أسس موقع ?Hot or Not، وهو موقع رائج بشكل ظاهر على شبكة المعلومات يتيح للناس تحميل صورهم على الموقع، لكي يقوم زائرو الموقع بتقييمها بمقياس متدرج من واحد إلى عشرة. ورغم أن هونج كان سعيدًا بنجاحه، فإنه لم يرِد أن يصبح جزءًا في مقياس سباق «وادي السيليكون»[1] Silicon Valley. وقد قال لمحاوره من صحيفة *New York Times*: «ليس هناك «رابح»؛ لأنه سيكون هناك دائمًا شخص ما لديه ما هو أكثر مما لديك». وقد قرر هونج أن الطريق المغاير لذلك هو التبرُّع بالمال بدلًا من تكديسه. ولكن ما مقدار ما تتبرّع به؟ هكذا سأل هونج أحد أصدقائه من بين المؤسسين والعاملين الأوائل في الانطلاقات الناجحة لشبكة المعلومات حول خليج سان فرانسيسكو، حيث يعيش هناك؛ فتلقى منه إجابات متباينة بشكل كبير. وقد استقر على صيغة معينة هي: تبرّع بنسبة10 % من كل شيء تكسبه فوق 100,00 دولار. ولكي يشجع الآخرين على فعل الشيء نفسه، فإنه أنشأ موقعًا على شبكة المعلومات يُسمَّى «عشرة فوق المائة» 10 over 100. وعلى هذا الموقع تعهَّد بأنه سوف يتبرّع دائمًا وفقًا لقاعدة «العشرة فوق المائة». وقد دعا الموقع الزائرين له أن يقوموا بهذا التعهد نفسه. وأنا في آخر مرة قد تحققت من أن 3,967 قد فعلوا ذلك[2].

إسرائيل شينكر Israel Shenker -المؤسس والمدير التنفيذي CEO لمقر شركة ISS للاستثمار العقاري بكاليفورنيا- يبدو سعيدًا بأن يخبر الآخرين بمعياره. إنه يضاهي كل شيء ينفقه بطريقة اختيارية على أشياء -كقضاء العطلات، والسيارات الفارهة، والمنزل الأكبر من المعتاد- بالتبرُّع الخيري بالقدر نفسه.

---

(1) منطقة في كاليفورنيا الغربية تقع جنوب شرق سان فرانسيسكو مشهورة بإنتاج التكنولوجيا المتقدمة وتصنيع المعالجات الإلكترونية للمعلومات. [المترجم]

(2) Jennifer Lee, «He Made His Money on a Whim, but Now He's Got a Serious Idea,» *The New York Times*, November 14, 2005, see also http://10over100.org.

إن «المنظمة الدولية للمشاركة العادلة» Fair Share International -وهي منظمة مقرها في مدينة آديليد Adelaide بأستراليا- تتألف من جماعة من الناس التزموا بصيغة «5.10.5.10»، وهي صيغة تعني التالي:

- تبرّع بنسبة 5% من دخلك السنوي الضخم، لكي تساعد المعوزين.
- قلل من استهلاكك الضار بيئيًا بنسبة 10% سنويًا، إلى أن تصل إلى حد لا تستطيع أن تفعل فيه أكثر من ذلك.
- امنح 5% من وقتك لمساعدة الناس في مجتمعك.
- اتخذ سلوكًا سياسيًا ديموقراطيًا عشر مرات على الأقل في السنة، وعلى سبيل المثال: تواصل مع الممثلين السياسين لك.

كل واحد من هذه المعايير له جاذبية أكبر من المتطلّب الذي يصعب الوفاء به للالتحاق بعضوية «رابطة الـ 50%». وإذا لم تكن ثريًا؛ فإن قاعدة التبرُّع «بعشرة فوق المائة» ستكون هي الأسهل كمعيار؛ لأنها لا تتطلب أي شيء على الإطلاق إلى أن تكسب 100,000 دولار في السنة؛ وإذا كنت تكسب 120,000 دولار على سبيل المثال، فإن ما تتبرّع به سيظل أقل من نسبة 2% من مجمل دخلك. وفي مقابل ذلك، فإنك إذا كنت تكسب مليونًا في السنة؛ فسوف تتبرّع بنسبة 9% من مجمل دخلك، وهو ما يعد مبلغًا معتَبرًا بشكل أكبر. ولكن كثيرًا من الناس الذين يكسبون أقل من 100,000 دولار في السنة يكونون قادرين على التبرُّع وسوف يريدون فعل ذلك، خاصةً إذا رأوا الآخرين يساهمون بالتبرع. إن معيار شينكر هو ضريبة استهلاكية مفروضة ذاتيًا: فإذا أنفقت بإسراف، فسوف تتبرّع بشكل معتبر إلى حد كبير. ولكن الكثير سوف يعتمد على الكيفية التي يمكن بها أن نفسر بدقة فئة «البنود التي يتم تقديرها ذاتيًا»: ولنتذكر هنا «زجاجة المياه» التي أشرنا إليها في البداية. وفي مقابل ذلك، فإن المعيار المرتبط بالاستهلاك يتيح لأولئك الذين يعيدون استثمار دخلهم بشكل مُنتِج أن يعيشوا بشكل متواضع ويواصلون فعل ذلك. ومع ذلك، فإن الأشخاص بالغي الثراء ينبغي أن يتجاوزوا مجرد مضاهاة نشاطهم الخيري باستهلاكهم. فلو أنك تكسب 100 مليون دولار في السنة؛ فلا بد أن تكون من المبذِّرين لكي تستطيع إنفاق أكثر من 10% من هذا الدخل، وأن تكون قادرًا على إنفاق ذلك المبلغ بكل سهولة. تُقدِّم «المنظمة الدولية في المشاركة العادلة» قاعدة عملية للكيفية التي ينبغي أن يحيا وفقًا لها المواطن في

القرن الحادي والعشرين، وهي قاعدة لا تشتمل فقط على بيان المقدار الذي ينبغي أن نتبرّع به، وإنما أيضًا على مقدار الوقت الذي ينبغي أن نكرّسه لأجل أسباب خيّرة، ولأجل ما ينبغي أن يكون عليه أسلوب حياتنا المُستدام. إن التبرُّع بنسبة 5% الذي تقترحه كمستوى للتبرّع يكون ملائمًا لذوي الدخول المتوسطة، ولكنه يبقى ضئيلًا تمامًا بالنسبة إلى أي شخص يكون ثريًّا بحق.

كلما كنت تكسب أكثر، كان ما ينبغي أن تعطيه أيسر؛ ليس فقط من حيث الدولارات، وإنما أيضًا باعتباره نسبة مئوية من دخلك. فإذا كنت تكسب 500,000 دولار؛ فإن التبرُّع بنسبة 5% ليس بالأمر الصعب على الإطلاق. فهذا التبرُّع سيترك لك مع ذلك مبلغ 475,000 دولار، وهو مبلغ ينبغي أن يكون كافيًا بالنسبة لأي شخص. ولكنك إذا كنت تكسب 50,000 دولار فقط، وتعيل عائلة، وتجد مبلغًا فائضًا بقيمة 2500 دولار لكي تتبرّع به، فإن هذا يعد أمرًا قاسيًا. وهكذا فإن الاقتراح بأنك ينبغي أن تتبرّع بنسبة 5% من دخلك الضخم، يتطلب أمورًا كثيرة من الناس الذين يعيشون على دخول تعد -بالنسبة إلى دولة ثرية- منخفضة نسبيًّا، ويكون سهلًا بالنسبة إلى أصحاب الدخول الأعلى. نحن لدينا معدلات ضرائب تصاعدية تضع هذا الأمر في الاعتبار؛ وبالمثل فإن ما تقدمه أنت للفقراء ينبغي أن يقوم على اقتطاع نسبة مئوية متزايدة من دخلك كلما تزايد هذا الدخل. ورغم ذلك، فإن هذا ليس بالمستوى الأدنى من التدريب الذي يمكن أن نفعله. إذ ينبغي أن نقدم محفزات للناس على أن يعملوا بجدية، ويخوضوا المخاطرات، وأن يكونوا مبتكرين. هذه الأمور مع كثير غيرها يمكن أن تقدم الكثير، ومع ذلك سيبقى هناك المزيد مما يمكن فعله.

لننظر في دخول الأشخاص بالغي الثراء في أمريكا، والأثرياء، وميسوري الحال فحسب؛ ونسأل ما الذي يمكن أن يسعوا إليه بشكل معقول للمساهمة في حل مشكلة الفقر المُدقِع والوفاء بها. نقدم هنا مخططًا أوليًا باعتباره معيارًا عامًا للتبرّع المقبول[1].

إن نسبة 0.01% هي أعلى نسبة من دافعي الضرائب في الولايات المتحدة

(1) الأرقام التالية مستمدة من عمل لتوماس بيكتي Thomas Piketty وإمانويل سايز Emmanuel Saez مبني على بيانات الضرائب في الولايات المتحدة عن سنة 2006. والأرقام التي يذكرانها تتعلق بالدخل قبل استقطاع الضرائب، وتشتمل على الدخل من مكاسب رأس المال. ولأجل التبسيط، فإنني قمت بتحويل الأرقام. ولاحظ أيضًا أنها تشير إلى «الوحدات الضريبية»، أي إنها -في حالات عديدة- تشير إلى الأسرة بدلًا من الأفراد. ويمكن أن نجد هذه الأرقام على الموقع التالي على شبكة المعلومات الخاص بإمانويل سايز:
http://elsa.berkeley.edu/-saez/.

الذين يبلغ دخلهم السنوى أكثر من 10.7 مليون دولار، بمتوسط دخل 29.6 مليون دولار. وعند هذا المستوى، فإن التبرُّع بثلث دخلهم لن يكون على الأرجح تقليلًا لمستوى معيشتهم بدرجة ذات أهمية. أما بالنسبة إلى بقية الذين يحتلون نسبة 0.1% من الأثرياء، فلديهم متوسط دخل يبلغ حوالي 3.7 مليون دولار، وحد أدنى من الدخل يبلغ 1.9 مليون دولار. ودعنا نضعهم في قائمة المتبرعين بربع دخلهم. وبقية من يحتلون قمة الأثرياء بنسبة0.5 %، فلديهم متوسط دخل يبلغ 955,000 دولار، وحد أدنى من الدخل يبلغ 600,000 دولار. وهؤلاء يمكنهم أن يتبرعوا بخُمس ما يَكسبون.

نحن الآن نهبط إلى مستويات من الدخل تجعل الناس أغنياءَ، ولكنهم ليسوا أثرياءَ ثراءً بالغًا. إن أولئك الذين يكونون في قائمة قمة الأثرياء البالغ نسبتهم 0.1%، ولكن ليس بنسبة 0.5%، يكسبون حدًا أدنى من الدخل يبلغ 383,000 دولار ومتوسط دخل يبلغ 465,000 دولار. يمكن لهؤلاء أن يكونوا قادرين بشكل مريح على التبرُّع بنسبة 15% من دخلهم. ويأتي بعدهم أولئك الذين يكونون في قائمة قمة الأثرياء البالغ نسبتهم 5% -ولكن ليس من هم على القمة البالغ نسبتهم 1%- يكسبون متوسط دخل بمبلغ 210,000 دولار سنويًّا، وبحد أدنى من الدخل يبلغ 148,000 دولار. وعند هذا المستوى من الدخل، فإن نسبة العُشر the tithe[1]، التي كانت تُمنح في التقاليد التراثية -من النادر أن تكون قاسية جدًّا؛ إذ إنها نسبة كانت تُمنح في التقاليد التراثية من أناس ذوي دخول أكثر تواضعًا.

وإذا استكملنا قمة الأثرياء البالغ نسبتها 10%، وذهبنا إلى مستوى من الدخل يعدُّ -على الأقل في الولايات المتحدة- مريحًا أكثر من كونه دخلًا ثريًّا؛ فإننا نجد أن دافعي الضرائب يكسبون متوسطًا من الدخل يبلغ 122,000 دولار، وبحد أدنى من الدخل يبلغ 105,000 دولار. ولنطلب من هؤلاء نسبة 5% فحسب من دخلهم.

ذلك يبدو مستوىً من التبرُّع يمكن تحمله بشكل عادل بدءًا من نسبة 10% من الدخل الأعلى لدافعي الضرائب الأمريكان، من أجل مشروعات كانت تهدف إلى إنقاذ حياة الناس وتقليل معاناة الناس الأكثر فقرًا في العالم. وهناك مقياس متدرج آخر ربما يمكن الجدال في أنه عادل أو أكثر عدلًا. وحتى إذا كان هذا المخطط لا يفعل شيئًا سوى بدء المناقشة، فإنه قد خدم الغرض منه.

(1) هي نسبة عشر الغلة أو المال التي كانت تُمنح إلى الكنيسة. [المترجم]

هناك سؤال ينبغي النظر فيه، وهو إذا ما كان ينبغي أن ينبني المقياس على الدخل قبل الاستقطاعات أو على ما بعد دفع الضرائب. فإذا كانت التبرعات بكاملها هي ضرائب مستقطعة، فإنها ينبغي أن تكون مبنية على الدخل قبل الاستقطاعات؛ لأنها على أية حال سوف تقلل من مقدار الضرائب المدفوعة. ولكن في بعض البلدان -مثل السويد- لا تكون التبرعات ضرائب مستقطعة. عندئذ فإن المقياس ينبغي أن ينبني على الدخل بعد دفع الضرائب.

عندما قدمت مقترحًا مشابهًا في صحيفة *New York Times* سنة 2006، كتبت امرأة من مدينة ساكرامنتو Sacramento أنها وزوجها كانا يُعدّان ضمن القائمة البالغ نسبتها 10%، ولكنها أردفت: «إننا لا يتبقى لنا سوى القليل جدًّا عند نهاية كل شهر. إني لا أستطيع أن أتذكر المرة الأخيرة التي ذهبنا فيها لتناول وجبة عشاء خارج المنزل، أو لمشاهدة فيلم، أو أي شيء من هذا القبيل... إننا حتى لم نذهب لقضاء شهر العسل!». تسديد قروض أبنائها الطلبة كان أحد تكاليفهما الكبرى. ومن الصحيح أن الدخل الذي يزيد على الدخل الكافي للناس في بعض الظروف، ربما يترك دخلًا أقل كثيرًا لأولئك الذين يكون عليهم أن يسددوا القروض أو ينّحوا جانبًا بعض المال تأمينًا لحصول أطفالهم على تعليم لائق. والأمر يعتمد كثيرًا على إذا ما كان الناس يملكون منزلهم الخاص، وعلى إذا ما كان المنزل الذي يملكونه قيد الرهن العقاري، وكم هو المبلغ الذي يدفعونه نظير ذلك. وبوضع هذه التعليقات في اعتباري، أجريت تعديلًا على المخطط الذي اقترحته في سنة 2006، حينما اقترحت آنذاك أن كل الذين يكونون على قمة الأثرياء البالغ نسبتهم 10% -وليس نسبة 1%- ينبغي أن يتبرعوا بنسبة 10% من دخلهم، وأنا الآن أقترح أن أولئك الذين يكونون في الجزء الأدنى من هذه المجموعة -أي الذين يكونون على قمة الأثرياء بنسبة 10% وليس بنسبة 5%- ينبغي أن يتبرعوا فقط بمبلغ 5% من دخلهم.

ومع ذلك، فإن المقياس المقترح سابقًا احتاج بعض التعديلات الدقيقة لتجنب اختلاق غرامة مالية على الانتقال من فئة ما من الدخل إلى فئة تالية. ولأجل التبسيط فقد اقترحت أن كل دخل ينبغي فرض الضريبة عليه بمعدل واحد، على أن يعتمد هذا المعدل على فئة الدخل. وهكذا، فإن الناس الذين يكون دخلهم 147,000 دولار سوف يتبرعون -وفقًا لخطتي- بنسبة 5%، أي بمبلغ 7,350 دولارًا، ويتبقى لهم 139,650 دولارًا؛ ولكن إذا ارتفع دخلهم إلى 148,000 فإنهم [وفقًا لخطة الضريبة غير المتدرجة

قياسًا على الدخل][1] سيتبرعون بنسبة 10%، ويتبقى لهم فقط مبلغ 133,000 دولار. وهذا كلام غير معقول. ويمكننا حل المشكلة على النحو نفسه الذي فعلناه في مقاييس الضريبة المتدرجة:

فئة الدخل	التبرع
105,001 دولار - 148,000 دولار	5%
148,001 دولار - 383,000 دولار	5% عن أول 148,000 دولار و 10% عن بقية المبلغ.
383,001دولار - 600,000 دولار	5% عن أول 148,000 دولار، و 10% عن الـ 235,000 دولار التالية، و 15% عن بقية المبلغ.
600,000 دولار - 1.9 مليون دولار	5% عن أول 148,000 دولار، 10 % عن الـ 235,000 دولار التالية، و 15% عن الـ 217,000 دولار التالية، و 20% عن بقية المبلغ.
1,900,001 - 10.7 مليون دولار	5% عن أول 148,000 دولار، و 10% عن الـ 235,000 دولار، و 15% عن الـ 217,000 دولار التالية، و 20% عن الـ 1.3 مليون التالي، و 25% عن بقية المبلغ.
ما فوق 10.7 مليون دولار	5% عن أول 148,000 دولار و 10% عن الـ 235,000 دولار، و 15% عن الـ 217,000 دولار التالية، و 20% عن الـ 1.3 مليون التالي، و 25% الـ 8.8 مليون دولار التالي، و 33.33% عن بقية المبلغ.

ولنُضف الآن عدد دافعي الضرائب في كل فئة. وبتلك المعلومات، بجانب متوسط الدخل في كل فئة؛ يمكننا أن نحسب مقدار ما تغلُّه المستويات

(1) ما بين هذين القوسين [ ] إضافة شارحة من جانبنا، منعًا للالتباس. [المترجم]

المختلفة للتبرّع من دافعي الضرائب الأمريكان:

فئة الدخل	عدد دافعي الضرائب	متوسط الدخل	الحد الأدنى المتبقي	مجموع الحصيلة
105,001 دولار - 148,000 دولار	7,418,050	122,353 دولار	99,800 دولار	45 بليون دولار
148,001 دولار - 383,000 دولار	5,934,440	210,325 دولارًا	140,000 دولار	81 بليون دولار
383,001 دولار - 600,000 دولار	741,805	464,716 دولارًا	352,100 دولار	32 بليون دولار
600,001 دولار - 1.9 مليون دولار	593,444	955,444 دولارًا	536,700 دولار	80 بليون دولار
1,900,001 دولار - 10.7 مليون دولار	133,525	3.7 مليون دولار	1.59 مليون دولار	102 بليون دولار
فوق 10.7 مليون دولار	14,836	29.19 مليون دولار	8.19 مليون دولار	131 بليون دولار
الإجمالي	14,836,100			471 بليون دولار

وهكذا، فإن هذه المستويات من التبرُّع سوف تغلُّ حصيلة إجمالية بمبلغ 471 بليون دولار في السنة من أجل أفقر بليون شخص في العالم، ليس من مجمل الأثرياء في العالم، وإنما فقط من النسبة البالغة 10% من الأسر الأمريكية! (وتذكَّر أن زاكس قد قدَّر مبلغ 189 بليون دولار على أقصى تقدير في السنة للوفاء بأهداف التنمية في الألفية الجديدة).

إن كتاب بيل كلينتون Bill Clinton الأكثر تأثيرًا بعنوان «**التبرع**»، يخبر قراءَه عن الاقتراحات التي قدمتها في مقالي الأسبق المنشور في صحيفة *New York Times*، ولكنه بعد ذلك يضيف قائلًا:

> أعتقد أنه من غير الواقعي أن نتوقع على المدى القصير مثل هذا المستوى من التبرُّع من أجل مبررات عالمية؛ وذلك لأسباب عديدة: فبعض الناس الأثرياء لا يعتقدون أن المال سوف يتم إنفاقه بحكمة... وبعض الناس من ذوي الدخول المرتفعة، وإن كان من دون ثروة مكدسة، يريدون بناء عقار قبل أن يتبرعوا

بنسبة كبيرة من أموالهم؛ ولذلك فإن 132,000 دولار في السنة
يتم التبرُّع بها في مدينة ليتل روك Little Rock[1] أكثر كثيرًا مما
يتم التبرُّع به في مدينة نيويورك. وكثير من الناس الأثرياء يكونون
ملتزمين أصلًا بالتبرُّع بالمال لأسباب خيرية في أمريكا[2].

ويستطرد بيل كلينتون ليقترح مخططًا أكثر تواضعًا، يتبرّع فيه أولئك الذين يمثلون 1% من قمة الأثرياء بنسبة 5% من دخلهم، ويتبرّع بقية قمة الأثرياء البالِغة نسبتهم 10% ، بنسبة 1% فقط من دخلهم. وبالنسبة إلى من يمثلون نسبة 10% من الأثرياء، وليس نسبة 1% منهم، فإن نسبة هذا التبرُّع تمثل فقط ثلث ما يتبرعون به أصلًا، وهي لا تتطلب أي شيء سوى إعادة تحويل وجهة نسبة من هذا التبرع، من المؤسسات الخيرية المحلية إلى تلك المؤسسات التي تعمل في أفقر بلدان العالم[3].

ولكن هل نحن نطلب حقًّا الكثير جدًّا من الناس الذين يكسبون على الأقل 383,000 دولار، حينما نطالبهم بأن يعيشوا بدلًا من ذلك على دخل مدفوع الضريبة مسبقًا يبلغ 352,100 دولار؟ إن ما يُعتبَر مستوى «غير واقعي» من التبرُّع في زمان ومكان واحد، قد يبدو متواضعًا تمامًا في زمان ومكان آخر. وبشكل مدهش، نجد أن الأمريكيين الذين يكسبون أقل من 20,000 دولار في السنة يتبرعون إلى المنظمات الخيرية بنسبة من دخلهم -وهي نسبة كبيرة تصل إلى 4.6%- تعدُّ أكبر مما تتبرّع به كل فئة أخرى من الدخل وصولًا إلى الفئة التي تبلغ أكثر من 300,000 دولار في السنة[4]. وهذا يوحي بأنه إذا كان الشخص الغني لديه ثقافة التبرُّع نفسها التي تكون لدى الفقير؛ لكانوا سيتبرّعون بأكثر مما يفترض كلينتون. وكما رأينا في الفصل 5، فإنّ الكثير سوف يعتمد على الطريقة التي بها نستميل الناس، وعلى البنيات المؤسساتية، والممارسات الاجتماعية التي نعيش في إطارها. وإلى أن يكون بمقدورنا تغيير هذه البنيات والممارسات على نحو ما وصفنا ذلك في الفصل 5؛ فإننا لا يمكن أن نعرف حقًّا عدد الناس الذين ربما يكونون على استعداد في النهاية للتبرّع. وليس واضحًا على وجه التحديد

(1) مدينة تقع في مقاطعة بولاسكي، وهي عاصمة ولاية أركنسا، وتقع على الضفة الغربية لنهر أركنسا؛ وقد تأسست سنة 1821. [المترجم]

(2)1 Bill Clinton, *Giving* (New York: Knopf, 2007), p. 206.

(3) Arthur Brooks, «The Poor Give More,» www.CondéNastPortfolio.com, March 2008, citing the 2000 Social Capital Community Benchmark Survey, www.portfolio.com/news-Poor-markets/national-news/portfolio/2008/2019/Poor-Give-More-to-Charity.

(4) Ibid.

من أولئك الذين يتصورهم كلينتون حينما يشير إليهم باعتبارهم «أناسًا أثرياء». ولكن وفقًا لنِسب الدخل فإنني أوصي بأن يكون من يكسبون أكثر من 300,000 دولار سنويًا -على سبيل المثال- قادرين على الوفاء بالمعيار العام للإسهام في مهمة استبعاد الفقر من العالم من دون أن يقتربوا ولو عن بعد من أن يُفقِروا أنفسهم. فهم سيظلّون قادرين على العيش في مستوى مريح، بحيث يتناولون العشاء في مطاعم جيدة، ويذهبون إلى الحفلات الموسيقية، ويقومون بعطلات مُترَفة، ويغيرون ملابسهم كل موسم. وأنا أشكّ كثيرًا في أن يُصبح أيٌّ منهم أقلّ سعادة بشكل ظاهر.

إذا كان دخلك لا يضعك على قمة الأثرياء التي تُمثّل نسبة 10%؛ فإنك تظل بشكل مؤكّد تقريبًا لديك دخل بحيث يمكنك الادخـار، وتذكّر هنا زجاجة المياه أو عبوة الصودا التي اشتريتها بدلًا من شرب المياه التي تخرج من الصنبور، وأنا لن أحدد هنا التفاصيل؛ لأننا نلاحظ -كما بيّن لنا الخطاب الوارد من المرأة القاطنة في ساكرامنتو- أن النسبة المئوية لدخل الشخص الذي تخضع بنود إنفاقه لتقديره الذاتي، هو أمرٌ يتباين إلى حد كبير بمجرد أن تهبط دخولهم إلى حوالي 100,000 دولار. ولكن فكِّر في مقدار ما يُمكن أن تتبرّع به. إن بلوغ تبرعك نسبة 5% من دخلك قد لا يكون أمرًا صعبًا، وسوف يجعلك تشعر بأنك قد فعلت أكثر من مشاركتك. وإذا أمكن لمجمل القطاع الأدنى من الناس الذين يمثلون 90% من دافعي الضرائب أن يتبرعوا -في المتوسط- بنسبة 1% فحسب مما يكسبون؛ فإن هذا حينما نضيفه إلى التبرعات المقترحة لقمة الأثرياء البالغة نسبتهم 10%، سوف يتيح لنا أن نصل إلى حصيلة إجمالية تبلغ حوالي 510 بلايين دولار.

من الواضح أن الأغنياء في الدول الأخرى ينبغي أن يشاركوا في عبء تخفيف الفقر العالمي. هناك عدد كبير بشكل متزايد من الناس الأثرياء في البلدان التي لا تنتمي إلى «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» OECD مثل: الصين والهند والبرازيل وشيلي وجنوب إفريقيا. ومن بين الأثرياء في العالم الذين يبلغ عددهم 855 مليونًا، فإن 17% منهم -أو 148 مليونًا- يعيشون في بلدان بمتوسطات دخـول أدنى من متوسطاتها في البرتغال (وهـذا الرقم يـزداد بشكل متسارع). وهـذا يشمل نسبة 11% من الذين يعيشون في بلدان بمتوسطات دخـول أدنى من متوسطاتها في البرازيل. هؤلاء الناس ينبغي أيضًا أن يشاركوا في مكافحة الفقر العالمي، سواء في

بلدانهم أو في أي مكان آخر[1].

ومن أجل التبسيط، دعنا نعتبر ثلث هذه النسبة بوصفها مشاركة عادلة بالنسبة إلى الولايات المتحدة؛ حيث إن هذا سيكون متناسبًا تقريبًا مع نسبة مشاركة الولايات المتحدة في الدخل الإجمالي للبلدان الأعضاء في «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية»[2]. وعلى هذا الأساس، فإن توسيع نطاق المخطط الذي اقترحته عبر العالم، سوف يوفِّر من أجل إعانة التنمية أكثر من 1.5 تريليون دولار سنويًا. وهذا المبلغ يزيد ثماني مرّات على المبلغ الذي قدَّرتُه كمبلغ مطلوب للوفاء «بأهداف التنمية في الألفية الجديدة لسنة 2015»، ويزيد عشرين مرة على العجز بين هذا المبلغ والالتزامات بإعانة التنمية الرسمية الموجودة بالفعل[3]. وهناك متسع لكي نغطّي لا فحسب الإعانة ذاتها، وإنما أيضًا للبحث والاختبار في أفضل أشكال عمل الإعانة.

إلى أن أحصيت كم يكسب بالفعل أولئك الأكثر ثراءً في أمريكا الذين يمثلون نسبة 10%، مقارنةً بما يقدِّره زكس كمتطلب للوفاء «بأهداف التنمية في الألفية الجديدة»؛ فإنني لم أكن لأفهم قدر السهولة التي يمكن بها لأثرياء العالم أن يفوا بالاحتياجات الأساسية لأولئك الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع في كل مكان حول العالم. لقد وجدت النتيجة مذهلة. لقد تحققت مرتين من الأرقام، وطلبت من أحد المساعدين في إجراء البحوث أن يتحقق هو أيضًا من هذه الأرقام. وقد جاءت الأرقام صحيحة. ولو كانت حملات منظمة الأمم المتحدة صائبة؛ فإن «أهداف التنمية في الألفية الجديدة» ستكون إذًا متواضعة للغاية. وإذا أخفقنا في تحقيق هذه الأهداف -كما تقول المؤشرات الحالية إننا قد نكون كذلك- فإننا لا يمكن أن نلتمس العذر لأنفسنا بالقول بأن المُستهدَف كان عبئًا ثقيلًا؛ لأنه من الواضح أنه ليس كذلك. إن المستهدف الذي ينبغي أن نضعه لأنفسنا لا يخفض إلى النصف من نسبة الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع، ومن

(1) كلمة «الأغنياء» يتم تحديدها هنا من خلال التعريف المقدم من برانكو ميلانوفيك Branko Milanovic، والذي ذكرناه في الفصل السابق. كما أن الأرقام مستمدة أيضًا من ميلانوفيك،
Worlds Apart: Measuring International and Global Inequity (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), p. 132.

(2) According to OECD purchasing powerparity figures, in 2006 the US. GdP was 36 percent of the EOCD total. See http://Isander.sourceoed,org/vl=3923031/d=14/nw=1/rps/figures_2007/en/page4htm.

(3) إن وضع نسبة التضخم في حسباننا منذ تقرير حملات الأمم المتحدة عن سنة 2007، سوف يهبط بالأرقام إلى سبع مرات من تقدير للبلغ الإجمالي للطلوب، وإلى نسبة ثماني عشرة مرة من العجز.

دون أن يكون لديهم ما يكفي لغذائهم، وإنما يضمن ألا يكون هناك أي فرد مضطرًا لأن يعيش في مثل هذه الحالات المتدنية.

هذا الهدف يمكن تحقيقه. وها هنا نقدم خطة من سبع نقاط ستؤدي إلى مساهمتك في حل مشكلة الفقر العالمي:

1. قم بزيارة موقع «الحياة التي يمكنك إنقاذها» www.TheLifeYouCanSave.com، وتعهد بأن تفي بالمعيار.

2. تحقق من بعض المواقع على شبكة المعلومات، أو قم ببحثك الخاص لكي تُقرر ما هي المنظمة أو المنظمات التي سوف تتبرّع لها.

3. خذ دخلك من خلال آخر إقرار ضريبي، وتحقق من القدر الذي يتطلبه المعيار من تبرعك. ثم قرر الكيفية التي تريد أن تتبرّع بها: من خلال أقساط شهرية منتظمة، أو ربع سنوية، أو مرة واحدة فحسب كل سنة، أيًا كان ما يلائمك عل أفضل نحو. ثم افعل ما قررت.

4. أخبر الآخرين بما فعلت. وعبّر عن كلمتك بأي طريقة تستطيع: بالحديث أو النص المكتوب أو الإيميل أو من خلال مدوّنة؛ استخدم ما لديك من اتصالات على شبكة المعلومات. حاول اجتناب أن تكون ناصحًا أخلاقيًا أو واعظًا، لأنّك على الأرجح لست قديسًا أيضًا، ولكن دع الناس يعرفون أنّك يُمكن أن تكون مشاركًا في الحل.

5. إذا تم توظيفك من خلال شركة أو مؤسسة، اطلب منها أن تلفت انتباه موظفيها إلى الطريق الصائب بإنشاء برنامج -سواء شاركوا فيه أم لم يشاركوا- بالتبرُّع بنسبة 1% من دخلهم السابق على استقطاع الضريبة، لصالح مؤسسة خيرية تساعد الناس الأكثر فقرًا في العالم. (انظر الأمثلة على هذه البرامج في الفصل الخامس).

6. اتصل بالنواب السياسيين الممثلين لك، وأخبرهم بأنك تريد للإعانة الأجنبية التي يقدمها بلدك أن تكون موجهة فقط إلى الناس الأكثر فقرًا في العالم.

7. أنت الآن قد صنعت بذلك فرقًا بالنسبة إلى بعض الناس الذين يعيشون في فقرٍ مُدقِع. (حتى إذا كنت لا تستطيع أن ترى أولئك

الذين تساعدهم). إضافة إلى ذلك، فإنك ستكون قد برهنت على أن الموجودات البشرية يُمكن أن يؤثّر فيها البرهان الأخلاقي. وانعم بالارتياح لكونك مشاركًا في الحل.

الدافعية الكبرى

إذا كنت أنت وغيرك من ميسوري الحال في الدول الثرية قادرين على التبرُّع بنسبة 5% -على سبيل المثال- من دخلك من أجل مكافحة الفقر العالمي؛ فالأرجح أن هذا لن يقلل من سعادتك على الإطلاق. ربما ينبغي لك أن تقوم ببعض التعديلات على إنفاقك للمال، ولكن من الأرجح تمامًا أن تجد أن هذه التعديلات لن تُحدِث أي فرق في رفاهة حياتك. فبدلًا من أن تنفق من أجل الحفاظ على مظهرك، بحجة أنك إن لم تفعل ذلك سيظن الناس أنك غير قادر على شراء ملابس جديدة أو سيارة جديدة أو تجديد منزلك؛ فإنك الآن لديك مبرر جيد في الإبقاء على الأشياء التي تجدها مريحة تمامًا ونافعة: فأنت لديك الآن طريقة أفضل لاستخدام المال. بل يمكنك الآن أن تكون أكثر سعادة؛ لأن المشاركة في جهد جماعي من أجل مساعدة الناس الأكثر فقرًا في العالم، سوف يمنح حياتك معنًى وتحقُّقًا أكبر. وكما رأينا، فإن الناس في «مجموعة شركات بير ستيرنز Bear Stearns» وجدوا أن تبرعهم مُرضِيًا، وكثير من أعضاء «رابطة الـ 50%» -بمن فيهم من يكونون غير أثرياء على الإطلاق- يشعرون أن تبرعهم قد جلب معنى لحياتهم وهدفًا لها. وهذا يمكن أن يحقق لك الأمر نفسه.

منذ وقت ليس بالطويل، في أثناء حفل عشاء مع رئيس إحدى الجامعات حيث أُعطيت لي الكلمة، وجدتُني أجلس إلى جوار كارول كولر Carol Koller، وهي إحدى جامعي الأموال للجامعة. بدأنا الحديث عن التبرُّع وعن الدور الذي يقوم به في جعل حياة الناس مليئة بالمعنى، وقد ذكرَت لي القصة التالية:

> «بمجرد أن بدأت في تولّي وظيفة جديدة كمدير تنفيذي لمؤسسة أحد المراكز الطبية، أخبرني أحد أعضاء مجلس الإدارة أن هناك شخصًا ما ينبغي أن ألتقي به. وقد أردف قائلًا: إن هذا الشخص كانت تغلب عليه فظاظة الطبع، وكان من النادر أن يتبرّع للناس عندما يُطلَب منه ذلك. لم أتعجل مقابلته، ولكن المركز

الطبي كان يقوم بالإعداد لبناء عيادة صحية لأجل النساء من ذوي الدخل المتدني والأطفال، وهو كان يمتلك الأرض التي يريد أعضاء المركز البناء عليها. أما أنا فقد كنت أتوقع الحصول على الأرض من باب التبرع.

اتصلت به، وعرَّفته بنفسي، وقلت له إنَّ هناك قطعة من الأرض يمتلكها أودُّ أن أتناقش معه بشأنها. وقد أجاب بأنه يرحب بالحديث، ولكنه لم يقدم وعدًا بأي شيء. وقد اختار أن يكون الحديث بهذا الشأن في مكتبي.

حضر إلى مكتبي. كان رجلًا ضخمًا، مصممًا على الاشتغال بالتجارة ومعتادًا بوضوح على السيطرة. كان مكتبي صغيرًا. جلسنا على مقربة من بعضنا. شرحت المشروع له. طلبت منه أن يعمل معي من أجل التوصُّل إلى كيفية إنجاز هذا المشروع. ومما أثار ذهولي أن عينيه بدأتا تمتلآن بالدموع. قال لي إن كل شخص قد عرَف كيف أمكنني أن أحقق أي شيء سعيت إليه في مجال التجارة، ولكنني كنت أريد دائمًا أن أفعل شيئًا ما له قيمة حقيقية. وقال لي إنه لم يعرف ولم يستطع -حتى اليوم- أن يجد أي شخص يمكن أن يساعده على فعل ذلك.

وقد شرح لي أن الناس حقَّروا من شأنه حينما طلبوا منه التبرُّع بمبلغ 5,000 أو 10,000 دولار. ولذلك فقد طردهم، وكان غالبًا ما يطلب منهم أن يغربوا عن وجهه. وقبل أن يغادر مكتبي في ذلك اليوم، تعهد بأن يتبرّع بمبلغ 500,000 دولار.

لم أطلب منه أن يتبرّع بمال على الإطلاق. لقد طلبت منه فقط أن يتعاون معي. لقد كان هذا الرجل ينتظر لسنوات عديدة شخصًا ما كي يمنحه الفرصة في منح هبة طالما اشتاق إلى منحها. وقبل أن يموت كان سعيدًا بالتبرُّع بمبلغ 14 مليون دولار أخرى لصالح المجتمع. وعندما قام بتدشين مشروع آخر عمل على تمويله في حضور مئات عديدة من الناس، انسابت دموعه مرة أخرى حينما قال: هناك من بين الحضور امرأة غيرت حياتي».

عبر آلاف عديدة من السنين قال الناس الحكماء إن فعل الخير يحقق

الوفاء بالاحتياجات. وقد نصح بوذا Buddha أتباعه قائلًا: «وطّن قلبك على فعل الخير. افعله مرارًا وتكرارًا، وسوف تجد نفسك ممتلئًا بروح البهجة». وقد علّمنا سقراط وأفلاطون أن الإنسان العادل يكون سعيدًا[1]. وقد فعل ذلك أبيقور Epicurus أيضًا. ونحن اليوم نطلق صفة «الأبيقوري» على المرء الذي يجد متعته في الطعام الجيّد والشراب. ومع ذلك فإن هذا الفيلسوف الذي اقترن اسمه بهذه الطريقة في العيش، قد كتب قائلًا: «من المستحيل أن تعيش حياةً سعيدة، من دون أن تعيش أيضًا بشعور مرهف وبطريقة نبيلة وعادلة»[2].

حكمة القدماء لا تزال سارية. هناك دراسة مسحية أُجريت على 300.000 أسرة أمريكية، قد اكتشفت أن أولئك الذين يتبرّعون بغرض الإحسان كانوا يمثلون 43%، وكانوا على الأرجح أكثر «سعادة للغاية» من أولئك الذين لم يتبرعوا؛ وهذا الرقم كان مشابهًا بالنسبة لأولئك الذين شاركوا بالعمل التطوعي لصالح مؤسسة خيرية مقارنةً بأولئك الذي لم يفعلوا ذلك. وهناك دراسة منفردة قد أظهرت لنا أن أولئك الذين يتبرعون كانوا أقل شعورًا «باليأس» بنسبة 68%، وأقل بنسبة 34% «شعورًا بالحزن البالغ الذي لا يمكن معه لشيء أن يبهجهم»[3].

«منظمة الصليب الأحمر الأمريكية» -التي لديها خبرة واسعة مع العاملين المتطوعين والمتبرعين بالدم- تتخذ رؤية مشابهة. إنها تشجع الناس على التطوع بأن تقول لهم: «إن مساعدة الناس تبدو أمرًا خيّرًا، وتساعدك على أن تشعر بأنك بخير». جين بيليافِن Jane Piliavin -أستاذة علم النفس- أخضعت هذا الأمر للاختبار، ووجدت أن التبرُّع بالدم يؤدي إلى هذا الشعور، مثلما أن التطوع بوجه عام يجعل الناس يشعرون بأنهم بخير. وهذا التأثير يكون ملحوظًا بوجه خاص لدى الناس الأكبر سنًّا، وهو في واقع الأمر يكون ملحوظًا لدرجة أن هناك دليلًا على أن التطوع يعمل على تحسين صحة كبار السن، ويساعدهم على إطالة عمرهم. وفي مقابل ذلك، فإن تلقي المساعدة لا يكون له تأثير نافع كبير. ويعلق على ذلك عالم النفس

(1) Buddha, *Dhammpada*, sec. 9< stanza 118> in T. Byron, ed., *Dhammpoda: The Saying of Buddha* (Boston: Shambhala, 1993), cited by Jonathan Haidt, *The Happiness Hypothesis* (New York: Basic Books, 2006), chapter 8. Plato, *The Republic*, 354.

(2) *The Philosophy of Epicurus*, G.K. Strodach, trans.. (Chicago: Northwestern University Press, 1963), p. 297. Cited by Haidt.

(3) Arther Books, «Why Giving Makes You Happy,» *New York Sun*, Community Benchmark Survey, while the second is from the University of Michigan's Panel Study of Income Dynamics.

جوناثان هايت Jonathan Haidt -مؤلف كتاب **«فرضية السعادة»** *The Happiness Hypothesis*- قائلًا: «على الأقل بالنسبة للناس كبار السن، تكون البَرَكة بالفعل في التبرُّع أكثر مما تكون في التلقي»[1].

الرابطة بين التبرُّع والسعادة واضحة، ولكن الدراسات المسحيّة لا يمكن أن تُبيّن لنا اتجاه العلاقة السببية. ومع ذلك، فإن الباحثين قد فحصوا بعناية ما يحدث في أمخاخ الناس حينما يفعلون أشياء خيِّرة. في إحدى التجارب، قام عالم الاقتصاد وليام هاربوج William Harbaugh ودانيل بورجارت Daniel Burghart وعالم النفس أولريش ماير Ulrich Mayer، بإعطاء مبلغ 100 دولار لكل طالبة من الطالبات التسع عشرة. وبينما كان يُجرى على أمخاخهن رسمٌ بالتردد المغناطيسي يُبيّن النشاط في الأجزاء المتنوعة للمخ، أُعطيَت الطالبات حرية اختيار التبرُّع ببعض المبلغ لبنك محلي في الغذاء يعمل من أجل مساعدة الفقراء. وللتيقّن من أن أيّة تأثيرات ملحوظة قد جاءت بكليتها بفعل التبرُّع وليس بفعل الاعتقاد في أن الآخرين سوف ينظرون إليهم باعتبارهم كرماء، تم إخبار الطلبة بأنه لا أحد، ولا حتى من يقومون بإجراء التجربة، سوف يعلم من هي الطالبة التي قامت بتبرُّع. وقد اكتشف البحث أن الطالبات حينما تبرَّعْنَ، تم تحفيز «مراكز المكافأة في الدماغ»، وهي: النواة المذنَّبة caudate nucleus[2]، والنواة المتكئة nucleus accumbens[3]، والإنسولاى insulae[4]. فهذه هي الأجزاء من المخ التي تُستحث عندما نأكل شيئًا ما حلو المذاق أو نتلقّى مالًا. أصحاب النزعة الغيرية غالبًا ما يتحدثون عن «حالة دفء المشاعر» التي يحصلون عليها من خلال مساعدة الآخرين. وإذًا فنحن الآن قد رأينا

---

(1) J. A. Piliavin, «Doing Well by Doing Good: Benefits for the Benefactor,» in C.L.M. Keyes and J. Haidt (eds.), *Flourishing: Positive Psychology and the life-Well Lived (Washington D.C.: American Psychological Association,* 2003), pp. 227-47, S.L. Brown, R.M. Nesse, A. D. Vinokur, and D. M. Smith, «Providing Social Support May Be More Beneficial tham Receiving It: Results from a Prospective Study of Morality,» *Psychological Science* 14 (2003), pp. 320-27, P. A. Thoits and L. N. Hewitt, «Volunteer Work and Well Being,» *Journal of Health and Social Behaviour* 42 (2001), pp. 115-31. I owe these reference to Jonathan Haidt, *The Happiness Hypothesis* (New York: Basic Books, 2006), chapter 8.

(2) النواة المذنبة أو الذنبية هي أكبر العقد القاعدية في الدماغ، وتتكون من رأس كبير في الأمام، وجسم في الوسط يسير فيه الوريد المهادي، وذيل يسير تحت المهاد وينتهي بالنواة اللوزية. [المترجم]

(3) هي المنطقة الكائنة في المخ المسؤولة عن الشعور بالمكافأة، وهي تنشط عند حصول المرء على الطعام الجيد أو المال والثناء والسمعة الجيدة، وغير ذلك من المحفزات. [المترجم]

(4) هو «الفص الجزيري» في المخ الذي يستخذ شكلًا هرميًا، والمسؤول عن العواطف والمشاعر وعلاقتها بالإدراك والوعي وحالة الاستتباب داخل الجسم. [المترجم]

أن هذا الشعور يحدث في المخ[1].

معظمنا يفضل الانسجام على التنافر، سواء بين أنفسنا والآخرين أو داخل عقولنا. هذا الانسجام الباطني يتهدده أي تعارض ساطع بين الطريقة التي تعيش بها والطريقة التي تعتقد أنك ينبغي أن تعيش بها. إن تأمّلك العقلي قد يُخبرك أنك ينبغي أن تفعل شيئًا ما جوهريًا من أجل مساعدة أفقر الناس في العالم، ولكن مشاعرك قد لا تدفعك للفعل وفقًا لهذه الرؤية. فإذا كنت مقتنعًا بالبرهان الأخلاقي، ولكنك لست مدفوعًا للفعل وفقًا لذلك؛ فإني أوصي بأنه بدلًا من القلق بشأن المقدار الذي يمكن أن تفعله لكي تعيش حياةً أخلاقية، يمكنك أن تفعل شيئًا ما يكون أكبر بشكل ملحوظ مما كنت تفعله حتى الآن. ثم شاهد كيف سيكون شعورك بذلك. فقد تجد ذلك مُجزيًا بأكثر مما كنت تتخيل.

لقد كنتُ محظوظًا حقًّا بمعرفتي بهنري سبيرا Henry Spira، وهو رجلٌ أمضى حياته في القيام بحملات من أجل المضطهدين والفقراء والمظلومين. وحيث إنه لم يكن لديه أبدًا كثيرًا من المال، فإن شكل الإحسان لديه قد تمثل في التبرُّع بوقته وطاقته وذكائه من أجل تحقيق فَرق ما. وهو في فترة الخمسينيات قد سار في مظاهرات في إطار حركة الحقوق المدنية في الجنوب. وقد أبحر حول العالم باعتباره تاجرًا بحّارًا، وعمل لحساب منظمة متحدة تكافح رؤساء الاتحادات الفاسدة. وفي فترة الستينيات، شاهدته يقوم بالتدريس في أكثر المدارس العامة العليا تشدُّدًا في مدينة نيويورك. وفي السبعينيات أصبح مُدافِعًا مؤثّرًا بشكل استثنائي عن الحيوانات؛ وكان من بين إنجازاته العديدة إقناع شركات التجميل بأن تجد بدائل لتجريب منتجاتهم على الحيوانات[2]. وعندما كان سبيْرا في حوالي السبعين من عمره، اكتشف إصابته بالسرطان، وعرف أنه لن يعيش طويلًا. قضيتُ معه بعض الوقت آنذاك، وفي إحدى مناقشاتنا سألته عما دفعه لأن يمضي حياته في العمل من أجل الآخرين. أجاب قائلًا:

أظن أن المرء في الأصل يريد أن يشعر أن حياته قد بلغت ما هو

(1) William T. Harbautgh, Ultrich Mayer, and Daniel Burghart, «Neural Responses to Taxation and Voluntary Givin Reveal Motives for Charitable Donations,» *Science*, vol. 316, no. 5931 (June 15, 2007), pp. 1622-25.

(2) For more information about Henry Spira, see Peter Singer, *Ethics into Action: Henry Spira and Animal Right Movement* (Lantham. MD: Rowman and Littlefield, 1998.

أكثر من استهلاك المنتجات وإنتاج القمامة. أظن أن المرء يحب أن ينظر من ورائِهِ ويقول لنفسه أنه قد فعل قصارى جهده ليجعل من هذا وضعًا أفضلَ للآخرين. يمكنك أن تنظر إلى ذلك من هذه الوجهة من النظر. ما الدافعية الأكبر التي يمكن أن تكون هناك سوى فعل ما يُمكن للمرء أن يفعله من أجل تخفيف الألم والمعاناة؟

كلمة ختامية

في السنة التالية على إرسالي نص هذا الكتاب لدار النشر، حدثت حادثتان بالغتا الأهمية: إحداهما وجدت ذيوعًا هائلًا، والأخرى لم تجد أي اهتمام تقريبًا.

الزلزال المأساوي الذي ضرب هايتي في يناير 2010 قتل 200,000 شخص -وبعض التقديرات تقول إن خسارة الأرواح بلغت 300,000 شخص- ودمَّر منازل ملايين أكثر من ذلك. المشاهد التليفزيونية للناجين المذهولين المكلومين، ومشاهد المُنقذين وهم يسحبون الناس من بين ركام المباني المنهارة، قد سادت التغطيات الإخبارية لأيام عديدة وكشفَت عن موجة عارمة من التعاطف العام. نصف بليون دولار تقريبًا تم التبرُّع بها لإعانة الجهود، وهو مبلغ ليس بقدر المبلغ الذي تم التبرُّع به في إثر التسونامي الأسيوي سنة 2004، أو إعصار كاترينا الذي ضرب نيو أورليانز، وإن كان يظل مبلغًا كبيرًا للغاية كتبرّع من أجل كارثة في بلد فقير، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الاقتصاد العالمي كان يتعافى مترنحًا من جرّاء الأزمة المالية التي ضربت العالم سنة 2007. وفي الولايات المتحدة تبرّع أكثر من 3 ملايين أمريكي بمبلغ 10 دولارات لكل شخص من خلال إرسال رسالة على رقم هاتف معين تحمل اسم «هايتي». وقد قيل إن البليونير لاعب الجولف تايجر وودز Tiger Woods تبرّع بمبلغ 3 ملايين دولار. وفي رواندا قامت مجموعة من العاملين في الصحة المجتمعية ممن يتقاضون أقل من 200 دولار في الشهر، بجمع 7000 دولار من أجل هايتي.

كثير من الناس نظروا للاستجابة لهذه المأساة باعتبارها علامة مشجعة على الشفقة العالمية تجاه أولئك الذين يكونون في احتياج. نعم، إنها كذلك... ولكنها علامة على مستوى متواضع فحسب من الشفقة. فالثلاثة ملايين شخص الذين استجابوا يبلغون 1% فقط من عدد سكان الولايات المتحدة، ومبلغ 10 دولارات هو أقل من تكلفة تذكرة سينما. وما فعله عمال الصحة الرواندیون كان مُثيرًا للإعجاب بدرجة أكبر كثيرًا.

وقد كانت هناك تغطية إعلامية أقل بكثير لإعلان «صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة» UNICEF عن أن عدد الأطفال الذين يموتون من جرّاء أسباب مرتبطة بالفقر يواصل الهبوط. وكما بيّنا في هذا الكتاب، فإن هذا العدد في سنة 1960 قُدِّر بنحو 20 مليونًا. وفي سنة 2007 هبط

العدد إلى ما دون 10 ملايين. ذلك إنجاز ملحوظ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن عدد سكان العالم آنذاك كان فقط 2.5 بليون، وقد تزايد إلى 6.5 بليون سنة 2007. والآن في معظم التقديرات الحديثة المتاحة، يبلغ عدد الأطفال الذين يموتون سنويًا بسبب الفقر قبل بلوغهم الخامسة من عمرهم 8.8 مليون. ومن ثَمَّ، فإن الرقم الذي أستخدِمه في هذا الكتاب، وهو أن 27,000 طفل يموتون كل يوم، ينبغي تخفيضه في هذه اللحظة إلى 24,000. إن إنقاذ حياة 3,000 طفل يوميًا يعني أنه خلال 100 يوم سيتم إنقاذ حياة عدد من الأطفال يساوي عدد الأرواح التي تم خسارتها في مأساة هايتي. ولو أننا نظرنا إلى العدد 24,000 الذي يتم خسارته من أرواح الأطفال، فإننا بالتأكيد سوف نشعر بالفزع إزاء المأساة التي يمكن تحاشيها فيما يتعلق بكثرة عدد الأطفال الذين يموتون. ومع ذلك، فإننا إذا ما نظرنا إلى مدى التقدُّم الذي تم إحرازه في السنتين الأخيرتين، فإنه يُمكننا أن نستقبل بيانات «اليونيسف» بابتهاج.

إن الأخبار المستمدة من إحصائيات وليس من أشخاص فعليين، لا تجد تغطية إعلامية كبيرة؛ ذلك أن الوهم الذي يرى أن الإعانة لا تحقق هدفها لا يزال حاضرًا. هذا الكتاب قد تم نشره الآن في اثنتي عشرة دولة مختلفة، بدءًا من أستراليا إلى السويد، ومن كوريا إلى البرازيل، وقد أجريت حوله لقاءات إعلامية وتحدثت إلى الجمهور في كل أنحاء العالم. ومع ذلك فإن الردّ الأكثر شيوعًا على برهاني والذي لا يزال متواصلًا هو أننا ليس علينا إلزام بأن نتبرّع للفقراء؛ لأننا إذا فعلنا ذلك، فإن معظم ما نتبرّع به لن يصل إلى من يحتاجون إليه. نقص الاهتمام الموجه إلى بيانات منظمة «اليونيسف» يجعل من الصعب إعلام الجمهور بأننا نحرز تقدمًا، وبأن الإعانة -خاصة الإعانة التي تكون موجهة لتحسين صحة الأطفال- هي جزء كبير من هذا التقدم.

وبشكل ساخر -إذا وضعنا في الاعتبار أن الكثير جدًّا من الناس يشكُّون في فاعلية الإعانة- فإن الإعانة التي استهدفت إنقاذ حياة الأطفال الذين يعيشون في فقر، هي إعانة لها كُلفة فعّالة أكثر من إغاثة الحالات الطارئة. ورغم أن إغاثة الحالات الطارئة في إثر كوارث طبيعية تكون مطلوبة بالتأكيد، فإنه في حالة الفوضى العارمة التي تسود في إثر كارثة طبيعية كبيرة، يكون غالبًا من غير الواضح مقدار ما يكون مطلوبًا، وكيف سيصل للناس الذين يحتاجون إليه، ومن الذين سوف ينسقون جهود الإعانة.

الإعانة على المدى الطويل، مثل التأكّد من وجود استعداد لمواجهة الكوارث الطبيعية (وهو يتضمن -في منطقة حزام الزلازل- إعادة البناء وفقًا لمعيار قادر على التصدّي بشكل أفضل للزلازل) هو على الأرجح بمثابة استخدام فعّال لمصادرنا بشكل أكبر من فاعلية إغداق المال لمساعدة الضحايا بعد حدوث الكارثة.

الأطفال البالغ عددهم 8.8 مليون الذين يموتون بسبب الفقر سنويًا منتشرون في القرى والأحياء الريفية الفقيرة في كل أنحاء العالم، حيث لا تُوجد كاميرات تليفزيونية تركّز عليهم. ومن الأكثر صعوبة التركيز على الأطفال الذين لم يموتوا، ولكنهم سوف يموتون إذا لم يكن هناك برنامج إعانة مموّل لتطعيمهم ضد الحصبة، ولتوفير المرافق الصحية والمياه الآمنة لهم، ولتزويدهم بستائر الفراش الشبكية الواقية من الإصابة بالملاريا، أو لإنشاء عيادات صحية ريفية تُعلّم آباءهم كيف يعالجون مرض الإسهال.

تخيل مليون طفل محاصرين بمياه فيضان متزايدة فوق أرض مرتفعة تتقلص بازدياد ارتفاع منسوب المياه. ونحن نعرف أننا إذا لم ننقذهم سريعًا، فسوف يموتون. كل نشرة إخبارية ستؤدي إلى تطوير جهود الإنقاذ المبذولة، فسوف تكون هناك طائرات هليكوبتر على متنها طاقم تليفزيوني تحوم فوق رؤوسهم، وسوف تغطّي شبكة المعلومات حالة الأطفال على مدى 24 ساعة. وسوف يتعهد قادتنا بمساعدتهم، وسوف نتبرّع من أجلهم بسخاء إلى أن نعلم أنهم بأمان. وبخلاف ذلك، فإن وفيات الأطفال في البلدان الفقيرة بسبب الإسهال والحصبة والملاريا، قد أصبحت جزءًا من خلفية مشهد العالَم الذي نعيش فيه، وإذا كانت لدينا أية معرفة بها على الإطلاق؛ فإننا على الأرجح سوف نؤمن بأنها مشكلة ستكون معنا على الدوام. ولكن الأمر ليس كذلك. ففي السنتين الأخيرتين أنقذنا حياة مليون طفل. وخلال السنوات التالية، إذا تبرّعنا بشكل أكبر ملحوظ، فإننا يمكن أن ننقذ مجمل الأطفال الذين يموتون بسبب الفقر البالغ عددهم 8.8 مليون.

غالبًا ما يُوجّه إليّ السؤال عما إذا كنت سعيدًا باستجابة الناس لهذا الكتاب، ولكن كيف أكون سعيدًا به ما دامت الإعانة التي يُقدّمها أثرياء العالم إلى أولئك الذين يكونون في فقرٍ مُدقِع تظل كما هي الآن في مستويات متواضعة للغاية؟

إن القصد من وراء هذا الكتاب لم يكن هو الحصول على متابعات جيدة له في الصحف، أو حتى بيع قدر كبير من النُسخ. فالقصد من ورائه

كان -وسيظل- إحداث تغيير في الطريقة التي نعيش بها. الاستجابات التي تسعدني على أفضل نحو هي دائمًا استجابات تأتي من أناس فعلوا شيئًا ما لأنهم قرأوا الكتاب، أو سمعوا عمّا يبرهن عليه. ومن حسن الحظ أن كثيرًا من الناس قد أخبروني -في أثناء اللقاءات الإعلامية، ومن خلال الصحف، والمقالات، والرسائل الإلكترونية، أو عندما توجهوا نحوي بعد حديث ألقيته- أنَّ الكتاب قد غير مقدار ما يتبرعون به. وهناك آلاف راحوا يتصفحون موقعي على شبكة المعلومات: **www.thelifeyoucansave.com** وتعهّدوا بأن يتبرعوا وفقًا للمعايير المطروحة في الفصل الأخير من هذا الكتاب، وهناك الكثيرون الذين يقدمون تعهدهم طيلة الوقت.

يمكنك أن ترى كثيرًا من التعليقات من أناس قاموا بالتعهد، وصورًا للناس الذين يقومون بالتعليق، على ذلك الموقع. وفيما يلي مجرد أمثلة قليلة على تلك التعليقات:

> لدي هدف في الحياة، وهو طريق أكثر أهمية من كل السيارات، وكل مشروبات المارجريتا، وشاشات التليفزيون المسطحة. سوف أشعر بالعار إن لم أفعل ذلك.
>
> - Yevgenijs Veinbergs
>
> دخلي يبلغ فقط 19,300 يورو، ولكني الآن أقدم تبرعات خيرية بنسبة 5% من هذا المبلغ؛ بسبب قراءتي لكتاب **«الحياة التي يمكنك إنقاذها»**.
>
> - Peter Bond
>
> قررت أن أكتب التعهد لأنني أردت أن أكون جزءًا ضئيلًا في إظهار الفهم المشترك للكيفية التي ينبغي بها أن نساعد الناس الأشد فقرًا.
>
> - Kathryn Smith
>
> لقد قرأت كتاب بيتر حينما كنت طالبًا مبتدئًا في الجامعة. لقد ساعدني ذلك على أن أتبين مشاعري وأن أغير اتجاهي في الحياة.
>
> – Doug Bishop
>
> (وهو الرجل الذي أرفق صورة لنفسه في أثناء قيامه بالتدريس لأطفال في مدرسة بغانا)

البرهان الأخلاقي كان مُلزمًا تمامًا بإنصاف.

- Nancy Kosinski

لقد كنا توّاقين إلى القيام بالتعهد بعد قراءتنا لكتاب بيتر؛ ببساطة لأنه ليست هناك أسباب منطقية تجعلنا لا نفعل ذلك.

- Charles Gillanders and Anna Visser

أشكرك على إنشاء هذا الموقع [على شبكة المعلومات]؛ فقد ساعدني على أن أتذكر كم تعدّ مشكلاتي تافهة في إطار المنظور الأكبر للأشياء، وكم أنا محظوظة.

- Amanda Catching

إن تبرعي هو بمثابة «زكاة العُشر التي يُؤتِيها ملحد» لأجل القضاء على المعاناة المرتبطة بالفقر.

- Erroll Treslan

(وهو الشخص الذي تبرّع أيضًا بنسخة من هذا الكتاب لكل عضو من أعضاء البرلمان الكندي)

ليس لدي -من الناحية المالية- الكثير لأدخره. ومع ذلك، فحيث إنني أعرف الآن كم هو سهل بالنسبة حتى لشخص مثلي أن ينقذ حياة شخص ما؛ فإنني لم أتردد في التفكير بشأن التبرُّع بما أستطيع.

- Cassandra Ingles

هذه التعليقات -وهناك الكثير جدًّا غيرها تستحق الذكر- هي مشاعر قلبية دالة على القدرة البشرية على الاستجابة للبرهان الأخلاقي. ولكنّ لديّ تعليقين خاصين أثيرين عندي. أحدهما جاء من هيو كارنيجي Hugh Carnegy، المحرر التنفيذي لصحيفة *Financial Times*. فهو يرى في تعليقه أنه كان المرء يظن أنه قد عرف كل ما هنالك مما يمكن معرفته عن الفقر في العالم. ولكنه -في عرضه للكتاب بصحيفته- قدّم وصفًا للبرهان الوارد في الفصل الأخير من هذا الكتاب، الخاص بمقياس متدرج للعطاء:

عندما تكون في مواجهة هذا البرهان، من الصعب ألا تسأل نفسك كم يبلغ مقدار تبرعك. نعم، أقول إنني سوف أذهب

> لشراء أشياء لست بحاجة إليها في واقع الأمر. ولكن، نعم أقول أيضًا، إن هذا الكتاب قد أقنعني بأنني ينبغي أن أتبرّع بالمزيد -المزيد بشكل ملحوظ- من أجل مساعدة أولئك الأقل حظًّا.

إجابتي المفضلة تمامًا عندي تعود بنا إلى الفصل الأول من هذا الكتاب التي سألتك فيها إذا ما كنت ستنقذ طفلًا يغرق في بركة مياه ضحلة، حتى إن كان فعلك هذا سوف يتلف حذاءك الجديد. أرسلت كريستا روجرز Christa Rogers إلى الموقع على شبكة المعلومات صورةً لها مع أسرتها. إنها تلبس حذاءً أنيقًا. قالت في رسالتها:

> لقد تعهّدت لأنني أمكنني أن أستجيب بطريقة مباشرة للغاية للمثال الصريح على إنقاذ طفل نظير كلفة حذاء. حتى وقت قريب كنت عضوة مُتعامِلة مع شركة خِدمات كانت ترسل لي حذاءً أنيقًا كل شهر، ومع ذلك فإنني لم أكن أتبرّع بأي شيء لإنهاء الفقر أو مساعدة أولئك الذين يكونون معوزين. وقد ألغيت تلك الخدمة، وأنا الآن أتبرّع بهذا المال للفقراء.

يمكنك أن تنضم إلى هيو كارنيجي وكريستا روجرز وإلى آلاف آخرين في عدد هائل من الدول المختلفة، من خلال زيارتك لموقع www.thelifeyoucansave.com، والتعهد بالوفاء بالمبادئ الإرشادية للتبرّع وفقًا لدخلك. أعِر هذا الكتاب للآخرين، مشجّعًا لهم على قراءته وعلى أن يوقعوا على صفحة التعهد الخاص التي تُوجَد في صدر الكتاب. وإن لم يكن لديك صبر على التعامل مع المكان، فيمكنك أن تجد نسخة من التعهد في الموقع على شبكة المعلومات بغرض طبعه وتمريره مع الكتاب. إن تعهدك الخاص يمكن أن يُحدِث فرقًا مهمًّا بالنسبة إلى طفل ما، وإلى عائلة ما، أو حتى بالنسبة إلى قرية ما؛ ولكن إذا كان للعالم أن يتغير، فإن الرسالة ينبغي أن تنتشر، إلى أن يصبح عدد من تعهدوا بمثابة كتلة حرجة تغير من اتجاه العالم الثري، بحيث نرى أن مساعدة أولئك الذين يكونون في عوز كبير تشكل جزءًا من معنى أن نحيا حياة أخلاقية.

بيتر سينجر

عِرفان

تلقيت دعوة من البروفيسور جوليان سافوليسكو Julian Savulescu لإلقاء محاضرات مركز أويهيرو Uehiro لسنة 2007 في **الأخلاق العملية** *Practical Ethics* بجامعة أوكسفورد، وكان ذلك هو ما دفعني للبدء في تأليف هذا الكتاب. المقصود من هذه السلسلة من المحاضرات السنوية هو بيان كيف يمكن تناول المسائل الكبرى في حياتنا اليوم بطريقة ذات مستوى أكاديمي عالٍ، ولكنه يكون في متناول الجمهور العام. تموِّل هذه المحاضرات «مؤسسة أويهيرو لفلسفة الأخلاق والتربية» التي يرأسها السيد إيجي أويهيرو Eiji Uehiro ويستضيفها «مركز أويهيرو أوكسفورد لفلسفة الأخلاق العملية». وقد تشرّفت بإلقاء محاضرات مركز أويهيرو عن سنة 2007، وأُعرِب عن امتناني لمؤسسة أويهيرو في فلسفة الأخلاق والتربية لدعمها لي في إنجاز هذه المهمة.

وقد تلقيتُ دعوة أخرى من إيلينا سيلفرمان Ilena Silverman المحررة بمجلة *New York Times Sunday Magazine*، قد حثّتني على أن أضع وجهات نظري في شكل يمكن أن يصل إلى أوسع جمهور. وقد ساعدتني كاثي روبينز Kathy Robbins -وكيلي الأدبي- على أن أجد الناشر المناسب. ولم أكن أتمنى محررًا للكتاب أفضل من تيم بارليت Tim Barrlett الذي أنفق قدرًا غير عادي من الوقت والجهد لكي يبين لي -مرارًا وتكرارًا- كيف يمكن للمسودة التالية أن توصل أفكاري بطريقة أكثر تأثيرًا من النسخة التي سلمتها له. وقد كانت مساعدته لينزي شويري Lindsey Shwoeri مُعينة لي دائمة، كما كانت المساندة والتشجيع من كل شخص في دار نشر Random House أمرًا رائعًا.

وبالإضافة إلى محاضرات أويهيرو، أهديت عملًا مرتبطًا بهذا الكتاب لزملائي ولرفاقي الزائرين «لمركز القيم الإنسانية بجامعة برنستون» ولزملائي -إذا اقتصرت على المناسبات الأكثر حداثة- في كلية سكريبس Scripps، بجامعة كاليفورنيا بلوس آنجليس، وجامعة Pacific Lutheran، وجامعة Quinnipiac، وجامعة Denison، ومعهد البحث في الأخلاق بجامعة زيوريخ، والجمعية الفلسفية الأمريكية في فيلادلفيا، وجامعة ملبورن، وجامعة موناش Monash (حيث ألقيت إحدى محاضراتي في ذكرى داسان Dasan في كوريا)، وجامعة أستكهولم التي ألقيت فيها

محاضراتي في ذكرى ويدبرج Wedberg سنة 2008.

وأنا أشكر بوجه خاص الأفراد التالين الذين تلقيت منهم اقتراحات أو معلومات قيمة: مليكة أهلواليا Malika Ahluwalia، وكوامي أنتوني Kwame Anthony Appiah، وستيف بارني Steve Barney، ولين بندر Lyn Bender، وتايلور كاون Tyler Cowen، وراتشل كروسون Ratchel Croson، وبام ديلورنزو Pam Dilorenzo، وكريس وإيمي إلينجر Chris and Anne Elinger، وإريك جريجوري Eric Gregory، وجوناثان هايت Jonathan Haidt، وإيلي هاسنفيلد Elie Hassenfield، وجيمس هونج James Hong، ودايل جاميسون Dale Jamieson، وستانلي كاتس Stanely Katz، وهولدن كارنوفسكي Holden Karnofsky، وماجده كينج Magda King، وكارول كولر Karol Koller، وزل كرافينسكي Zell Kravinsky، وكاترزينا دي لازاري-رادك Katarzyna de Lazari-Radek، ودافيد موراويتس David Morawez، وكريس أوليفولا Chris Olivola، ويونج سوون بارك Yung Soon Park، وميون بارك Miyun Park، وتوبي أورد Toby Ord، وريبيكا راتنر Rebecca Ratner، وروبرت رايش Robert Reich، وجيوف راسل Geoff Russel، وآجاتا ساجان Agata Sagan، وبراناي سانكليشا Pranay Sanklecha، وإلدر شافت Elder Shafit، وجين شانج Jen Shang، وإسرائيل شينكر Israel Shenker، وريناتا سينجر Renata Singer، وبول سلوفيك Paul Slovic، ولويس ستوري Louise Story، وجون وارنيك John Warnick، وليف وينر Leif Wenar. والشكر أيضًا موصول إلى الذين قدموا تعليقات على محاضراتي في ذكرى ويدبرج، لكلٍّ من: توربجورن تانسجو Torbjörn Tännsjö، وفولكه تيرسمان Folke Tersman، وإيفا أسبلوند Eva Asplund، وجوستاف آرهينيوس Gustaf Arrhenius. وكما يشير النص؛ فقد استفدت لسنوات عديدة من تعليقات طلبتي على المقررات الدراسية التي كنا نناقش فيها المسائل التي تغطي هذا الكتاب.

كما أن مايكل ليفمان Michael Liffman الأستاذ «بالمركز الباسيفيكي للإحسان والاستثمار الاجتماعي في جامعة سوينبرن Swinburne» قد شجعني على التفكير في المسائل الأخلاقية المتعلقة بالإحسان، وعلى أن أكون راعيًا مشاركًا لمؤتمر بجامعة برنستون حول هذا الموضوع. وفي جامعة

كولومبيا جمعني أكيل بيلجرامي Akeel Bilgrami مع جو ستيجلتس Joe Stiglitz وبيل إيسترلي Bill Easterly في مناقشة مثيرة للاهتمام عن مدى فاعلية الإعانة. كما أن مويسيس نايم Moises Naim «المشتغل **بالسياسة الخارجية** قد رتب لمناقشة حيوية أخرى لي مع مارتن وولف Martin Woolf في مونتيري بالمكسيك. ومن أعضاء «منظمة أوكسفام أمريكا» تفضل فيليب وايزر Philip Weiser وبول أوبرين Paul O'Brien بالإجابة عن تساؤلاتي؛ كما أن عايدة بِسكويري Aida Pesquera من مكتب أوكسفام في بوجوتا Bogotá، اصطحبتني في زيارة إلى مشروع «أوكسفام» بكولومبيا. كذلك رتّبت منظمة «أوكسفام بأستراليا» لزيارتي لجامعات القمامة والمهملات ببلدة بُونا بالهند اللاتي يتلقين العون من المنظمة؛ وقد موّلت الرحلة مارجي براينت Margie Bryant من مؤسسة Serendipity Production، باعتبار ذلك جزءًا من إمدادها الوثائقي لعملي. وقد أوصلني هاوارد جاردنر Howard Gardner بالأستاذ سكوت سيدر Scott Seider الذي أتاح لي الاقتباس بكثرة من بحثه الذي لم يكن منشورًا بعد. وقد أمدّني برينت هاوارد بمساعدته البحثية اللامحدودة والألمعية، كما ساعدتني جيسيكا لوكاس Jessica Lucas فيما يتعلق بالإحصاءات الواردة في الفصل العاشر. وفي جامعة برنستون، واصل كيم جيرمان Kim German مساعدته لي بوسائل لا حصر لها.

ولكن فوق ذلك كله، فإن ما أعتقد فيه فيما يتعلق بالتزاماتنا إزاء الفقراء هو نتاج اتخاذ قرارات مشتركة مع زوجتي ريناتا Renata إلى حد أنني يمكنني القول بأنني لم أكن لأفكر في هذه المسائل أو أفعلها أو أنظر فيها إن لم نكن معًا طيلة الأربعين سنة الماضية.

نبذة عن سينجِر

وُلِد بيتر سينجر في ملبورن بأستراليا سنة 1946، ودرس في جامعتي ملبورن وأكسفورد. وقام بالتدريس في جامعات لا تروبي La Trobe وموناش Monash، وعمل أستاذًا زائرًا في جامعات أخرى عديدة. وكان يعمل **أستاذًا** للأخلاق البيولوجية منذ سنة 1999 في مؤسسة .Ira W DeCamp التابعة «للمركز الجامعي للقيم الإنسانية بجامعة برنستون»؛ وهو يعمل منذ سنة 2005 -أستاذًا فخريًّا في جامعة ملبورن- في «مركز الفلسفة التطبيقية وفلسفة الأخلاق المجتمعية».

لقد بدأ بيتر سينجر يصبح مشهورًا عالميًّا بعد نشر كتابه عن **«تحرير الحيوان»** *Animal Liberation*. وهو مؤلف للكثير من الكتب الأخرى، كما أنه وضع المداخل الرئيسة للمواد المتعلقة بفلسفة الأخلاق في **«الموسوعة البريطانية»**. وقد نُشِرَت مجموعتان من كتبه: إحداها بعنوان **«كتابات نحو حياة أخلاقية»** *Writings on an Ethical Life*، قام هو بتحريرها بنفسه؛ والأخرى بعنوان **«حياة إنسانية بلا طهارة من الذنوب»** *Unsanctified Human Nature*، التي قامت بتحريرها هيلجا كوز Helga Kuhse. وهو الرئيس المؤسس «للرابطة العالمية لفلسفة الأخلاق البيولوجية»؛ وهو المؤسس المشارك -مع باولا كافاليري Paola Cavalieri- **«لمشروع القِرد الكبير»** *Great Ape Project*؛ وهو الآن «رئيس «المنظمة العالمية لحقوق الإنسان». وفي سنة 2005 وصفته مجلة *Time* بأنه «أحد المائة الأكثر تأثيرًا في العالم».

سينجر متزوج ولديه ثلاث من الفتيات وثلاثة من الأحفاد الصغار. وبعيدًا عن القراءة والكتابة، فإنه يمضي وقت استجمامه في التريض وركوب الأمواج.

وصفت صحيفة The New Yorker سينجر بأنه «أكثر الفلاسفة الأحياء تأثيرًا»، ووصفته صحيفة Timesبأنه «أحد الأشخاص المائة الأكثر تأثيرًا في العالم». لأول مرة في التاريخ، يكون استئصال الفقر في متناولنا. ولكن حول العالم يكافح بليون شخص من أجل العيش كل يوم على أقل مما يدفعه الكثير منا في شراء زجاجة مياه. في كتاب «الحياة التي يمكنك إنقاذها» يستخدم سينجر براهينَ

أخلاقية، وأمثلة مضيئة، ودراسات لحالات من التبرُّع الخيري

ليبيِّن لنا أن استجابتنا للفقر العالمي ليست فحسب غير كافية، وإنما هي استجابة لا يمكن الدفاع عنها أخلاقيًّا. كتاب «الحياة التي يمكنك إنقاذها» يعلمنا أن نكون جزءًا من الحل، بأن نساعد الآخرين مثلما نساعد أنفسنا.

كُتب أخرى لبيتر سينجر:

Democracy and Disobedience
Animal Liberation
Practical Ethics
Marx
Animal Factories
Expanding Circle
Hegel
The Reproduction Revolution
Should the Baby Live? (with Helga Kuhse)
How Are We to Live?
Rethinking Life and Death
Ethics and Action
A Darwinian Left
Writings on Ethical life
Unsanctifying Human Life
One World
Pushing Time Away
The President of Good and Evil
How Ethical Is Australia? (with Tom Gregg)
The Ethics of What We Eat (with Jim Mason)

«عندما تكون في مواجهة برهان سينجر، فمن الصعب ألّا تسأل نفسك ما هو مقدار عطائك. نعم سوف أذهب لشراء الأشياء التي لا أحتاج إليها حقًّا. ولكن هذا الكتاب أيضًا قد أقنعني بأني يجب أن أتبرّع بالمزيد -بالمزيد حقًّا- لأجل مساعدة الأقل حظًّا في الحياة».

-هيو كارنيجي Hugh Carnegy، المحرر التنفيذي لمجلة Fainancial Times.

«كن على حذر: فقراءة هذا الكتاب قد تكون خطيرة بالنسبة إلى تعريفاتك للأخلاقية وفعل البرّ وللكيفية الي يمكن بها أن تكون خيِّرًا. وهذا هو السبب في أنك يجب أن تقرأه».

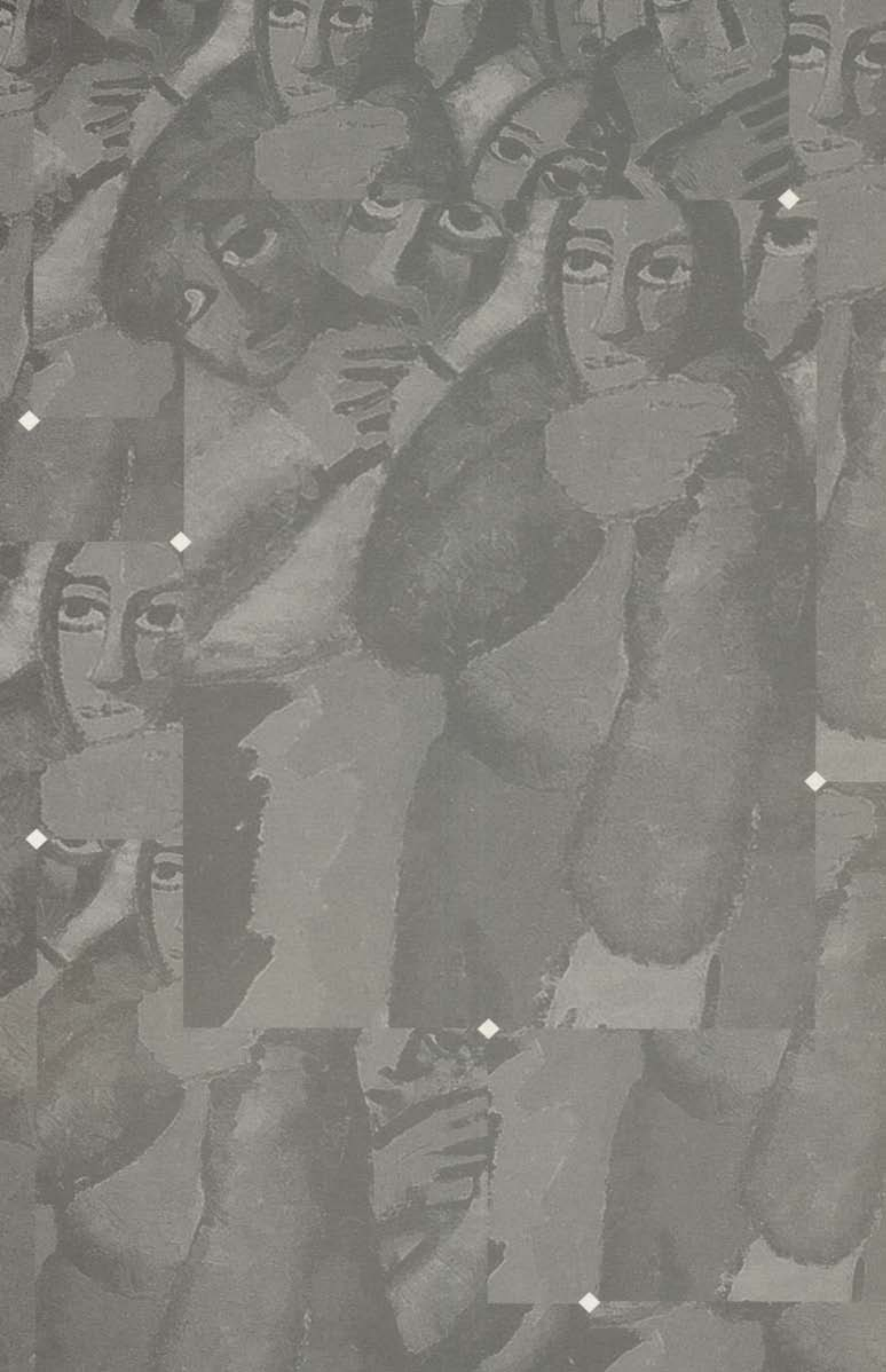
- The Christian Science Monitor

«السيد سينجر يفرض صوتًا أخلاقيًّا يسعى للمزيد جدًا من الشفقة على أولئك الذين يعيشون على أقل القليل»

- The Wall Street Journal

«برهان عقلاني في جانب منه، ومانيفستو لاذع في جانب آخر، وكتاب تعليمي في جانب ثالث».

- The New York Times



لا يقرأ هذا الكتاب على أنه مجرد دعوة للتبرع بالمال من أجل الفقراء، لمواجهة الفقر وما يرتبط به من أمراض وأحوال معيشية مزرية، فمثل هذه القراءة تختزل القيمة المعرفية اعتباره برهانًا فلسفيًا عمليًا على ضرورة الإحسان، وفقًا لبرنامج يحدد ما يمكن أن يتبرع به المرء بما يتناسب مع دخله، وبما لا يجور على معيشته الشخصية.


ISBN 978-603-91637-0-1



الطبعة الأولى: 2021